

كنا نخطو على الأرض بخفة

« راقصو النجوم »

«رواية»

سيرجو أتسيني

ترجمة : ناصر إسماعيل

كنا نخطو على الأرض بخفة

(راقصو النجوم)

سيرجو أتسيني

ترجمة : ناصر إسماعيل

كنا نخطو على الأرض بخفة
راقصو النجوم

الطبعة الأولى 1432هـ 2011م

كنا نخطو على الأرض بخفة
سيرجو أتسيني

PQ4861.T94 P3716 2011

Atzeni, Sergio

كنا نخطو على الأرض بخفة : (راقصو النجوم) / سيرجو أتسيني؛ ترجمة ناصر إسماعيل.- أبوظبي: هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، كلمة، 2011.

ص. 189 ؛ 17×24سم

ترجمة كتاب: Passavamo sulla terra leggeri : romanzo

تدمك: 978-9948-01-604-5

1-الأدب الإيطالي-المترجمات إلى «العربية».

2-الأدب العربي- المترجمات من الإيطالية

3-المسرحيات الإيطالية-المترجمات إلى «العربية».

أ- إسماعيل، ناصر.

هذا الكتاب يتضمن ترجمة الأصل الإيطالي:
Sergio Atzeni
Passavamo sulla terra leggeri

KALIMA

www.kalima.ae

ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 468 6314 2 971+ فاكس: 462 6314 2 971+

ISTITUTO PER L'ORIENTE
I.P.O.
C.A. NALLINO

www.ipocan.it

Via Alberto Caroncini, 19 - 00197 Roma (Italia) - Tel +39-06-8084106 + 39-06-8080710 Fax +39-06-8079395 - e-mail: ipocan@ipocan.it

مقدمة

في عام 1952 وُلد الأديب والشاعر والصحافي والمترجم الإيطالي سيرجو أتسيني في جزيرة سردينيا، أحد أقاليم ايطاليا، التي تتمتع بتاريخ عريق وبموروث ثقافي واجتماعي خاص يميزها عن بقية الأقاليم التابعة للجمهورية الإيطالية. عاش أتسيني طفولته في مدينة كالياري، عاصمة إقليم سردينيا، وبعد إنهائه مرحلة الدراسة الثانوية التحق بكلية الفلسفة التي لم يستطع إكمال الدراسة بها بسبب انخراطه في نشاطات سياسية وعمله الدؤوب في الصحافة في سن مبكرة جداً بدءاً من عام 1966. في عام 1986 مع صدور أول أعماله الأدبية «L'apologo del giudice bandito» «خرافة القاضي قاطع الطريق» رحل عن سردينيا ليجول في أوروبا ثم ليستقر نهائياً في مدينة تورينو، ولكن يشاء القدر أن يلقى حتفه غريقاً في مياه شاطئ جزيرة سان بيترو السردينية في صيف عام 1995. ابن «باكونين» «Il figlio di Bakunìn» و«الخطوة الخامسة ثم الوداع» « Il quinto passo è l'addio» و«كنا نخطو على الأرض بخفة» «Passavamo sulla terra leggeri» بالإضافة إلى «خرافة القاضي قاطع الطريق» هي من أهم الروايات التي كتبها «سيرجو أتسيني» والتي حظيت بتقدير النقاد والقراء. ورغم حياته القصيرة، فقد كان الإنتاج الأدبي لأتسيني غزيراً ويشمل مجموعة كبيرة من القصص القصيرة والدواوين الشعرية، بالإضافة إلى أعمال قام بترجمتها إلى «الايطالية» من لغات أخرى.

«كنا نخطو على الأرض بخفة» هي الرواية الأخيرة التي كتبها سيرجو أتسيني، فقد انتهى أتسيني من كتابتها في شهر أغسطس من عام 1995 وبعدها بأيام قليلة فقط انتهت زيارة أتسيني لسردينيا بطريقة مأساوية بغرقه في بحر جزيرة «سان بيترو». لذا فإن هذا العمل ينطوي على دلالتين مهمتين، فقد كان وداعاً مزدوجاً للعمل الأخير وللحياة أيضاً.

صدرت الرواية بعد وفاته في عام 1996 من دار «موندادوري» للنشر، وهي بمثابة رحلة عبر الزمن، وقراءة دقيقة لملامح هوية تتضح معالمها في نهاية طريق روائي يتركز على سردينيا. إن مهارة الحاكي ومعرفته بعلم الأنثروبولوجيا وباللغة، بوصفه شاعراً ومترجماً، تم تطويعهما لخدمة الكتابة التي كان يعيشها وكأنها لعبة ممتعة والتزام أخلاقي تلزمهما دراسة وجهد في مقارنة نماذج أدبية ذات تراث راسخ ومتنوع.

يهيمن على الافتتاحية ضمير المتكلم «أنا»، الذي يعبر به الكاتب عن نفسه، وهو الطفل ذاته ذو الثماني سنوات الذي استأمنه أنطونيو سيتسو «حارس الزمن» في يوم الثاني عشر من شهر أغسطس لعام 1960 على الذكريات القديمة للسردينيين حتى ينقلها بدوره شفهياً إلى شخص آخر. ولكن، بعد أربعة وثلاثين عاماً، أراد المؤلف أن يؤدي مهمته تلك في قص الحكاية كتابةً، حيث إنها وسيلة أطول بقاء، لكن مع التزامه بالطابع الشفهي للحكايات في الطريقة والإيقاع وفي التعبير اللغوي.

تغطي أحداث الرواية فترة زمنية طويلة: في البداية يتم تقديم القارئ إلى البعد «اللاتاريخي» للأسطورة التي تستدعي للذاكرة السكان القدماء للجزيرة: إنهم «السارد» أي «راقصو النجوم»، القادمون من الشرق والذين هبطوا على جزيرة بلا اسم بعد أن دفعهم إليها لحسن حظهم البحر الهائج. كانوا أناساً مسالمين ويتمتعون بالمعرفة، كان لديهم دين خاص ويعرفون الأرقام ويراقبون النجوم ويقيسون مداراتها، كانوا يرقصون وينشدون ويعيشون في سعادة في الأرض الجديدة.

تنتهي الفترة الزمنية في الرواية عند حقبة تاريخية مهمة في عام 1409، وهي السنة التي شهدت أحداثاً مأساوية وضعت النهاية لحضارة القضاة ولحرية الجزيرة بعد أن استولت على سردينيا مملكة «أراغونا» الإسبانية. في إطار تلك الحدود الزمنية يقدم السرد الروائي سيلاً من القصص الصغيرة التي تتناول الأسطورة المقدسة والخرافة الأخلاقية والنوادر والحكايات الرعوية الريفية والقصص التاريخية وقصص المغامرات والقصص الهزلية. يقوم الكاتب بحنكة بتنويع الإيقاع ويمزج أنماطاً سردية مختلفة، ويبرز تعبيرية اللغة عن طريق مزج قوي لمفردات لغوية من أصول مختلفة، وبعمل تناغم

كورالي لأصوات الحكاية كما يتضح في استخدامه ضمير المتكلم «نحن» بشكل ساحر ومهيب بدءاً من العنوان. تنساب الحكاية بشكل أخاذ عبر سرد عتيق وملحمي مع نجاح في التعبير بواسطة لغة حديثة ممزوجة بكلمات ذات مقطع واحد من اللغة القديمة ومفردات من اللغة السردينية المعاصرة ومفردات أخرى من لغات مختلفة.

ترتبط الأساطير والخرافات بالمكان، والكهوف والصخور والينابيع. الأسطورة الأولى هي حكاية «سول»، أجمل فتاة وُلدت في الجزيرة، والتي صارت القاضية الأفضل خلال التاريخ الطويل للقضاة الراقصين. إنها من أدخل عبادة الموتى بعد أن نحتت في الصخور منازل للأسلاف الموتى لحفظ رماد «مير» الذي كان أول من صنع تماثيل برونزية صغيرة لرجال ذوي قرون وذوي عيون وأذرع متعددة– وكان أول من أنقذ شعبه من اعتداء الرجال ذوي الريش بعد أن قادهم داخل كهف منيع يُدعى في اللغة القديمة «تئيس كالي» ومعناه «حيث يوجد القمر المبارك» والذي صار رمزاً للحرية. يضفي أسلوب القصة الريفية الرعوية لوناً ورشاقة على حكاية «إيلوي» و«أرار»، و «إيليونورا» و «ماتيا» في مقابل حكايات تتسم بالقسوة وبالمجون مثل تلك الخاصة بأعياد «كارالي».

مع تغير المشاهد تظهر وتختفي شخصيات الحكايات العديدة (حراس الزمن، القضاة والقاضيات، الأساقفة والرهبان، المحليون والأجانب). تتسارع ديناميكية الأحداث، فتُولد قرى ومدن، ويتم الاحتفال بطقوس جديدة، وتظهر أعياد والعاب مختلفة، وتتغير العادات والحكومات. تتحرك دفة الحكاية تحت ضغط الغزاة المختلفين والذين يتواصل هبوطهم على شواطئ الجزيرة دون توقف مما يثير مقاومة عنيدة من قِبل الشعب الذي يدافع عن حريته، ومِن ثَم يصبح اللجوء إلى العنف والسلب أمراً محتوماً، ويصير اللقاء بين الرجال وتبادل المعرفة والخبرات والفنون والهبات وامتزاج العادات واللغات والموسيقى والأغنيات والرقصات أمراً محتوماً أيضاً.

تمثل الهيمنة الرومانية على الجزيرة وانتشار كلمة «إيوسوس» فيها نقطة تحول في الرواية. إن النضوج والاستقلال السياسي اللذين وصل إليهما حكم القضاة أدخلا

الجزيرة في التاريخ، ولهذا فإن الهيمنة الأراغونية على الجزيرة تمثل أمراً أليماً وغير مقبول لحراس الزمن الذين قرروا أن يتوقفوا في روايتهم بذكريات الماضي عند هذا التاريخ.

إنها رواية موحية تتحدى وتجذب القارئ الفضولي الذي لديه استعداد لأن يتتبع عبر حكايات لم تحكَ من قبل طريقاً متحركاً مملوءاً بالمفاجآت ومتحرراً من الأنماط الجامدة ومنفتحاً على أفكار تنتمي للغات مختلفة ولثقافات متعددة.

-1-

لم أكن أدرك شيئاً عن الحياة. قصّ «أنطونيو سيتسو» الحكاية وكل ما عرفتُه كان كثيراً وثقيلاً وكان مجرد التفكير فيه يبعث فيّ الخوف من الإنسان والعالم والموت. كنت قد نسيت طيلة أربعة وثلاثين عاماً، أما ألآن فأتذكر كل كلمة.

فوق شريط الأرض الضيق الواقع بين الأنهار تقبع مئات ومئات البيوت من خيزران وقش وطين، وتل من الطمي ومن فروع الأشجار على حافة المياه، ثم ثلاثمئة وثلاث وثلاثون سُلَّمة ترتقي إلى المذبح، حيث كان ينبض قلب الكبش، هناك كنا نقرأ الكلمة ونستجوب السماء وننطق بالأجوبة.

ليس هناك شيء يتساوى دقة تنظيمه وكماله مع شدة غموضه كقبة السماء ونجومها التي كنا نتدارسها كل ليلة ونستغرق كثيراً في حساب المسافات والأفلاك والمدارات.

كنا نُثني الناس عن الحقائق الزائفة. إن الرقم كالذاكرة يُفَسِّر ويضيف لغزاً جديداً.
حينما كان المزارع يسأل: «هل سيكون المحصول وافراً هذه السنة؟»، رغم علمه بعدم انتظام الأمطار والجفاف وتعاقب المواسم وأشياء أخرى لا حصر لها، كنا نجيبه: «فيما وراء الأنهار في أراضٍ ليست ببعيدة يهبط الليل فجأة في منتصف النهار، فربما تكون سحباً تحمل أمطاراً أو أسراباً من الجراد». كان من الصعب أن نخطئ.
حينما كان الراعي يسأل: «كم حملاً سأتمكن من بيعه في عيد القمر في شهر اللوز الحامض»، ولمعرفتنا بأسرار النسل والبرد القارس كنا نجيب قائلين: «إن قلب الأرض ذو لون

أسود، فربما سيكون عدد الحملان كعدد النعاج، وربما أقل أو لا شيء على الإطلاق... كم عدد الخراف لديك؟»، فبسؤالنا عن الأرقام كنا نعلمهم العدّ. وعندما كان التاجر يسأل: «حين حلول فصل اليقظة: هل سيصل البرابرة ليسرقوا أو سيقود الملك المحاربين ليسلب هو ما لدى البرابرة ؟»، كنا نجيب: «من يمكنه قراءة ما يدور في عقل الملك؟ إن المجد هو مصير المحارب، والسعادة هي مصير التاجر، ولكن لا يبلغ كل التجار الشيخوخة...»، كان من الصعب أن نخطئ. حينما كان الابن الغني مالك قطعان الماعز يسأل: «هل سيَقْبَل المُحارب أن يزوجني ابنته مقابل ثلاث عشرة عنزة عشراء وثلاث أفراس إناث، أو سوف يحسب عرضي مهيناً وسيبغي شق قلبي العاشق بحجر حاد مصقول؟». كان من الصعب أن نخطئ، وكنا نقول: «من لا يحاول لا يغامر بشيء، ومن لا يحاول لا ينال شيئاً».

قد طوى النسيان اسم أحد الملوك، ولكن لم تُنس الأسئلة:

«هل سأنتصر أم سأفقد حياتي إن شننت حرباً على برابرة الشمال في فصل اليقظة؟»

أجاب أحد الكهنة: «في فصل الربيع تسطع الشمس أياماً وتمطر السماء أياماً أخرى».

«هل سأنتصر أم سأموت إن شننت حرباً في الصيف؟».

«في كل مرة يقود فيها الملك جنوده إلى الحرب كي يعود محملاً بالغنائم يُعرِّض حياته للخطر، ولكن يُعرِّض حياته لخطر أشد الملك الخائف الذي يرسل محاربيه إلى المعركة شاخصاً ببصره إليهم من أعلى التل».

«ومن يمنعني من أن أشق قلبك حتى أدرك ما إذا كان يستطيع أن يعطيني إجابة مؤكدة؟».

«لا أحد يستطيع منعك».

«فيمَ يفيد رجل لا يحمل سلاحاً ليدافع به عن الحياة؟».

«لا يستطيع أحد كشف أسرار القدر».

«فيمَ تفيد كلماتك؟».

«إن قاتلتَ لتدافع عن الحياة فسوف تصبح ذراعك قوية وستسكن بداخلك روح الذئب، وإن لم تحم ظهرك ظناً منك بالانتصار فربما يتذكر أبناؤك اسمك وربما يثأرون لك».
كان من الصعب أن نخطئ. كلٌ منا كان يتقاضى أو يدفع أجراً وفقاً لجودة الإجابة.

إن هيئة وحركة النجوم هما كلمة الخالق المجهول، وفك شفرة تلك الكلمة هو أقصى ما تصل إليه الحكمة وإن الرقم هو الأداة فقط لهذا. إن الرقم... مقدس.

في كل ليلة كان أحد ما يقرأ كلمة الخالق، وعند الفجر كان يُبلِّغ مقاطع الكلمات المنيرة والمسافات إلى الجمع في المجلس الذي كان يردد معا تلك المقاطع والمسافات، كنا نرقص ونحن نُغني.

كان البرابرة يهبطون من الشمال وبحوزتهم كلمات من اليقين، فـ«رج» كان الإله، وكان علينا إما أن نطيعه أو نموت. كان «رج» رئيسهم وكان عملاقاً ذا بشرة سوداء وشعر أحمر وعينين ناريتين، قاتلاً متعصباً لا يستطيع أن يعد لأكثر من ثلاثة أو أن يَنظُم أكثر من عشر كلمات. عندما وصل فتحنا له أبواب المجلس مبتسمين، فناديناه باسم «رج» «القادر»، رب الآلهة، وسجدنا أمامه وغسلنا أقدامه. أدركنا حينها أن سواد بشرته كان طيناً يغطي الجلد كنقش للحرب، وكذلك أيضاً اللون الأحمر للشعر والوجه. رقصت «نثا» الجميلة رقصات حب قديمة فوق بطن الإله بينما كنا نغني. قدمنا مأدبة وماعزاً وفاكهة ونبيذاً معتقاً ذهبي اللون. كان «رج» يحتسي النبيذ بكميات تتناسب مع ضخامة حجمه ومع عدد أفخاذ الماعز التي كان يلتهمها بشراهة، كان غالباً ما يبتلع دون أن يمضغ وكانت قضماته كافية أن تقف في حَلق ثور وتخنقه. كان محاطاً من أتباعه الذين كانوا يتطلعون إليه بإعجاب شديد، وكانوا لفرط شراهته يؤمنون حقاً بأنه إله. صببنا له في الكأس العاشر ثلاث قطرات من عشب أحمر. أثبت موت «رج» مسموماً بعد مرور اثنتي عشرة ساعة فقط أنه، على الرغم من كونه إلها، كان أقل ديمومة من خالقنا المجهول الأبدي.

فررنا نحو الشاطئ بصحبة مئة جمل أبيض وابتعنا سفينة من رجال البحر، كان الثمن ذهباً وجمالنا المنهكة. ورغم جهلنا به، فقد كان البحر فقط هو القادر على حمايتنا،

فبرابرة الشمال كانوا يخشونه. أَسَرَنا رجال البحر وكبلوا معاصمنا وأقدامنا وقيدونا معاً بقيد واحد بجوف السفينة حتى يبيعونا عبيداً. كان رجال ونساء كثيرون يفدون إلى الميناء فارين من مدن هُوجِمت ونُهِبت، وكانوا يقولون بظهوره وتقدمه نحو بحر «جر». إنه إله مخيف يقود حشوداً مسلحة، ويرفع أبراجاً من رؤوس القتلى، ويعذب من لم يُقتل، ويستقصي أخباراً عن الكهنة الراقصين قارئي السماء قاتلي أبيه. خشي رجال البحر من أن يتركوا الرأس للذُود. رحلنا على الفور وكان البحر هائجاً.

بعد ثلاثة أيام وثلاث ليال من البحر المضطرب، من الخوف وآلام البطن، تمكنت الفتاة «سئو» من أن تخلص معصميها الرقيقين من القيد، وبمهارة استطاعت بيديها من أن تحرر قدميها، ثم عثرت على بلطة ذات رأسين من الحجر المسنون. أعلنت بقعة من الضوء عن اقتراب أحد الأعداء، ثم هبط رجل مترنح. أأتى ليتفقد الحمولة أم ليأخذ جرة زيتون أو إبريق نبيذ، أو لعله كان خائفاً مثلنا من موج البحر العنيف وأراد البحث عن مكان يحتمي به بجوف السفينة، أو لعله كان ينوي الاعتداء على أحد الكهنة ضارباً بعرض الحائط كل القوانين المقدسة ومتحدياً هياج البحر ورائحة القيء التي لا تُحتمل؟ وقبل أن تعتاد عينا العدو على ظلمة المكان هوت البلطة لتشق رأسه إلى نصفين متساويين. كانت السفينة تقفز وتطير لتهوي وتضرب مياه البحر بمقدمتها حيناً وبمؤخرتها حيناً آخر، كانت تلقي بنا إلى الجدران أو تقذف بنا ليرتطم كل منا بالآخر. قطعت «سئو» الحبل لنرى النور. كان رجال البحر قد أرخوا الشراع وكانوا يتشبثون بالصارية. رغم توازننا المختل انقضضنا على الأعداء، ولم يكن معنا من السلاح سوى البلطة التي كانت تحملها «سئو» وأسناننا وأظافرنا. سقط الكثيرون في البحر. حين توقف القتال هدأت العاصفة، فوجدنا حول السفينة جثثاً كاملة وأذرعاً وأرجلاً وأمعاء ورؤوساً كانت تطفو، وظللنا نسمع الصراخ حتى الليل.

خيم السكون وعرفنا أن السفينة صارت لنا، وكان رجال البحر يرقدون فوق السطح

مخضبين بالدماء وبالماء المالح. لم يكن أحد منا قد أبحر أو قاتل أبداً قبل ذلك اليوم. ألقينا الجثث في البحر.

في منتصف سطح السفينة كانت هناك كومة من الصناديق مقيدة بالصارية. قطعت «سئو» الحبل بالبلطة وفتحنا الصناديق التي كانت مملوءة بالحلي الثمينة. لم يكن أحد منا قد رأى أو حتى سمع عن شيء مثيل قط، عقود من حجر أخضر تتدلى منها زهور من الذهب، ووريقات من حجر أسود، وأشواك من حجر أحمر كالدم، وثعابين من فضة ذات عيون من أحجار زرقاء، ورقائق من أحجار خضراء. قالت «سئو» :«كم كان سيطيب لي أن أطلب من صانعي هذه الكنوز حلقتين من الذهب تتدلى منهما إحدى عشرة نجمة صغيرة من الحجر الأسود لأضعهما في ثقبي شحمة الأذنين» عَقَّبَ «مئو» الحكيم على كلامها قائلاً: «إنك بارعة وشجاعة ولكنك خاوية: ففيمَ تفيد حلقتاك؟».

طيلة ثلاثة أيام دفعتنا رياح قوية نحو الشمال، إلى الشرق أحياناً وإلى الغرب أحياناً أخرى، ولم يكن حولنا سوى البحر. حاولنا تعلم السيطرة على السفينة باستخدام الشراع والقضيب الخشبي اللذين كان رجال البحر يستخدمونهما. كان الشراع يتلقى ريحاً ضعيفة كلما حركناه، أما القضيب الخشبي فكان يبدو أنه يُوجِّه السفينة إلى الاتجاه المعاكس لِما كنا نرغبه. قال الحكيم «مئو» «وحتى إذا تعلمنا توجيه السفينة، فأي اتجاه نسلك؟ إننا لا نعرف أين نكون وإلى أين نمضي؟». تخلينا عن محاولة السيطرة على السفينة وغدونا طريدة للرياح وللتيار.

هدأت الرياح فتوقفت السفينة، وكان البحر ساكناً. لم نكن ندرك ما نفعل لذا نظرنا إلى الحكيم «مئو». قال: «فلنصل مرددين مقاطع كلمات الخالق ومسافاتها: (إر) ثمانية أقدام سماوية من (أوه)، (أُوه) ستة عشر قدما سماوية من (إس)، (إس) تسعة أقدام سماوية من (أوم)، (أوم) تسعة أقدام سماوية من (إيس)، ومن (إل)، ومن (أُن)، ومن (سي)،

ومن (أَف)، ومن (إن)، ومن (مي)، ومن (أُوف)، ومن (يا)[1]. كنا نرقص ونحن نغني. داهمت عاصفة السماء، وفجأة أخذت تمطر قطرات ثقيلة وباردة كانت تسقط وكأنها قطع من حجر. راحت السفينة تطير وتقفز، فتشبثنا بالصارية، أصابتنا الرجفة والقيء. رأينا صناديق الحلي تنزلق على السطح إلى الأمام وإلى الخلف فترتطم بجدران السفينة. كان البحر يقفز وكأنه بساط من ظهور خيل أصابها الجنون.

طارت السفينة ثم هوت، وثب البحر على سطحها وأمسك بـ(سئو) وأخذها بعيداً. اختفت (سئو) صامتة بين الأمواج، فراحت امرأة تغني: (سئو) الشابة الجميلة... الشُجاعة... الغضة...الماكرة».

قال «مئو»: «لولا (سئو) لكنا إلى الآن مقيدين هناك في الأسفل... في مكانٍ آمنٍ». نظرنا إليه، وكان يبدو وكأنه على وشك الموت متشبثاً بالصارية، كان أزرق اللون ومنهك القوى. طفق يردد من جديد: «إر» ثمانية أقدام سماوية من «أُوه»، استمع البحر لصلواته وهدأ اضطرابه.

كانت التيارات لطيفة. أثناء ترديدنا لمقاطع الكلمات، ذكرنا المقطع «في»، نجمة الصباح والخصوبة وأول نجمة تبزغ في الليل، فأبصرنا الساحل الصخري الأحمر يدنو. لم يكن أحد منا قد أرسى سفينة من قبل، فقال «مئو» باللغة القديمة: «مئج أُو مئد أس»[2]، وهكذا أطلقنا على هذا المكان هذا الاسم الذي ظل لآلاف السنين وإلى يومنا هذا. قذف البحر بالسفينة نحو الصخور لإحدى وعشرين مرة حتى تهشمت لمئات القطع. اختفى

(1) وفقاً للغة القديمة للسردينيين، فإن «إر» هي النجمة التي ترمز للنصر، «أُوه» هي نجمة الأمومة، «إس» الاسم المقدس للقمر، «أوم» النجمة التي ترمز لكل ما هو دائري ولكل ما هو خير، «إيس» أحد الأسماء المقدسة للقمر، «إل» نجمة الحرب والقوة والعاصفة، «أُن» نجمة العدل التي ترمز للقضاء، «سي» السماء ذات النجوم، «أَف» نجمة المسافرين، «إن» نجمة الهزيمة والفقر والمجاعة، «مي» نجمة الجنوب، «أُوف» نجمة الجنوب والأمنيات الطيبة للمسافرين، «يا» نجمة الموتى.

(2) «مئج أُو مئد أس» تعني في اللغة القديمة «فلنركض إلى الساحل عند اليابسة» وتعني أيضاً «الوعد».

«مئو» بين الأمواج، أتت المياه على عظامه، وبقي منا على قيد الحياة واحد وعشرون.

أكنا طوال القامة فأصبحنا قصاراً لأن كل ما ينبت في جزر هذا البحر يصير أصغر حجماً وأكثر دكنة وأطيب مذاقاً؟ أم كنا في الأصل صغاراً؟ قصار القامة وداكني اللون ومعتادين على التفكير والتأمل والعد ولكن دون أن نتفق أبداً فيما بيننا.

هكذا ظللنا إلى اليوم، باستثناء بعض البلهاء الذين لا يغيبون أبداً ولن يكون باستطاعة أي قانون الحد من وجودهم.

«إن البحر غادر» ردد «لئا» هذا بعد أن اكتشف أنه كان لايزال حياً مستلقياً فوق الرمال البيضاء لشاطئ صغير.

استكشفنا جزءاً من الجزيرة ثم اخترنا مكاناً ذا مزايا عديدة لنعيش فيه. كان يقع على الساحل الغربي ولكنه يميل نحو الشرق، وكان متاخماً للجبل، حيث كان يمكننا الاحتماء به والدفاع عن أنفسنا من الأعداء.

وجدنا بالجبال كهوفاً بداخلها الحجر الأسود، وهكذا أخذنا في صقل أسلحة لنا وللمبحرين القلائل الذين كانوا يقتربون منا ويُقَدِّمون لنا في المقابل أنسجة حمراء ناعمة.

-2-

أصغيت إلى تلك القصة في الثاني عشر من شهر أغسطس لسنة 1960 أثناء وجودي في مطبخ منزل عائلة «سيتسو» في قرية «مورغونجوري»، بين الساعة الثالثة بعد الظهر والدقة الثالثة عشرة بعد منتصف الليل، حينها نطق «أنطونيو» الكلمة الأخيرة.

دهمنا الصمت وكأننا قد صُعقنا. كان المطبخ معتماً بينما كانت ريح الشمال تشدو وتتلوى بين الأزقة.

سألتْ زوجة «أنطونيو»: «لماذا وافقتَ على الاستماع إذن؟».

أجبت: «أشعر بميل إلى الماضي دون أن أدرك السبب». سألَتْ مرة أخرى «هل تؤمن بوجود إله؟».

أجبتها قاطعاً: «لا... لا».

سألَتْ: «من خلق الكون إذن؟»

أجبتها: «إنه أبدي غير مخلوق».

أخذت المرأة عود حطب متفحماً من المدفأة المنطفئة، فأشعلته وتركته يحترق، ثم نفخت فيه ليخبو اللهب. قامت برسم إشارة الصليب في الهواء بواسطة رأس عود الحطب المتقد قائلة: «إنك لا تدرك ما تقول، سأُباركك، فلن يقتلك حديد أو رصاص أو سُم».

كان عمري حينذاك ثمانية أعوام ولم أكن أعي عن الحياة شيئاً. كنت قد استمعت إلى القصة فلم أستطع استيعابها، وإلى الآن لا أدرك مغزاها حين أرويها. لم أكن أعرف

مغزى الكلمات «أبدي» و«غير مخلوق» التي أسترقها سمعي أثناء حديث عائلي، (ربما كنت أخمن معناها ولكنها كانت غامضة لي). كنت أفخر بأنني ملحد، وكان ذلك في الجزيرة مرادفاً لـ«خارج عن القانون». في سن الثماني سنوات كنت قد أعتدت على أن يُنظر إلي بشك وبريبة وبخوف. بعد مرور زمنٍ طويلٍ، وبعد أن اكتشفت أني أنحدر من أصول يهودية إسبانية، بالإضافة إلى وجود عرق سرديني وجُنوي، وبعض من عرق عربي وكتالوني في دمائي، تخيلت أن دم الأسلاف القدماء التائهين المُضطهَدين يكمن بداخلي جاعلاً من اختلاف الآخرين عني يبدو لي شيئاً طبيعياً، لذا فلم تكن تخيفني الوحدة التي كانت تحيطني والتي كان مصدرها ذلك الاختلاف، وحدة كان نادراً ما يخف من حدتها وجود أصدقاء منبوذين هم أيضاً من الجماعة لاختلافهم: فهم إما بلهاء، أو أبناء نساء غير متزوجات أو عاهرات، أو ربما غرباء أو ثوريون.

-3-

في الساعة الرابعة بعد الظهر كان المطبخ مضاء، وكانت الشمس تدلف من النوافذ وتبرق فوق الأواني النحاسية المعلقة فوق الجدار، أضاف «أنطونيو» وهو يرتشف بعض النبيذ وقد سَرَّتَهُ رغبتي الصامتة:

بقي على قيد الحياة واحد وعشرون، وكان علينا تعلُّم زراعة الثمار والأعشاب، وصيد النعاج والعنزات وحلبها. شيدنا بيوتنا من البوص الأسود الطويل المتين الذي وجدناه في المستنقعات جنوب المكان الذي رسونا فيه. كنا منهكين بالليل ولم يكن لدينا وقت للنجوم، ولكننا لم ننس الأسماء ولم ننس الأرقام، وربما كنا نخطئ المسافات. لقد توقفت المعرفة، وتوقفنا عن أن نكون كهنة.

تعاقب آباء وأبناء وبعد القرية الأولى ظهرت للوجود أخرى ثانية حول مصب أحد الأنهار إلى الشمال من مكان وصولنا، ثم قرية ثالثة في المستنقعات في الجنوب. صنعنا من البوص الأسود قوارب رشيقة، وبُنيت القرية الرابعة ثم الخامسة حتى أضحينا إحدى وعشرين قرية ولكل عشيرة منها كانت العشرون الأخرى غريبة عنها أو حتى عدوة لها.

من قرية «مو» الواقعة في المستنقعات شُوهدت سفينة تقترب، فحملوا إلى الشاطئ بلورات من الملح، ورؤوساً مدببة من الحجر الأسود المصقول، وبيض سمك مملح وجافاً، وعنزات حلوباً، وحملانا قافزة، الحاجيات التي لطالما كان يشتريها المبحرون القلائل الذين كانوا يعطون في المقابل أحجاراً ذات ألوان مختلفة، وأنسجة، وجِراراً، وحُلياً. لكنهم لم

يكونوا مُبحري كل مرة، كانوا أُناساً طيوراً وقد هبط العشرات منهم على الشاطئ. كانت أجسادهم مغطاة بالريش، وكانت لهم أجنحة بدلاً من الأذرع، وكانوا مسلحين بالفئوس وبالشباك، وكانوا يبتسمون. قامت «سول»، طفلة في السادسة من عمرها، بإقناع إخوانها «أيْر» ذي السبع سنوات، و«ستي»، تسع، و«لوس»، إحدى عشرة سنة، بالفرار والاختباء في الغابة فوق الجبل. من أعلى الجبل وهم يختبئون وراء أوراق شجر البلوط استطاعوا مشاهدة ما حدث. خرج من السفينة رجل طائر ذو ريش أحمر، طويل وضخم كجبل. كان الرجال الطيور يصرخون، ويرددون معاً بصوت زاعق وكأنهم منتشون: «سوس». لعل هذا كان اسم الرجل الطائر ذي اللون الأحمر. مشى «سوس» حتى وسط القرية، ثم توقف وزعق بصوت هادر كالرعد: «إيك». دوى صدى الصرخة بين الجبال، وراح الرجال ذوو الريش يقفزون للأعلى ويحركون دائرياً فؤوسهم بأجنحتهم اليمنى والشِباك بالأجنحة اليسرى، وكلما هبطوا إلى الأرض كانوا يصيحون قائلين: «إيك». وثبوا على الشباب وأمسكوهم بالشباك مستغلين الوجوم الذي أصاب سكان «مو». قبضوا على العجائز وقاموا بسحبهم على صخور الساحل وأخذوا بضربهم وكأنهم عيدان من الحطب محطمين رؤوسهم وأذرعهم وأرجلهم. جمعوا الأطفال القادرين وغير القادرين على المشي، ونزعوا أرجلهم منهم حتى لا يتمكنوا من الفرار، وراحوا يسحقونهم بالأقدام وكأنهم يعصرون عنباً وهم يهللون ويضحكون. كان «سوس» يبدو سعيداً، وكان يضرب بجناحيه وكأنه طفل تمتد يداه إلى صدر أمه، بينما كان بقدميه السوداويين يسحق رؤوساً وأرجلاً وقلوب أطفال رضع. بعد أن حكّوا بعض أحجار الكبريت أشعلوا ناراً من الحطب في وسط القرية، ثم وضعوا فيها بعضاً من أفرع الأشجار الناضرة، فارتفع دخان أسود كثيف إلى السماء، فظهرت في عرض البحر المئات والمئات من السفن. قررت الطفلة «سول» أن ترحل لتحذر القرى القريبة. كان «لوس» يعرف الطريق إلى «نا» فوق الهضبة، وصلوا إليها بعد أربع ساعات، وقصّوا ما حدث. في غضون ليلتين وثلاثة أيام كانت كل القرى قد علمت بالأمر. قررت عشر عشائر القتال تحت قيادة «أُور إيل»، وقررت عشر عشائر أخرى الفرار إلى الغابات غير المستكشفة في الجبال تحت قيادة «مير». قُتِلَ «أُور إيل»، أما

أتباعه فقد قُتِلوا أو أُسروا عبيداً. كان «الإيك» كثيرين بلا حصر كذباب فوق دماء عنزة مذبوحة، وكانت الدماء هي أرض راقصي النجوم.

قاد «مير» العشائر العشر طيلة عشرة أيام حتى وصلوا إلى قلب الجزيرة، وجد جبلاً مجوفاً، وكان علينا أن نتسلل داخل فتحة يبلغ اتساعها صدر رجل وطولها عشرين ذراعاً لندلف إلى داخل الكهف. قادنا منحدر إلى باطن الأرض، حيث لا نبات ولا ضوء، أسفل السراديب وأشجار العنب. وصل «الإيك» إلى القرى المهجورة وأدركوا أن هناك رجالاً مازالوا أحراراً يتجولون في الجبال، فعثروا على أثرهم وأخذوا في مطاردة «مير» .

وجدنا في نهاية الدرب تحت الأرض قطعة أرض مستديرة قطرها عشرة أذرع. في منتصف الليلة رأينا القمر ينفذ من ثغرة في الصخر تعلو رؤوسنا، ولما أضاء القمر المكان قال «مير» باللغة القديمة «ت–إيس كالئي»[1]، وصارت هذه الجملة اسماً للمكان. قال «مير» «تر إيم با نئوس»[2]، فعزفنا الموسيقى ورقصنا لنستحق بركة «إيس» ولننحي خوفنا جانباً. قام «الإيك» باجتياز الغابة المظلمة وسمعوا قرع الطبول يأتي من جوف الأرض تحت أقدامهم، وسمعوا أيضاً الغناء مع الطبول فظنوا أن هناك جِناً وفروا.

أعلن «مير» جبل الخلاص مقدساً، وقال: «هنا يجب أن يجتمع آباء الناس عند هجوم العدو حتى يقرروا ماذا يفعلون، تحت حماية (إيس). إن أختلف الآباء فليفصل قاضٍ من بينهم بين الحق والباطل، تحت حماية (إيس)، وليصدر حكماً فورياً غير قابل للنقاش».

بعد أن عادوا إلى القرية صنع «مير» أقداماً من الخشب كانت تطيل من قامتنا وتجعلنا كشجر البلوط، فتعلمنا المشي والقفز والرقص بها، وكنا نقع ونضحك وكأننا نلعب كالأطفال. صنع «مير» أذرعاً من أفرع الشجر وربطها بأظهرنا، حيث كنا نلوح بها بينما كنا نحرك دائرياً الكتفين، وصنع قناعاً من الطين لعفريت ينتمي إلى مملكة الموتى

---

(1) «ت– إيس كالئي» تعني في لغة القدماء «حيث يوجد القمر المبارك».

(2) «تر إيم با نئوس» تعني «أيها الفرسان المجهولون! لندق معاً الطبول».

والكوابيس، وخوذة ذات قرون طويلة من الصلصال، ثم عرضهما علينا وطلب منا أن نصنع خوذات وأقنعة كثيرة مثيلة. لمّا لاحت في عرض البحر سفينة، تسلقنا فوق صخور الساحل. رحنا نرقص على أقدامنا الخشبية بينما نلوح بالأذرع الخشبية من وراء أقنعتنا، وكانت فوق رؤوسنا خوذات غرسنا في قرونها حبات البرتقال، وقرعنا طبول «التريمبانوس» المصنوعة من جلد الكلب.

لبثت السفينة في عرض البحر وتطلع إلينا الغرباء دون أن يهبط أحد على الشاطئ. مع الغروب رفعت السفينة شراعها وابتعدت تدفعها ريح الشمال.

كان «مير» أول من صنع تماثيل برونزية صغيرة لرجال بقرون ذوي عيون متعددة وأذرع كثيرة، وكان يضعها في أماكن رسو السفن وفوق الصخور في الدروب. فلو تمكن أحد من النزول إلى الشاطئ مفلتاً من الحراسة لكان سيدرك عند عثوره عليها أن قدره قد حمله إلى أرض الرجال الراقصين فوق الصخور ذوي القرون.

قال «مير»: « إن النجوم مقاطع كلمات الخالق، وإن (إيس) هي كلمة كاملة. إن الماء يخصب أرض الراقصين، فسوف نحفر آباراً لنبحث عن الماء في جبال (إيس)، وسوف نُصلي من أجلها في العيد في مستهل فصل (اليقظة)، في شهر الرياح التي تطوي شجر البلوط».

تقدم العمر بـ «مير»، بحيث كان لا يقدر على المشي، وصارت «سول»، ابنة «مو»، الطفلة التي كانت قد نجت من المذبحة، امرأةً شابة هي أجمل من وُلِدَ في الجزيرة، وصارت قاضية لها. كان لها جسد ضئيل ولكنه متناسق تماماً، وكانت القاضي الأفضل طوال التاريخ المديد للقضاة الراقصين والذي بدأ بـ«مير» وتواصل لستمئة قرن.

مات «مير»، فحرقت «سول» الجثمان وجمعت الرماد في جرة من طين. حفرت

تجويفاً في الجبل، ووضعت الجرة بداخله ثم خرجت وقالت «يانا»[1]. في الأيام التالية كانت «سول» تختلي بنفسها داخل كهف «يانا» لتتكلم مع رماد «مير» لأحيان تطول لأيام ولليالٍ ولم تكن تأكل، وكانوا يحملون إليها إبريق ماء كل مساء.

لاحت ثلاث سفن في البحر، فقفزنا بأرجلنا الخشبية وحركنا الأذرع الخشبية، رقصنا وصحنا من وراء أقنعتنا، وقرعنا طبول «التريمبانوس»، ولكن لم تبتعد السفن إلى أن غابت الشمس وهبط الظلام.

توقفنا عن الرقص وظللنا ندق على الطبول أناشيد الموت. بزغ الفجر، وكانت السفن لاتزال في مكانها من اليوم السابق. تَعرَّف «آوم» من عشيرة «نا» إلى الريش الأحمر لـ«لإيك» فواصلنا العزف وطفقنا نرقص من جديد. عندما ارتفعت الشمس ظهرت في الأفق اثنتا عشرة سفينة أخرى أخذت مكانها بجانب الثلاث السابقة، وعند الغروب تقدمت السفن الخمس عشرة نحونا، وتوقفت على مسافة ذراع من الساحل. كان «الإيك» يقبضون في أيديهم على أسلحة قطع لم تُرَ من قبل، ويرتدون في أذرعهم أقواساً. ظللنا نعزف ونرقص ونحن منهكون. قالت «سول» «تثار روس»[2]، وصارت هذه الجملة اسماً للمكان. توقفنا عن الرقص، وصاحت «سول» «يا نثاس»[3]، فهرعنا بينما كانت السفينة الأولى تدنو من الشاطئ. كان جوف السفينة تملؤه الخيل.

تكلمت «سول» مع رماد «مير» لوهلة، ثم خرجت من «يانا»، وأمرت الصغار والعجائز بالفرار إلى الجبل المقدس.

انتظر الشباب «الإيك» ثم أنشدت «سول»: «إن النجوم رائعة، لقد وُلِدَ الرجال ليقاتلوا وليموتوا». كانوا أناساً صغار الحجم، ولكن كانت لهم بنية متناسقة وقوية،

(1) «يانا» هي اسم «نجمة الموت» في اللغة السردينية القديمة.

(2) «تثار روس» تعني «المكان الذي يوجد بداخله ضجيج الطبول».

(3) «يا نثاس» تعني «فلنهرع إلى بيت الأسلاف الموتى».

وكانوا مُدرَبين على الفر والقتال. تجردوا من ملابسهم حتى تلتصق جلود الغنم بأجنحة «الايك»، ودهنوا كل شبر من أجسادهم بالزيت كي يصيروا أكثر مقدرة على الانزلاق والإفلات، وجَمَعوا شعورهم في ضفائر خلف أعناقهم، وحَكّوا أيديهم بالرمال ليقبضوا على الفئوس بقوة، وكانوا يبدون رائعين تحت ضوء «إيس». كان كل واحد منهم يتطلع بسعادة إلى رفيقه في المغامرة ويبتسم. أنشدوا جميعاً.

رأوا «الايك» يَركضون.

قبضوا على فئوسهم.

قتلوا رجالاً وخيولاً، وقَتَلَهم رجال وخيول. قاتلنا إلى مغيب الشمس، وبمجرد حلول الظلام انسحب «الايك». غنّى المدافعون وعزفوا الليل بطوله. حام قرع طبول «التريمبانوس» في السكون وكانت تصاحبه صرخات البوم المذعورة، فاعتلى الجبال، وتسلل إلى الغابة، وتراقص بين الأشجار، فأيقظ السناجب، وبلغ مسامع العجائز والأطفال، فثبّت من عزيمتنا، وكان يقول لنا: «اركضوا! لكن دون خوف، فالليل لكم». عند الفجر هجم «الايك» ولكنهم كانوا منهكين، فلم تسمح الطبول ولا الغناء لهم بالنوم، وكانت قد عذبتهم وأقلقت مضاجعهم. تواصلت المعركة حتى الغروب، ولقي الكثيرون من الطرفين حتفهم. انسحب «الايك»، فأنشد المدافعون وعزفوا الليل كله، وبلغ دق «التريمبانوس» الحزين العجائز والصغار في أطراف الجبل. أدركنا أنه كان يمكننا التوقف وإعداد المؤن من الخبز الجاف في قرية «سي»، وجمع العنب الناضج من الكرم، وتخزين المياه، والبحث عن حمير لتحمل الجِرار إلى أسفل الجبل.

عند الفجر هجم «الايك» وكانوا خائري القوى، ولكنهم كانوا كثيرين كالذباب الحائم فوق جثث خيولهم. كانت «سول» هي آخر من مات عند غروب اليوم الثالث بعد أن أصابتها ثلاثون سهماً جامحاً.

نجح العجائز والأطفال في بلوغ الجبل والاختباء في جوف الأرض، ثم سمعنا عدو خيل «الايك» فوق رؤوسنا. أكلنا العنب والخبز الجاف، ولم تكن تعوزنا المياه. منذ اليوم

الثالث عشر لم نعد نسمع الضجيج، وفي اليوم السادس عشر نفد العنب فقررنا الخروج.

قمنا بحفر مئات من الكهوف «يانا» تحت كهف «مير» لموارة محاربي «سول».

رأينا أجساد «الإيك» وكان القتلى بالمئات، فظننا أنهم لن يعودوا ثانية. لم يكونوا طيراً، كان الريش لطائر لم نكن نعرفه، وكان منظوماً داخل حلقات برونزية كبيرة بحجم خنصر رجل بالغ ومنغرسة في جلد «الإيك»، بحيث تتدلى من كل الجسد وحتى من الرأس ماعدا الوجه، وفي كل حلقة منها كانت موضوعة إحدى عشرة ريشة. عثرنا على أربعة منهم على قيد الحياة، ثلاث نساء ورجل. داويناهم، فقد كنا نعرف أعشاباً قادرة على مداواة جروحهم. لم يكونوا يعرفون نظم أكثر من أربع كلمات متتالية، ولا رسم أشكال على الرمال، ولا العد لأكثر من عشرة، ولا زراعة الأرض، ولا حلب الأغنام، ولا تشييد الأكواخ، ولا قطع الأحجار. كانوا يعرفون القتال والإبحار واستعمال النار وصنع الحلقات، التي كانوا يغرسونها في الجلد، و صيد الخيل وترويضها فحسب. كان في حوزة «رسزر»، إحدى النساء الأجنبيات، شيء ما: قشرة جافة لفاكهة مجهولة بها ثقب وملتصقة بعصا بواسطة عشب لاصق. كان ثمة عود رقيق من البوص يمتد من القشرة إلى العصا وينتهي في طرفيه بحلقتين خشبيتين تدوران ويمكن بواسطتهما شد العود وإرخائه. عند دقّ أو ملامسة العود المشدود كانت «رسزر» تُصدر منه أصواتاً، ولليالٍ كاملة ظللنا نصغي إليها، فلم نكن قد سمعنا شيئاً شبيهاً من قبل. كان صوتها كسريان الريح بين الأشجار، كصوت الصقور، كموج البحر وهو يتدفق إلى الشاطئ فوق الحصى، أو كفحيح الحيات بين الأعشاب. كانت «رسزر» تشدو بالكلمات القليلة المعروفة في لغتها وكم كان مدهشاً أن تمتلك تلك الأجنبية الفظة كل تلك العذوبة. كان لها صوت نقي شجي في جسد مغطى بالحلقات البرونزية وبريش الطير، وكانت لها عينان بلون السماء غير قادرتين على عد النجوم، وشعر طويل بلون القمح.

طفقنا نزرع من جديد، ووجدنا بضع نعاج وعنزات كانت قد أفلتت من الغزاة. تعاقب آباء وأبناء وبعد القرية الأولى ظهرت إلى الوجود أخرى ثانية، ثم هبطنا من جديد إلى الساحل عند «مو».

قال «أُومور»: «أرى علامات السلام، فحينما لا يحمل إلينا البحر أعداء تحمل كل قرية السلاح أمام الأخرى لقتل أفضل المحاربين بلا أي مبرر، ولكن البحر قادر على أن يجلب لنا أعداء غداً، فمن الضروري تجهيز دفاعاتنا».

تعلم «أومور» من عشيرة «مو» إشعال النيران على طريقة «الإيك»، وشيد أول «نئور أغ»[1] وفي الليل كانت النيران المتقدة تنطلق من فوهته لتُرَى في «نا». شيد «أوزير» من عشيرة «نا» نوراغ ثانياً. أثناء الليل رأى رجال عشيرة «سي» النيران وبنوا هم أيضاً «نوراغ» ثالثاً. كانت التيجان الحجرية للنوراغ تجعل النيران تصمد في وجه الريح ولم تكن تدعها تمتد لتحرق الأشجار، وكان الشكل المخروطي للتاج يزداد ضيقاً كلما زاد ارتفاعه دافعاً النيران في شعلة واحدة وفي حزمة ضوء واحد. عند الخطر كان «أُومور» يضرم النيران، وكان اللهب يَطُلُّ من فوهة المخروط الحجري وكأنه سهم من نور أحمر برتقالي لمن يراه من الجبال القريبة، أما من بعيد فكان يبدو أبيض أزرق ينطلق في السماء لإنذار أهل الجزيرة حين وصول الأعداء.

لمئات ومئات السنين لم يصل أحد إلينا للقتال، وكان رجال بحر قلائل هم من القوا بمرساتهم لدينا للبيع والشراء.

تعاقب آباء وأبناء، وتناسلنا حتى أضحينا إحدى وعشرين عشيرة كل منها تناصب الأخرى العداء لأسباب غير مفهومة: كان هناك من يزعم أن سبب العداء هو حساب

(1) «النوراغ» كلمة معناها في اللغة القديمة «الرجل الذي يبغي أن يرى الساحل» وهي مبان كان يبنيها سكان سردينيا القدماء منذ 3500 سنة.

المسافة بين «أوه» و «سي» (خمسة عشرة قدماً سماوية تبعاً لحسابات أهل «مو» وثلاث عشرة لأهل «نا»)، ولكن الحقيقة أن كلاً من عشيرتي «نا» و «مو» كانتا تتقاتلان للحصول على الثمار والعنب في قرية «أوكوي» حيث كانتا تسقيان الكرم وشجر الجوز بالدماء. انتصرت عشيرة «مو» ولم يبق على قيد الحياة سوى امرأتين من «نا»، فمنذ أيام «رسزر» كانت عشيرة «مو» قد اختلطت مع «الإيك» وصاروا من أب لابن أفضل الفرسان وأكثر المحاربين شراسة.

قامت «ليا» من عشيرة «سي» بتغطية «النوراغ» بالخشب وبالفِلين وبعيدان الحطب، وظلت وحيدة في الظلمة حتى وضعت «أوزير» الذي وُلِدَ ومكث في «النوراغ» مع أمه ثلاثين يوماً وليلة. كانت الليلة الثلاثون بلا قمر فخرجت «ليا» و«أوزير». كبُر «أوزير» وكان يرى بعينيه كنسر وكان يخاطب الخيل. لثلاثون مرة تحداه محاربون لم يُهزموا قط، ولثلاثون مرة انتصر عليهم وقتلهم، ولم تكن الجزيرة قد عرفت محارباً مثله من قبل. قررت نساء كثيرات من «سي» ومن قرى عديدة أخرى ولادة أبناء محاربين. كانت كل أم تتشبه ولو لمرة واحدة على الأقل بـ«ليا» من عشيرة «سي»، وكانت تلد في «النوراغ»، وتمكث مع الوليد بداخله ثلاثين يوماً وليلة. كان الناس يُقولون: «لابد من القيام بهذا ولو لمرة واحدة على الأقل في العمر». خرجت إلى الوجود المئات والمئات من الأبنية الحجرية المخروطية حول «نوراغ» «سي» بأحجام أكبر وأصغر من البناء الأول. تركت بعض النساء القرى وتوجهن للعيش في «النوراغ»، حيث كن يساعدن الأمهات أثناء الولادة، ويحملن إليهن الطعام والماء طيلة ثلاثين يوماً من الظلمة، فأُطلق عليهن اسم نساء «إيس»، وكن يعشن على هبات الناس، وفي الفصل الحار كن يرقصن طلباً للمطر.

ازددنا عدداً وعُدّة وكانت كل عشيرة، لإظهار مكانتها، تقتل عشائر القرى المجاورة ولو مرة واحدة على الأقل كل سنة بعد العيد في شهر الريح التي تطوي شجر البلوط.

قال أُومور» : «لعله من الأفضل أن يكون لدينا عدد أقل من المحاربين وأوفر من الرعاة».

-4-

لا أستطيع تعريف كلمة «سعادة»، بل إنني في الحقيقة لا أدرك ما السعادة. أحسب أنني قد جَرَّبتُ لحظات من الفرح الشديد إلى درجة جعلتني أضرب بيدي على صدري تحت الشمس أو المطر أو في مكان مغلق، أو أصرخ (في أحيان كثيرة أرغب في فعل هذا ولكني لا أستطيع فلعلهم يظنون أن عقلي مضطرب) أو أخالني أسير فوق السحاب، أو أشعر بروحي وقد صارت خفيفة وتطير عالية لتصل إلى الخالق (نادراً ما حدث هذا). فهل هذه هي السعادة إذن؟ أهي وجيزة هكذا؟ وقليلة هكذا؟

لو كانت هناك كلمة مناسبة لوصف مشاعر أهل سردينيا خلال آلاف السنين من العزلة بين «النوراغ» والحلقات البرونزية لكانت ربما كلمة «سعادة» هي الكلمة المناسبة.

قال «أنطونيو سيتسو»: «كنا نخطو على الأرض بخفة كالماء، ماء ينساب ويقفز إلى الأسفل من غور النبع، يتسرب ويتخلل العشب والسرخس حتى يصل إلى جذور شجر الفلين واللوز، وينحدر منزلقا فوق الصخور عبر الجبال والتلال إلى السهل، ومن الجداول إلى النهر، ثم يبطئ سالكاً طريقه نحو المستنقعات والبحر، فتدعوه الشمس ليغدو بخاراً وسحباً تهيمن عليها الرياح ثم مطراً مباركاً».

باستثناء جنون قتل الآخرين دون أسباب غير ذات أهمية، فقد كنا سعداء. كانت السهول والمستنقعات خصبة والجبال غنية بالمراعي وبالينابيع، وحتى في سنوات القحط فلم يكن يعوزنا الطعام، وكنا نصنع نبيذاً أحمر بلون الدماء حلو المذاق يجلب الأحلام

السعيدة. في اليوم السابع من شهر الرياح التي تطوي شجر البلوط كنا نتلاقى مع كل العشائر حول النبع المقدس، ولمدة سبعة أيام وليال كنا نأكل ونشرب وننشد ونرقص على شرف «إيس». كان الغناء والعزف والرقص والزراعة والحصاد والحلب وقطع الحطب والصهر والقتل والموت والغناء والعزف والرقص كل حياتنا. كنا سعداء، باستثناء جنون قتل الآخرين لأسباب غير ذات أهمية.

كان أطفال القرية يكبرون معاً حتى أداء طقس بلوغ الرشد «طقس مايوريس». كانت عجوزان أو ثلاث يقدنهم إلى الجبال وفي الحقول وفي حظائر الأغنام ليروا الحياة أثناء حدوثها، وليروا تعاقب الدورات والتغيرات والموت أيضاً. كانت العجائز يستطعن التعرف إلى الأعداء اللدودين منذ نعومة أظافرهم، والذين حينما كانوا سيشبون عن الطوق كان سيحاول كل منهم قتل الآخر.

خلال سنوات ترعرعهم كان «أُمور» و«إيلوي» يتباغضان ولا يطيق كل منهما الآخر، وكان الاستيلاء على ثمرة مشمش أو الطلوع أولاً فوق شجرة بلوط سبباً كافياً لإثارة هجوم ودفاع بين جسدين يتصارعان ويَعُضُّ كل منهما الآخر في محاولة لاقتلاع عينيه. كانا هكذا منذ الصغر. في إحدى المرات كان «أُومور» على وشك قتل «إليوي» لأنه كان قد مر أولاً بين شجرتين (كان «أُومور» يقول إنه قام بذلك مستخدماً الخداع) أثناء منافسة في العدو. لم يكن أحد قد شاهد ما حدث على مقربة من النهر حيث تسابقا في العدو من الوادي إلى الجبل، وحيث ركضا مئات ومئات الخطوات عبر نباتات الآس والنعناع البري وكل أنواع نبات الحسكة وأعشاب شوكية أخرى مثيرة للحكة. عند نقطة الوصول أنقض «أُومور» على الفائز، فتدحرج الاثنان معاً وهما مشتبكان يعض كل منهما الآخر. أخذ «أومور» حجراً في قبضة يده وضرب به رأس «إلوي» ثلاث مرات، فخضبت الدماء الحجر، فظن «أومور» أنه قد قتله. قامت العجائز بمداواة «إيلوي»، وبعد عشرة أيام من الاحتضار نجا من الموت، ثم كبُر لتُولد المنافسة من جديد. كان امتلاك حجر مصقول أو

فرس سبباً كافياً لإثارة النزاع. قالت العجائز: «سيقتل يوماً «أُومور» «إليوي» أو يقتل «إليوي» «أُومور».

أكان هذا مقدراً؟

كان «أمار» من «سي» هو من أدخل طقس بلوغ الرشد، وقيل إنه ابتدعه لأن امرأة كان مغرماً بها قد رفضته. كان أبو القرية يختار الأرض المناسبة ثم يأمر بعمل التجهيزات في شهر الشمس التي تجفف العنب وتُعَتِّق النبيذ. كان من الضروري أن تكون ساحة الأرض مستوية وأن تكون مساحتها مساوية لمساحة القرية، وكان اتساع ساحة الأرض التي تقام عليها الطقوس باعثاً على الفخر والاعتزاز لأهل القرية، فقد كانت الطقوس عيداً.

قبل هذا باثني عشر يوماً، كانت العجائز ينتقين اثنتي عشرة أنثى واثني عشر ذكراً صالحين لأن يصبحوا راشدين «مايوريس»، وبعد أن يقسمنهم إلى مجموعات ذات ستة أفراد كن يحبسنهم داخل كهوف «يانا». لم يكن باستطاعة المختارين أن يقولوا أو ينشدوا شيئاً سوى أسماء النجوم طبقاً للقائمة القديمة، وكان لديهم جميعاً مخزون الطعام والماء نفسه. كانت المياه تأتي من العين المقدسة المحفورة في قلب الهضبة التي كان «مير» قد عثر عليها وشيد الدرج الطويل الذي يصل إليها في جوف الأرض، كانت أكثر المياه عذوبة. وكانت كل النساء قد اشتركن في صنع الخبز، الراشدات منهن والقاصرات، ما عدا الاثنتي عشرة المختارات اللواتي ينشدن أسماء النجوم في الكهوف واللواتي، رغم الحظر، كن كثيراً ما يتناقشن عن كل وأدق تفاصيل مشكلات الحياة، بينما الذكور يتمتمون «إيس» «إير» «أوه» بصوت خافت حتى أنك تكاد تحسبهم صامتين. كان الكثيرون عند لحظة الموت يقولون إنهم لم يتذوقوا قط خبزاً أطيب من ذاك الذي أكلوه طيلة الاثني عشر يوماً والذي تحتفظ بسره النساء.

تطلع «أنطونيو سيتسو» إلى زوجته، ونظرتُ إليها أنا أيضاً. كانت ضئيلة البنية ملفوفة

في اللون الأسود القديم، وكانت ذات عينين رماديتين وديعتين. ابتسمتْ، فبلل «أنطونيو» شفتيه برشفة نبيذ واستطرد:

كانت الإناث ينتظرن في أحد أطراف الساحة قاعدات فوق الأرض ومرتديات ثياب سوداء جلود أغنام سوداء، وكن متدثرات حتى يخفين أجسامهن بحيث لا يمكن تمييزهن، عدا الأعين فكانت مكشوفة.

في الطرف الآخر من الساحة كان الذكور، وكانت المسافة بعيدة طالما كانت مساحة القرية كبيرة. كان هناك مضمار بين الذكور والإناث عرضه اثنا عشرة قدماً ويزيد ارتفاعه عن قامة رجل، تفترشه نباتات شوكية ناضرة تم تكديسها في الليلة السابقة على العيد. حول المضمار كان أهل القرية يأكلون ويشربون ويشاهدون ويشجعون ويعلِّقون على تحركات الذكور الذين كانوا يركضون فوق الأشواك، ويسقطون فوق شجيرات طرية حادة، ثم يقفون ثانية داميين متذمرين من الألم ليستأنفوا ركضهم من جديد. كان أفضل المتسابقين يصلون وقد خضب اللون الأحمر أقدامهم فقط، أما الأسوأ منهم فكانت أجسادهم ووجوههم تصير ممزقة من الجراح. وصل «أومور» أولاً، وكان له آنذاك حق الاختيار. جاء «إلوي» ثانياً لأن قدمه اليمنى كانت قد تعثرت في كومة أفرع متشابكة، وظل عالقاً حتى كعبيه لفترة كافية جعلت منافسه يتقدم عليه، ثم انتزع «إليوي» قدمه انتزاعاً بغضب شديد مما أفقده ثلاثة أصابع وكل جلد القدم.

درس «أومور» بتركيز شديد أعين الصامتات الاثنتي عشرة وكان «إيلوي» ساكناً منتظراً وقدمه دامية، فقد كان يرغب في «سولا» الفتاة الأكثر جمالاً، وكان يخشى من أن يتمكن عدوه من أخذها منه.

كان كل المختارين يعرف بعضهم بعضاً جيداً فقد شبوا عن الطوق معاً عراة في الفصل الحار ومرتدين الجلود في الفصل البارد. كانوا دائماً في الهواء الطلق معا يلهون في مياه الجداول ويأكلون «الجيريجياس» ويجرفون الجليد، كان الذكر يعرف جسد الأنثى وكانت الأنثى تعرف جسد الذكر، ولم تكن هناك أسرار أو علاقات غير طاهرة. حالما تكونت الأعضاء التناسلية كان بإمكانكَ أن تصير راشداً «مايور». ولكن، كان المختارون اثني عشر فقط، ولذا فكان الكثيرون ينتظرون عيداً أو اثنين أو حتى ثلاثة متلهفين أن يحظوا بأول علاقة جنسية محظورة على القاصرين.

رجل واحد فقط هو من رفض أن يصبح راشداً: إنه «أُوريل» من عشيرة «مو» الذي كان يرد على العجائز اللواتي كن يخترنه قائلاً لهن: «العيد القادم»، ثم كان يختفي من القرية. كان يعيش في الغابات، ويأكل جوز البلوط والجذور والتوت ونبات الآس والأرانب البرية التي كان يصطادها بيديه فقط وبعد مطاردات طويلة وكمائن أمام فتحة الجحر. في فصل البرد كان يصنع قوارب صغيرة من البرونز، أما في فصول اليقظة والقيظ فكان ينقش سفناً على الأحجار بحبوب لقاح الأزهار وبعصير أوراقها لتمحوها الأمطار فيما بعد.

كان «أومور» و«إيلوي» قد انتظرا ثلاث سنوات تعذبهما رغبة جامحة للمعاشرة. كانا قد عزلا نفسيهما فوق الجبال لكي لا تبدو عليهما تلك الرغبة، وركضا كالخيل على حواف الأجرف وفي الغابات ليكونا على أهبة الاستعداد للاختبار وليطفئا بقطرات عرقهما رغبتهما وشوقهما وشهوتهما لـ«سولا»، وطوال ركضهما وعرقهما كانا يفكران بها ويحلمان بها في نومهما.

كانت جميلة «كلوزة مرة» «مندولا ماريجوزا»، قوية ورشيقة كعنزة، شُجاعة ورصينة، ماكرة وحكيمة. كانت تجمع كل يوم شرانق الفراشات وتحملها إلى المنزل لتعيش

مغمورة بفراشات من كل لون تحسبها أماً لها. كانت تريد أن تصير قاضية، وكانت تبغض تلك الطقوس، وتبغض أن يتم اختيارها. لم تكن بها رغبة إلى أي من الاثني عشر شاباً المختارين في ذلك العيد، بل إنها كانت تفضل أحد شباب العيد السابق، ولكن كان عليها أن تمنح أباً لأبنائها. كانت تتمنى لنفسها أي شاب آخر غير «أومور» و«إيلوي»، لأنها كانت تعلم قدر الكراهية الكامنة بداخلهما. كانا جميلي الطلعة والبنيان، وكانا يبدوان كأخوين، ولكن كانت هناك ظلمة بداخل نظراتهما وثورة في أجسادهما تشوههما. كانت «سولا» تخشاهما، وكانت تدرك أن الكراهية جعلت منهما الأكثر قوة وصموداً وإصراراً في القرية، ولم يكن ليخلصها أحد منهما سوى لعبة من القدر. قررتْ أن تُبقي عينيها مغلقتين، فقد كان لعينيها لون المرج في موسم تفتح زهور اللوز، كانت عينان مختلفتان عن كل لفتَيات الاثنتي عشرة الأخريات كانتا لونين كستنائي وعسلي، ذواتا قاتم كليلة بلا قمر أو نجوم. كانت تخال أنهما لن يتعرفا إليها وعيناها مغمضتان.

تأخر «أومور» في اتخاذ قراره، فلم يعثر على عيني «سولا» بينما كان «إيلوي» قد عثر عليهما دون أن يحرك ساكناً، فقد أبصر نورهما من وراء الجفنين المغمضين. أدرك «أومور» الأمر: إن إحدى عشرة فتاة كانت أعينهن مفتوحة، فاختار «أومور»، فانقض «إيلوي» على كتفيه وانتزع إحدى أُذُنيه بأسنانه ثم بصقها بعيداً، ثم أنقض «أومور» عليه بين الشجيرات، وتدحرجا بين الأشواك، فأخرج «إيلوي» الحجر المصقول من جرابه الجلدي، فضَرَبَ ثم أُغشي عليه.

قاموا بعلاجهما وبقيا على قيد الحياة. نال «أومور» «سولا» التي لم تنجب له أبناء، ثم بعد ثلاثة أشهر بات مثلها تحوم حوله سحابة من فراشات تحسبه أماً لها هو الآخر. تحسنت قدرة «أومور» على التصويب ربما جراء فقده لأذنه. أما «إيلوي» فقد نال «أرام» وأنجب منها ثلاثة أبناء.

كان العيد يبدأ بإنشاد الصلوات عند العين المقدسة عند حلول غروب اليوم السابع من شهر الرياح التي تطوي البلوط: «إيس»، «أير»، «في»، «يا»، «أُوم»، «إيل»، ثم كنا نأكل ونشرب وننام. في اليوم التالي كنا نتلو الصلوات ونحن صائمون حتى هبوط الظلام، وكنا نُغني ونرقص حتى الفجر، وحينها كان يبدأ سباق الخيل حول العين. كان هناك فرسان كثيرون، الأفضل من كل العشائر. كان على الفائز أن يرتل أولاً نشيد مساء اليوم الخامس، ولهذا السبب كان يُنسَبُ إليه فضل الحصاد الوافر لتلك السنة، إذا ما أتى وافراً! أما إذا كان العام شحيحاً قحطاً فكان الناس يحسبونه مذنباً ويقومون بقتله رجماً في العيد التالي في اليوم السابع.

فاز «إيلوي» ورتل النشيد. أتى العام قحطاً.

عند فجر اليوم السابع تهيأ الرجال والنساء من كل العشائر واصطفوا حول الرماة على حواف درب «التوبة» الذي كان يبدأ من مياه العين وينتهي بعد عشرة آلاف خطوة عند طرف الهضبة. لم يكن باستطاعة الرماة التحرك بعد أن يكونوا قد اختاروا أماكن التصويب، وكان يقوم على مساعدة أفضلهم رجال ونساء يحملون لهم سلال أحجار من مختلف الأشكال والأحجام. كان المرجوم فقط هو من يمكنه الركض. كان الرماة ينتقون حجم الحجر وفقاً لبعدهم عن الراكِض، فالحجر الصغير المُستوي يصلح حينما يكون المرجوم بعيداً، والكبير المدبب عندما يكون قريباً. كان في حوزة المرجوم درع وعصا للدفاع عن نفسه، كانت الدرع لصدّ الأحجار، أما العصا فكانت لإبعادها أو لإعادة قذفها نحو الرماة القريبين منه. كان عادة ما يترك المرجومون العصا لثقل وزنها ولغلظ حجمها ويركضون بأسرع ما في وسعهم ساترين رؤوسهم بالدرع، فلم يكن الأمر هيناً، فقد كان عليهم الركض لعشرة آلاف خطوة في مواجهة أفضل رماة الجزيرة، أي بمعدل رامٍ لكل عشر خطوات يصطفون بطول جانبي مضمار عرضه ثلاث أذرع. كان المرجومون عادة ما يلقون حتفهم قبل نهاية المضمار، وكنا نواريهم الثرى في ليلة

اليوم السابع مُنشدين ومُتمنيين سنة أفضل، ثم كنا نحتسي النبيذ المتبقي ونرحل، فقد انتهى العيد.

لم يكن «إيلوي» غبياً، وكان قد أدرك منذ شهر الصقيع أن العام سيكون جدباً. كان قد هيأ نفسه خلال فصل البرد وفصل الحر، وكان يركض عبر الجبال صاعداً هابطاً وفي إحدى يديه درع وفي الأخرى عصا معقودة.

في اليوم السابع قال القاضي: «انطلق!»، فانطلق «إيلوي» كالسهم. كان الذراعان تتبعان حركات الساقين والمِرفقان مضمومان على الفخذين، وكل ثماني خطوات كان «إيلوي» يقفز في الهواء لمسافة أربع خطوات. كانت الذراعان تمتدان أو تضربان أو تحاولان ضرب رامي الميسرة بالدرع ورامي الميمنة بالعصا، فسقط الرماة الأوائل دون أن يسنح لهم الوقت حتى بقذف حجر واحد. كان «إيلوي» يركض، ويثب، ويضرب، ويسقط ولكن دون أن يُوقِف عَدْوَه، كان سريعاً كما لم يكن أحد قبله، ولا حتى «سوم»، الأفضل على الإطلاق، والذي كان قد تمكن من الوصول حتى عشر خطوات من نهاية المضمار.

عند الخطوة الثالثة أصابت عين «إيلوي» حصاة صغيرة للغاية كانت قد رماها «أُومور» الذي كان قد أخذ مكانه عند منتصف المضمار. عند الخطوة الثالثة عشرة أصابت جبهة «إيلوي» حصاة نهرية دقيقة كان قد قذفها «أُومور» أيضاً. عند الخطوة السابعة والعشرين ضرب أنفه قطعة حجر، وعند الخطوة الأربعين تلقى حصاة أخرى. عند الخطوة الثالثة والسبعين كانت هناك حصاة أخرى، وكذلك أيضاً عند الحادية والتسعين، والثالثة بعد المائة، والسابعة عشرة بعد المائة. في كل مرة كانت الحصاة تصير أكبر حجماً من سابقتها، ولم يكن «أُومور» يخطئ ضربة.

قتل «إيلوي» ستة عشر رجلاً، وجرح اثنين وثلاثين، بينما أصَابته مئة وثماني حصوات

من «أُومور»، وست وثمانون من الرماة الآخرين (كان «أفير» قد أصابه من مسافة أربع خطوات فاقتلع عينه اليمنى). قبل أن يصل إلى مسافة تبعد عن «أُومور» بثماني خطوات تلقى في جبهته حجراً أسود مستديراً كبيراً بحجم قبضة وثقيلاً كأنه «نوراغ».

سقط «إيلوي» وأنتقى «أُومور» ، رامي الحجر الأسود، حجراً أحمر مدبباً، وهمّ برميه علي مَن بالأرض ثم فجأة توقف.

انتصب «إيلوي» واقفاً وراح يركض وأصاب جبهة «أُومور» بأكبر عقدة في عصاه فشجّ رأسه، فسقط «أُومور».

أصابت «إيلوي» اثنتان وسبعون حصاة أخرى، وقَتَلَ اثني عشر رجلاً وجرح واحداً وثلاثين أيضاً، ثم بلغ نهاية المضمار. منذ أن ابتدع «مير» ذلك الاختبار إلى أن أبطله «لوتشيفيرو»، لقى مئات ومئات المرجومين حتفهم فيه ولكنّ واحداً فقط تمكن من النجاة، إنه «إيلوي». بعد أن بلغ حدَ الهضبة أخذ في التدحرج فوق المنحدر ليتوقف عند قرية «مو» مغشياً عليه، وكانت قدماه بلا جلد وبلا لحم، فنام «إيلوي» ثلاثة أيام بلياليها.

فقد «أُومور» ظلمة عينيه وثورة جسده ليغدو حكيماً نتيجة حبه لـ«سولا». كانت «سولا» قد تعلمت أن تحب «أُومور» بسبب نوبات السعادة المفاجئة التي كانت كثيراً ما تقطع عليها تفكيرها المتأني ونتيجة لقوته وبراعته في كل الحِرَف.

لم تكن «سولا» تحب سباق المرجوم. في ذاك اليوم كانت ترقد أسفل شجرة بلوط نائية، حلمتْ أن «أُومور» كان يناديها، فجَرَت إلى نقطة الرمي وعثرت على «أُومور» وقد شُجَت رأسه. كانت الدماء والمخ والعظام كلها متداخلة معاً أسفل الجبهة المشجوجة ولكنه كان لايزال يتنفس. داوته حيث كان يرقد دون أن تحركه من مكانه، ولمدة ثلاثين

يوماً بلياليها لم يغمض لـ«سولا» جفن. في اليوم الواحد والثلاثين، عند انخفاض الشمس، استيقظ «أُومور» معافى وتطلع إلى «سولا» وابتسم. قالت له «سولا»: «لقد أنقَذَتَك الفراشات، فلقد مات منها المئات والمئات كي توقف حركة العصا. عليك أن تقتل (إيلوي) وإلا لن أنعم بالسلام أبداً».

رقدت بجانب «أُومور» ونامت، سهر هو عليها طيلة سبعة أيام وليالٍ وحولهما مئات ومئات من فراشات تبكي دموعاً حمراء ظناً منها بموت أمها.

في صباح اليوم الثامن فتحت «سولا» عينيها، وطلبت أن تأكل، عثر «أُومور» على نعجة وقام بحلبها في فم «سولا» الراقدة على المرج، وقامت الفراشات المنتشية بالالتفاف حول بعضها بين وبر النعجة وماتت.

ذهب «أُومور» إلى الحانة، فوجد هناك «إيلوي» يشرب، فدنا من عين «إيلوي» السليمة الباقية وغرس فيها خنجره حتى بلغ قلبه.

كان من الممكن أيضاً القتل والموت دون كراهية، من أجل السقاية من عين الماء أولاً، أو من أجل كلمة فُسِّرَت خطأً على أنها إهانة، أو من أجل رغبة جامحة لفرس شخص آخر، للمراهنة، أو بالمصادفة، أو حتى عن طريق الخطأ.

في ذاك الزمان لم يكن القتل والموت يمثلان مأساة لأحد سوى لأقارب القتيل الذين كانوا يبغون الثأر له. قتل أخو «إيلوي» «أُومور»، فقتل أخو «أُومور» أخا «إيلوي»، فلقي أربعة مصرعهم في غضون ثلاثين سنة. لم يكن الأخذ بالثأر فورياً، ولكنه كان واقعاً لا محالة. كل من كان يرتبط بعائلتَي «أُومور» و«إيلوي» بأي صلة قرابة كان متورطاً في الثأر، وكان يعلم أنه ربما يموت مقتولاً، أو ربما يصير قاتلاً. بعد مرور ثلاثين عاماً ذهب

آباء القرية إلى القاضي «أوزير» وقصوا عليه الأمر، فاستدعى القاضي كل الراشدين من عائلتي «أومور» و«إيلوي». لا يعلم أحد ماذا قال لهم هناك داخل دائرة «إيس» المقدسة في جوف الجبل، ولكن منذ تلك اللحظة بدت العائلتان مرتبطتين بعروة الأخوة.

من أب لابن كنا نغني ونموت ونرقص، وازددنا عدداً ومعرفة بالجزيرة وكنا سعداء.

كنا نحن من أطلقنا على أنفسنا اسم «سئارد» وكان يعني في اللغة القديمة «راقصو النجوم».

قال «أوزير» من «مو»: «إن تدبير الخالق لا يدركه أحد، ففي أحيان كثيرة يدهمنا الموت على غير ميعاد ودون سبيل لرده، ولكن في أحيان أخرى كثيرة أيضاً يستطيع خنجر مصنوع من حجر مصقول اسْتُخدِمَ في الوقت الصحيح أن ينقذ حياة إنسان».

لم نترك آثاراً أخرى سوى أبنية «نوراغ»، وسفن «أوريل» من «مو» البرونزية، والتماثيل الصغيرة للرجال حراس الجزيرة ذوي القرون والتي قلد كثيرون «مير» في صنعها. لم يكن يعرف أحد القراءة والكتابة، وكنا نخطو على الأرض بخفة كالماء.

-5-

بلل «أنطونيو سيتسو» شفتيه برشفة نبيذ، بينما كانت زوجته تنتظر بقية الحكاية وعيناها مغمضتان، أو لعلها كانت نائمة. في المطبخ كان صوت الراوي قد استدعى إلينا صوراً، وكنت قد رأيت أمامي عشباً وبلوطاً وأحجاراً وخيولاً وأطفالاً وأبنية «نوراغ». كنت أنتظر أن تُستأنف الحكاية وكنت أُلزم نفسي بألا أنسى ولا حتى كلمة واحدة، ولم أكن أعلم أن هذا مستحيل، فقد كنت مفتوناً بالحكاية كما لم يحدث لي من قبل مع أي حكاية أو قصة، أو مع كلمات أو صور أخرى.

كان «أنطونيو سيتسو» قصيراً قوي البنية وبديناً قليلاً، وكان يحمل فوق رأسه ليل نهار قبعة من قماش قطني ويرتدي في قدميه الحذاء نفسه المصنوع من جلدٍ قاسٍ كالحجر غير مُنفِذ للماء ومقاوم لطلقات الرصاص. في عيدي الفصح والميلاد كان يستحم داخل حوض استحمام خشبي بجوار المدفئة وسط ضحكات زوجته وأبنائه الاثني عشر. كان يحفظ «الكوميديا الإلهية» عن ظهر قلب[1]، وكان يستطيع أن يصيب عصفوراً طائراً بحجر من مسافة مئة خطوة وكان يربي خيولاً. كان قِبلة لكل من كان في حاجة لنصيحة سديدة في البلدة. لم تكن داره غنية ولا فقيرة ولا كبيرة ولا صغيرة، وكانت تُلطف هوائها نوافذ تطل على الجبل.

أخذ «أنطونيو» نفساً طويلاً وكأنه يتأهب لقول شيء بغيض، ثم أرتشف ثانية ومسح شفتيه بظهر يده الصغيرة داكنة اللون، واستطرد ثانية:

---

(1) الكوميديا الإلهية هي أهم أعمال الأديب الايطالي دانتي أليجيري وقد كتبها في أوائل القرن الرابع عشر الميلادي.

هبط الفينيقيون عند «كثيا»، حيث يوجد مدخل وادٍ خصب حوله جبال كثيرة، في الجنوب بين الجبال والبحر عند مصب أحد الجداول. كانت هناك ثماني سفن ورجال كثيرون ونساء وخيول. أرسلوا سفراء كنا نفهم لغتهم، فقد كانت لغة شبيهة بلغة رجال البحر وطلبوا بناء مرفأ للبيع والشراء: لبيع الجُبن والملح ولحم الأيل والغنم المُملح، ولشراء الحُلي والأقمشة والتوابل.

أقنعنا الطعم اللذيذ للفلفل الأسود مع الفول والجبن ومع حساء الأعشاب ولحم الأرنب البري المشوي بقبول طلبهم، فقام قاضٍ فُقِدَ اسمه بعقد معاهدة حفظها ممثلو الطرفين في ذاكرتهم.

كان لدى الفينيقيين آلهة ذات أشكال بشرية لها رغبات غريبة كالتهام الوِلدان، وكانت لها قدرات عجيبة مثل تحولها إلى حيوانات كي تُعاشر الإنسان. إذا ما استمعت أحياناً إلى الفينيقيين فلن تستطيع أن تفهم إذا ما كان الإله لديهم يصير حيواناً ليشبع رغباته أو أنه حيوان، قط أو ثور، ذو ميول إنسانية.

شيدوا بيوتاً من الطين والقش أكثر مقاومة للرياح والمطر من الأكواخ المبنية من البوص، فدرسنا طريقتهم وقلدناهم في طريقة عمل الطوب وليس في شكل البيت أو القرية.

في قرية الفينيقيين كان على مَن يمر في الأزقة الضيقة والملتوية بين البيوت إذا ما قابل شخصاً آتياً من الاتجاه المعاكس أن يلمسه. ولعلهم كانوا ينون قراهم ليتلاقوا ليلاً في الأزقة، فيلامس بعضهم بعضاً سواء بدافع الفضول أو الخوف تَلامُساً دون أدنى خجل، ثم كانوا يتضاجعون في الظلام حتى دون معرفة من الذي حمله القدر إليهم. لم يكونوا يبحثون عن الظلام للاختباء به بل لملاقاة اللحم المجهول، وكانوا أسوأ من الكلاب بلا حياء. كانوا يمضون حياتهم جالسين القرفصاء أمام أبواب حوانيتهم، فيشترون ويبيعون

أي شيء، ويلوكون باستمرار زهوراً بيضاء، وإذا رغبوا فكان يتاجرون بالجنس مع أي عابر.

حالما كانت تصل سفينة كانوا يصطفون جميعهم بمحاذاة البحر منتظرين، وكان أي شخص يمكن أن يشعر بيد أو بأكثر تتفحص جسده. وحينما كانت ترسو السفينة ويهبط الرجال والنساء، كان أول شيء يفعلونه هو ملامسة سكان القرية الذين كانوا يبادلونهم الشيء نفسه. كانوا يجامعون الحيوانات، ويمارسون طقوساً يضاجعون خلالها بعضهم بعضاً، البشر والحيوانات والآلهة (حسب ما كان يدعيه الفينيقيون). أثناء تلك الطقوس الجنسية كان الكهنة المقدسون يرقصون حولهم رقصة يدعونها «كوي» كانت تحاكي العملية الجنسية في مظاهرها الممكنة كافة.

كانوا يحتسون دائماً نبيذاً وردياً فاتح اللون له رائحة التوت.

كانت «تاروس» هي القرية الثانية للفينيقيين. قام قاضٍ آخر فُقِدَ اسمه أيضاً بتوقيع معاهدة ذات قَسَم مُشْترك وهبنا بموجبها الفينيقيون ثلاثمئة مَزهرية «إيونية». كانت القرية الثانية أكبر من الأولى، وكانت «تاروس» على مرمى سهم من «مو». التزم أهل «مو» بمعاهدة القاضي، ولكنهم قاموا بتطويق الأسوار الفينيقية الواقعة على مسافة خمسمئة خطوة بحزام من أبنية «النوراغ» على قمة كل منها نيران كبيرة تسهر الليل ورجال مسلحون يراقبون كل مداخل الجزيرة.

اتهم أهل «مو» الفينيقيين بخرق المعاهدة، فلم يكن ضمن بنود الاتفاق أن يقوم الفينيقيون باحتلال السهل الجنوبي كما كانوا قد فعلوا منشئين طريقاً بين «كيا» و«تاروس» على جانبيها أُنشئت قرى كثيرة لزارعي القمح، حيث كان بضعة فينيقيين يحكمون المئات من المزارعين العبيد ذوي البشرة السوداء.

قام قاضٍ آخر فُقِدَ اسمه بعقد معاهدة صاحبها قَسَم مقدس آخر ينص على تسليم نصف حصاد تلك القرى إلى السردينيين، وكان محظوراً على الفينيقيين اجتياز الخطوط الحجرية التي وضعناها على مسافة مئة خطوة بمحاذاة جانبي الطريق، وفي كل سنة كان على «تاروس» أن تُسلم عشرة عبيد إلى قرية «مو».

لم يكن لدينا عبيد من قبل، لم يكن أبداً باستطاعتنا أن نعتمد على شيء آخر غير قوانا. لم تمر سوى بضعة مواسم وكان العبيد هم من يقومون بالرعي وبالزراعة، أما أهل «مو» فراحوا يحتسون النبيذ الوردي حتى شروق الفجر، ويمضون يومهم في السوق الذي أقامه الفينيقيون بين أسوار «تاروس» وأبنية النوراغ المُطَوِّقة لها.

كان يطيب للراشدين «مايوريس» في فصل القيظ الذهاب والتجول بين جنبات السوق مرتدين فقط شريطاً من النسيج الأحمر حول الرقبة وحول المعصمين والكاحلين متشبهين بالموضة الفينيقية، مما أثار فضيحة تحولت إلى دهشة عامة ثم صارت تقليداً بين الناس. راح قاصرو قرية «مو» يضاجعون هم أيضاً رغم توبيخ العجائز لهم، وأُلغي الشوك من طقس بلوغ الرشد، وبدّلوا لون الرداء الأسود باللون الأبيض الذي ألبسوه الذكور أيضاً. كان الجزء الوحيد المكشوف من جسد المختارين المعصوبي الأعين الأربع والعشرين هو الجزء الخاص بالأعضاء التناسلية عن طريق ثقب في ردائهم. أطلقوا على هذا الطقس الافتتاحي الجديد اسم «كوي» وفيه كان الشباب يركضون وهم معصوبو الأعين في ساحة الطقوس الخالية من الأشواك والمملوءة بالعشب والأزهار، كانوا يتعثرون ويسقطون ويتصادمون ثم يتلامسون، وإن كانوا من جنسين مختلفين كانوا يجامعون بعضهم بعضاً دون معرفة العشيق وهم محاطون بكل أهل القرية. عندما كان القمر مرتفعاً كان الناس يشتركون في أداء الطقوس مرتدين أوشحة بيضاء تغطي الجسد وتكشف عن أعضائهم.

استمر وجود الأشواك والامتناع عن العلاقات الجنسية في القرى الأخرى، ولكن

وقت عيد «كوي» كان كثير من الشباب من كل عشائر الجزيرة يهرعون إلى «مو» حاملين معهم أوشحة بيضاء وجِرار نبيذ.

وصل «راي» من قرية «سي» إلى «مو» في الليلة السابقة للعيد، تجول في القرية من أقصاها إلى أدناها. تطلعت إليه ثلاث نساء من «مو»، فقد كان «راي» قوي البنية وذا وجه مليح أخاذ. تعقبته النساء الثلاث إلى أن بلغ «راي» إلى الغابة ودخل فيها ثم غط في النوم أسفل شجرة بلوط، رأت النساء الثلاث أين كان ينام فضحكن ثم ابتعدن. كان اسم إحداهن معروفاً، وهي «سيڤا سيڤا» التي لم تستطع النوم في ذاك اليوم، فقد كانت لا تزال قاصرة. كانت بعض العائلات في «مو» تتحسر لضياع قانون «مير» وكانت ترفض عيد «كوي» وتتجنب العلاقات الجنسية قبل بلوغ الرشد. أما القاصرون، الذين لم يعد باستطاعتهم اجتياز طقس الشوك، فكانوا يتحولون إلى راشدين عند اختيارهم رفيق النكاح. كانت «سيڤا سيڤا» تنتمي إلى عائلة ذات تقاليد عريقة ولم تكن عثرت بعد على من يروق لذوقها، وكانت لا تزال بكراً. بعد موت والديها وفي كل مرة كان يتم الاحتفال بعيد «كوي» كانت تخشى أن يقتحم أحد عليها الدار ويعتدي عليها، وكانت تعلم أن القانون القديم كان لايزال صامداً في القرى الأخرى، وكانت تحلم أن ترحل عن «مو».

حينما رأت «راي» فكرت: «إنه وسيم وقوي، سوف يستطيع الدفاع عني وسوف يعرف كيف يكون رقيقاً معي وأن يحبني في الظلام وفي السِر، سوف يستطيع أن يعول أولادي وأن يربيهم على الشجاعة». خرجت «سيڤا» من الدار، ووصلت إلى الغابة بينما كانت الشمس تغيب في ما وراء البحر، وكان «راي» يترقب في سكون. ما أن رأته «سيڤا» حتى فقدت الشجاعة، وراحت تتطلع إليه صامتة. في البداية ظن أنها خيال أو ظلال آتية من عالم الموتى، ثم رأى أنها بشر ففكر: «إني متأكد من أنها تبث عطراً كعبق الأرض والزهور الرطبة. سوف آخذها معي»، ثم دخل الغابة مجموعة من الرجال والنساء الفينيقيين السكارى. إحدى السيدات، عجوز ذات وجه مطلي باللونين الأحمر

والأزرق، رأت «راي»، فدنت منه ولمسته. قال «راي» لها: «اغربي عني!». لم تفهم المرأة الكلمة، ولكنها فهمت نبرة الصوت وأخذت تضحك بصوت كالنعيق، ثم توقفت عن الضحك وصمتت، ثم نظرت في عيني «راي» وراحت تثور وتبكي قائلة: «إنه لا يغي....لا يغي». برز من المجموعة رجل طويل وقوي البنية تملأ وجهه وجسده ندبات كثيرة، شاهد عن قرب «سيڤا» وفكر: «يجب أن آخذ هذه المرأة، إنها ذات حسن نادر، وسيبلغ ثمنها ثلاثين قطعة فضية على الأقل في سوق (ما كار)» . تقدم الرجل مبتسماً نحو «راي» وضربه في عنقه بنصل خنجره، فهربت «سيڤا». انتظر الفينيقي قليلاً (كي يتأكد من موت «راي») ثم اندفع يطاردها. جرت «سيڤا» مسرعة، وتمكنت من بلوغ القرية والدار، أبصرها الفينيقي وأخذ في الدوران حول دارها لبعض الوقت حتى ينطبع في عقله المكان. في اليوم التالي مشى الفينيقي لساعات حول الدار وهو مغطى بالوشاح الأبيض الخاص بعيد «كوي». كان يتملص من الأيادي الشرهة التي كانت تريد مداعبته، وظل مترقباً ولكن لم تخرج «سيڤا». عاد الفينيقي في الليل مع أربعة شركاء آخرين، ودلف إلى الدار ولفّ «سيڤا» داخل سجادة وحملها بعيداً إلى «تاروس» ليستقل سفينة ويهرب بالغنيمة المسروقة. كان نبأ موت «راي» قد بلغ قرية «سي» في غضون ساعات قليلة، فقررت «زتيا»، أخت «راي»، الثأر له. كان تاجر من «مو»، أخ لأبي الفتاة المخطوفة، يبيع الجبن في شوارع «تاروس»، فأعطى خادمة مصرية قطعتين من الجبن القديم المُدَوَّد، وعرف منها مكان احتجاز السجينة. في الصباح التالي اصطحب معه «زتيا» وهي تحمل الجبن إلى «تاروس»، وراح يزعق مردداً ميزات البضاعة ويساوم كما يفعل الفينيقيون معبراً عن استهجانه وضارباً بيديه على فخذيه دليلاً على السخرية، ويبيع لصاحب أعلى سعر. ما أن وصلا إلى دار الخاطف حتى تركت «زتيا» جوال الجبن للتاجر وتسللت إلى داخل الدار من النافذة، فوجدت الفينيقي نائماً، فقتلته خنقاً بواسطة عود بوص أسود مشدود حول رقبته، ثم فتحت باباً أرضياً قلاباً يقود إلى الأسفل وأخرجت السجينة، وسرقا أيضاً فرسين للخاطف ولاذا بالفرار. رأى فينيقي آخر «زتيا» وهي تعدو مبتعدة وتذكر بأنه كان قد أبصرها بصحبة تاجر الجبن، وتعرف أيضاً إلى الفرس، فدخل إلى بيت المسروق وشاهده

ملقياً على الأرض وحول رقبته عود أسود مشدود بقوة، فخرج من الدار ليُنذر الناس.

وصلت «زتيا» و «سيڤا» إلى «سي»، وقتل الفينيقيون تاجر الجبن وعلقوا جسده مقطوع الرأس فوق أسوار «تاروس» لمدة أربعين يوماً.

لم يكن الفينيقيون يرغبون في الحرب فقد كانوا قليلي العدد وكان لهم ولع بالثراء فحسب، فأرسلوا إلى «مو» مئتين من العبيد ليعتذروا عن موت التاجر.

لم يَقْنع أهل «مو» بموت الخاطف، وأُسِّسَت في «مو» عصابة تحمل اسم «عود البوص» ظلت نشطة أكثر من مئة عام. عاش الفينيقيون في «تاروس» في ذعر شديد من عيدان البوص السوداء التي كانت تظهر لهم فجأة عند الفجر ملتفة حول أعناق رجال أغنياء وذوي مكانة وقد داهمهم الموت المبكر. كان بعض الفينيقيين يقومون بتصفية حسابات قديمة أو تكديس ثروات جديدة محاكين الأعمال التي كانت ترتكبها عصابة البوص.

كان أهل قرية «لو» الأكثر عددا وثراء، وكانوا يعيشون ومن خلفهم البحر في أقصى الجنوب بين التلال والمستنقعات عند أطراف السهل. كانت التلال مرعى للغنم والخنازير وساتراً يحمي القرية من أنظار المبحرين العابرين، أما المستنقعات فكانت مكاناً يصيد فيه أهل «لو» كل أنواع الأسماك والرخويات، وفيه كانوا يقيمون أحواضاً لاستخراج الملح، وكانت الأنهار تمر بالسهل الغني بالقمح والفاكهة. كان الجانب الداخلي من التلال أعلى القرية مزروعاً بشجر العنب، أما الجانب الخارجي المطل على البحر فكان برياً موحشاً كما لو كانت الجزيرة غير مأهولة. كان الدليل الوحيد على وجود الإنسان لمن يأتي من البحر هو نوراغ «لو» بارتفاعه البالغ ثلاثمئة قدم ومحيط قاعدته ذي العشرين قدماً، حيث كان يمكن رؤيته من البحر من الجهة الشرقية والجنوبية. كان ضوء شعلته يصل إلى «باربار يا» وكان ينير الطريق للمبحرين ويخيفهم في الوقت ذاته[1]، فقد كان ضوءه يبلغ كل جبال

(1) كان الرومان يطلقون اسم «باربار يا» على كل منطقة شمال أفريقيا الواقعة من مصر وحتى مضيق جبل طارق.

الجزيرة محذرا من السفن المجهولة.

وصل الفينيقيون إلى «لو» عن طريق اليابسة بعد أن كانوا قد بدأوا رحلتهم من «كيا» بمحاذاة البحر، ثم كانوا قد توغلوا في المستنقعات واجتازوا التلال في قافلة من العربات المحملة بالفلفل الأسود والزنجبيل، وفاكهة غريبة جافة تزدهر مجدداً عند وضعها في النبيذ، وزهور جافة مُسكِرة كأفضل أنواع النبيذ عند مضغها لفترة طويلة، وقارورات من الزيت الإتروسكي[1]، وأنسجة حمراء خفيفة كالهواء من صيدا، وأحذية من مدينة صور، ومئة قارورة من النبيذ الليجوري الأصفر الفوار[2]، ومئة جارية سوداء ممشوقة القوام بضة الجسد مجلوبة من صحارى «باربارباريا»، وعشر قطع ذهبية للعشرة الراشدين في «لو».

طلب الفينيقيون في مقابل كل تلك الهدايا السيطرة على «النوراغ» والتلال المطلة على البحر تاركين لأهل «لو» الجانب الداخلي من التلال والسهل، والتزموا بألا يزرعوا القمح وألا يقوموا بتربية النعاج والماعز والخنازير، وأن يبتاعوا كل شيء من سوق «لو».

لم يكن لـ«لو» سوق في الماضي فباتت تمتلك واحداً، وشرع أهل «لو» في الارتحال عبر الجزيرة لشراء الصوف والجبن والفاكهة، وصاروا يمتلكون عبيداً وقطعاً ذهبية، وأخذوا أيضاً في ارتياد أزقة «كار الي»، القرية الفينيقية.

كان الفينيقيون ينسون الآلهة بسهولة، ويفكرون فقط في الثروة والراحة والمتعة. أما في «تاروس» فكانوا يعيشون في ذعر وكانوا في كل ليلة يبتهلون إلى الآلهة طالبين الحماية. في «كارالي» كانوا يحتفظون بتماثيل الآلهة البدينة ذات الهيئة المرعبة، كما يحتفظ الناس اليوم بقطعة من الخزف لتزيين الغرفة. كانوا يزدرون الآلهة القديمة، وكانت لديهم طقوس عبادة ليلية سرية لإله ذي هيئة حيوانية كان قد أُدين من البشر فتم اصطياده

(1) الاتروسكان هم شعب كان يقطن وسط وشمال إيطاليا بين القرنين الثالث عشر والأول قبل الميلاد.

(2) هم سكان مقاطعة ليغوريا الواقعة في شمال غرب ايطاليا.

بواسطة شَرَك ثم قُطِّع إرباً. بعض الناس من «لو» كانوا قد اشتركوا في أداء الطقوس حيث كانوا يجتمعون في ساحة في ليلة القمر المكتمل في شهر اللوز الحامض بعد أن يكونوا قد احتسوا النبيذ الوردي والتهموا لحم الحمل النيئ واحتفلوا في صخب شديد حتى صاروا وكأنهم ينضحون دماً ونبيذاً. كانوا ينشدون بأصوات مهووسة بمصاحبة ثلاثمئة من طبول «بارباريا» ابتهالات تحكي قصة الإله ثم يستمرون في معاقرة الخمر، ويتجردون من ثيابهم، ويقفزون ويرقصون وكأن أرواحاً قد سكنت أجسادهم، رجالاً ونساء، ثم ينظر بعضهم إلى بعض ويتلامسون فيما بينهم، إلى أن يُرفع نُصُب الإله في وسط الساحة. كان إلهاً ذكراً مصنوعاً من الطين والقمح والنبيذ واللحم والسمك ودم الخنزير، ارتفاعه ثلاثون قدماً، واستغرق صنعه من النساء ثلاثة أيام بلياليها. ثم كان يندفع الناس في «كارالي» نحو الصنم، ويقطعونه بأسنانهم تقطيعاً، ومنذ تلك اللحظة وحتى الصباح التالي كان الجميع أحراراً في ممارسة الجنس. لم يكن أحد يفهم لمَ كل هذه السرية والإثارة لشيء كانوا يفعلونه في ضوء النهار بين جنبات سوق «لو» كلما أرادوا ذلك.

اندمج سوق «لو»، بل كل قرية «لو»، مع القرية الفينيقية لِتُولد أول مدينة في الجزيرة.

في شهر البحر الساكن، في أحد الأيام الأولى منه، قال أبو «أرار»، التاجر الثري البخيل والذي كان يمتلك بدلاً من قلبه ذهباً، إلى ابنته: «غداً سيأتون ليأخذوك، فقد بعتك مقابل عشر قطع ذهبية لرجل من طرابلس سوف يبيعك في أرض الصقيع. فلتكوني مستعدة عند الفجر!». ذهب الأب إلى الحانوت، فخرجت «أرار» من الدار وتركت «كارالي»، اجتازت التلال وتوغلت في المستنقعات ومشت طويلاً. هبط الليل ولم تكن «أرار» تعرف أين تكون، فتوقفت عن المشي. سمعت صوتاً نائياً عذباً وجذاباً كغناء الجِن فراحت «أرار» تمشي بخطوات صغيرة متحسسة الأرض كي لا تقع في المياه والطين. كلما اقتربت كان الصوت يغدو أكثر قوة ووضوحاً، ففكرت «أرار»: «إنهن الجنيات». لم تخف، فلم يكن في ذلك الصوت ما كان يمثل خطراً أو شراً، وما أن اجتازت حاجزاً

من القصب له زغب ويحدث حفيفاً كان يسُدّ الطريق حتى رأت البحر أسود وتتخلله خطوط بيضاء لانعكاس أشعة النجوم التي كانت تبدو وكأنها ترقص على أنغام الموسيقى. جلست «أرار» في صمت بينما ظل الموسيقيّ يعزف طوال الليل، وعند الفجر رفع عينيه ورأى البحر والسماء تنعكس صورتهما في دموع تسيل على وجنتي امرأة راقدة وعيناها مغمضتان أسفل قدميه. كانت أجمل من الفجر، ذات شعر أسود مجدول في أكثر من مائة ضفيرة طويلة حتى كاحلها وثغر كأنه منحوت من ثمرة كرز. صمتت الموسيقى لتفتح «أرار» عينيها وترى «إيلوي» من قرية «لو».

كان قد رحل عن القرية بمجرد بلوغه سن الرشد، وشيد كوخاً على شاطئ البحر وراء المستنقع بمنأى عن المرفأ والمدينة. كان «إيلوي» أول من سبح من نسل راقصي النجوم، فقد تعلم السباحة بعد أن راقب الفينيقيين وهم يسبحون في ميناء «كارالي». كان يندفع سريعاً في المياه كالسمك، يصعد فوق الصخور العالية ثم يقفز في المياه ويغطس ويختفي عن الأنظار لساعات، ثم يخرج تتساقط منه المياه وهو يبتسم سعيداً. كان يصنع شباكاً من عيدان البوص ويصيد في البحر وفي المستنقع مختلف أنواع الأسماك والرخويات ليشويها فوق النار ثم يحفظها في إناء به ماء مالح ويبيعها في الصباح في سوق «كارالي»، ثم يعود مجدداً إلى الكوخ عند ارتفاع الشمس لينام. عند الشفق كان يقوم بالصيد ناصباً شباكه، وبالليل كان يعزف على ثلاثة مزامير ذات أحجام وأصوات مختلفة في الوقت نفسه مُصْدِراً عزفاً موسيقياً يجعل أشعة النجوم البيضاء المنعكسة على مياه البحر وعيدان القصب في المستنقعات وسرطان البحر فوق الصخور والأسماك تحت المياه تتراقص. كان «إيلوي» من «لو» جميلاً كالإله «إيس» عند إشراقه، وكان جسده يزداد دُكنة تحت ضوء الشمس، في كل يوم وليلة، على الشاطئ أو في البحر. كان في زهرة العمر وكان لعينيه العسليتين تعبير ساحر أحياناً.

روت «أرار» قصتها إلى عازف الموسيقى طالبة منه المساعدة. كان «إيلوي» قد صنع

زورقاً من البوص ،وكان أحياناً ما يبحر حول الجزيرة، وحين يصيبه الجوع أو العطش كان يرسو ويسير إلى القرى التي كانت دائماً ما ترحب به. عند وصول «إيلوي» كان الناس يبتسمون لمعرفتهم بأنهم في المساء سوف يرقصون على موسيقى مزاميره وكان هو من ابتدع الرقصة الدائرية. فر «إيلوي» و«أرار» عبر البحر، وكانا يتنقلان من ميناء إلى آخر ومن قرية إلى أخرى، هو يعزف وهي تغني كلمات فينيقية بصوت رخيم، وكان الجميع ينصت لهما ويبكي في سعادة. قام أبو «أرار» بتجهيز سفينة وأبحر باحثاً عن الزورق، ففر «إيلوي» و«أرار» فوق الجبال. جهز أبو «أرار» حملة للإمساك بهما، وصعد رجال وعربات وجنود سعياً وراءهما فوق الجبال، ففر «إيلوي» و«أرار» عبر البحر. فكر التاجر مليا أثناء عودته إلى المدينة في المال الذي أهدره في المطاردة الفاشلة، فمرض وتقيأ كبده ولقي حتفه. يقولون إنه إلى الآن كل ثلاثين عاماً تطوف «أرار» و«إيلوي» حول الجزيرة في زورق وهما يعزفان المزمار «لونيداس»، ومن يبتسم له الحظ السعيد ويسمعهما يجد كنزاً.

احتفظت زوجة «أنطونيو سيتسو» بعينيها مغمضتين وابتسمت

تابع «أنطونيو» حديثه قائلاً:

حتى وصول الفينيقيين لم يكن لدينا مال، فلم نكن نعرفه ولم نكن نعرف امتلاك البشر، وكانت تقاليدنا بسيطة وصارمة، ولم نكن لنفكر يوماً في أنه يمكن تقديس المضاجعة كالآلهة. بعد أن صارت قرية «لو» مدينة «كارالي» غدت أكثر ثراء وفساداً.

ظهر الداء الأسود في «كارالي»، كان مرضاً جديداً مجهولاً يصيب المرضى بالحمى التي كانت تعاودهم بانتظام كل ثلاثة أو أربعة أيام وكانت أحياناً ما تقتل. ظهر مرض آخر كان يصيب الأعضاء التناسلية وكان ينزع من المرضى الرغبة في الحياة. بعد أن صارت قرية «لو» مدينة «كارالي» غدت أكثر ثراء وضعفاً.

هكذا كان مصير «كارالي» دائماً: غنية ولكنها فاسدة ومريضة.

كان شباب القرى يهبطون من الجبال ليشتركوا في المجامعة المقدسة في «كارالي» وليحتفلوا في صخب، وكانوا يقولون إن الإله هو أطيب شيء في الدنيا مذاقاً ليؤكل.

ظهرت قرى جديدة من بيوت من طين فوق التلال وفي السهل، فتوقفنا عن عدّ العشائر. لم ننس «إيس» ولا عيد شهر الرياح التي تطوي شجر البلوط، وكانت قريتا «مو» و«لو» هما فقط اللتان تخلتا عن تلك الطقوس. كان الشباب يهرعون إلى طقوس عيد «كوي» الجنسية وإلى المجامعة المقدسة في «كارالي»، ولكن في القرى لم تكن الحياة تتغير. تصاعد الغضب وأراد بعض الرجال تقليد ما يحدث في «كارالي»، فقام قاض بإسكاتهم بسهولة قائلاً: «هل تريدون حقاً تقسيم الأراضي والحيوانات ويمضي كل منا إلى حيث سبيله؟ من سيساعدكم إذا كُسِرت أرجلكم، من سيعطيكم نعجة أو حبة فول إن أصابكم سوء، وماذا سوف تفعلون بالذهب؟ هل ستبتاعون عبيداً لتصيروا كالطفيليات العاجزة عن التحرك ولو لخطوة، ولتصيروا مخمورين من الشروق إلى الغروب دون أي احترام للشعائر؟». كانت الأراضي المزروعة والمراعي والغنم ملكاً لكل القرية.

كان كل فرد بالقرية يشعر أنها مِلك خاص له ولم يكن يزعجه معرفة أنها كانت مِلكاً للآخرين أيضاً، فقد كانت القرية تفكر كعائلة واحدة طيبة، وكانت تقسم العمل والمحصول بحسب المجهود والقوة المبذولين وحاجة كل فرد.

جلب وصول الفينيقيين تقنيات مفيدة وتقاليد خادعة وأمراضاً خطيرة، ولكن هل كان يمكننا رفض الاتصال بهم؟ فقد كنا نعرف لغتهم.

اكتفى الفينيقيون بالسيطرة على المدينة والقريتين والطريق التي كانت تربطهم والمستعمرات الزراعية الواقعة بمحاذاة الطريق وكانت تفصل فيما بينها مسافات منتظمة.

لم تندمج قرية «مو» مع «تاروس»، فقد كانت عدوة للفينيقيين: كانت تراقبهم، وتقتلهم خنقاً بعيدان البوص السوداء، وتتطلع مثلهم إلى الثراء، وتسرقهم، كانت وكأنها شوكة في جانبهم.

نهض البحر الغربي فوق قدميه وكأنه عملاق، فصرخ بصوت سُمِع دويه في «كارالي» بكلمة غير مفهومة وضرب بقبضته «كيا» فاصلاً إياها عن الأرض وسحبها في المياه وابتلعها ثم هدأ روعه، فلقي كل فينيقيّ تلك القرية حتفهم وقامت الأسماك بالتهامهم.

أصبحت «كار تاجو» عاصمة لرجال البحر الذين لم يمتلكوا أبداً عاصمة خلال آلاف السنين، وازدادت أعداد الضيوف في الجزيرة. كانت «كارالي» سوقاً لكل ما يُنتج في أراضي راقصي النجوم أو ما يُجلب من وراء البحار، وباتت مكاناً للتوقف المؤقت ولمستعمرات رجال ونساء من «بارباريا»، و«نوميديا»، وسوريا، وفلسطين، وبلاد فارس ومن اليونان. كانت سلالة «لو» ثرية كما لم يكن أحد منا من قبل، وكانت تمتلك أنسجة وحلياً وثيراناً وخيولاً وأراضي. قام سكان «كارالي» باحتلال السهل قطعة وراء قطعة، وكان القمح في كل مكان يزرعه مئات ومئات من عبيد ذوي بشرة سوداء يراقبهم رجال بونيقيون من فوق ظهور الخيل وبأياديهم السياط[1].

---

(1) البونيقيون هم شعب كان يقطن شمال أفريقيا وتعود ثقافتهم وجذورهم العرقية إلى خليط من الأمازيغ والفينيقيين والقبارصة. أسسوا إمبراطورية كبيرة انقسمت إلى جمهوريات وممالك، أشهرها جمهورية قرطاج.

افتتحت مدرسة في «كارالي» حيث كان مدرسون يونانيون وسوريون يعلمون الأرقام والهندسة.

في شمال الجزيرة عند الساحل الشرقي في مناطق لا توجد بها قرى لنا، هبط مئات ومئات من الإتروسكان الفارين من بطش قوة كنا نسمع عن اسمها منذ زمن طويل: إنهم الرومان. استقبلنا الفارين ومنحناهم الأراضي التي هبطوا بها، وكانوا خليعين مثل الفينيقيين، وكانوا يتعبدون لإله للموتى جميل كالشمس ذي هيئة بشرية كان قد قتل أبيه وعاشر أمه ثم التهمته ثمانية ذئاب إلهية داخل أحد الكهوف.

في شمال الجزيرة عند الساحل الغربي في مناطق لا توجد بها قرى لنا، هبط مئات ومئات من الليغوريين الفارين من الاجتياح الروماني، فاستقبلناهم ومنحناهم تلك الأراضي. كانوا يعبدون إلهاً قاتلاً ذا هيئة بشرية، بينما كان يقود محاربيه لغزو أحد الممالك قتله أبناؤه وقطعوه إرباً. كنا فضوليين أمام كثرة الآلهة، ولكن ما من إله بدا لنا أكبر وأكثر حكمة من إلهنا الذي ورثناه عن أسلافنا القدماء، الخالق الذي يتكلم في السماء الليلية. نسينا المسافات بين النجوم، وأدركنا أننا كنا في وسط بحر يزداد سكانه من يوم لآخر. لم يكن باستطاعتنا إيقاف دورة الإنسان، فلا أحد يستطيع إيقافها، وكان علينا ملاقاة البشر الآخرين لننمو، ولكنّ للقاء ثمناً لا يمكن التملص من دفعه.

-6-

لا نعلم عن حياة القاضي «أُوراك» سوى واقعة واحدة فحسب.

كان الراشدون الوجهاء «المايوريس» من كل القرى يرسلون له فرساناً يحملون هذه الرسالة: «في شهر الزهرة الأولى فوق الجليد نرغب في أن نطلب من القاضي كلمة فاصلة حول مسألة تشغل بالنا». كان «أُوراك» يعيش في مزرعة للماشية نائية عن القرى على الساحل الشرقي، وكان المرعى يقع على مسافة خطوة من ساحل صخري عالٍ بلون زهرة الرمان. كان «أُوراك» يحب أن يتأمل البحر وأن يطرح على نفسه بعض الأسئلة، فمنذ سنين لم يطلب أحد منه أن ينصت وأن يصدر حكماً. كان يعيش منسياً مع النعاج والماعز وثلاثة أحفاد صغار، ذكر وأنثيين، يكادون أن يكونوا همجيين وكانوا يصاحبونه ويحدثون ضجيجاً من الفجر إلى الغروب أكثر مما تحدثه قرية كاملة. منذ زمن و«أوراك» كان يعلم أن الرسل كانوا على وشك الوصول وكان على علم عمّا سوف يسأله الراشدون في شهر الزهرة الأولى فوق الجليد. ورغم أنه كان قد فكر ملياً وبحث في خبرة وذكريات الأسلاف القدماء، لكنه لم يتمكن من أن يعثر على إجابة، ولكنه كان قد أعدّ أحفاده للسفر قائلاً لهم: «يجب أن نرحل... بعد مرور زمن طويل قد دعاني الناس ولا أعرف ماذا أقول لهم. سوف نجتاز قرى ومقاطعات لم تروها من قبل، فعليكم دراسة وتَعقُّل كل ما سترونه، وعندما لا تستطيعون ذلك سيكون عليكم أن تسألوني وسأجيبكم. يجب أن ترتدوا شيئاً للرحيل».

قال «إستي»، أكبر الأحفاد: «هذا مستحيل... لا أحتمل أن أرتدي وبراً، ولا أحتمل حتى تلك الأنسجة كريهة الرائحة».

أجابه «أُورك»: «حسناً... منذ اليوم سوف تبدأ في حياكة ثوب من أوراق الأشجار، وعندما يحين وقت الرحيل ينبغي أن يكون جاهزاً لترتديه».

قالت «ميرا»، الحفيدة الثانية: «فيمَ تفيد الملاحظة والفهم؟». «إن الإنسان الذي لا يعرف العالم الذي يعيش فيه أبله» هكذا أجابها القاضي «أُوراك» بصوت عذب، وبحرص كبير على ألا يهين أحفاده، وإذا كانت الجملة قاسية فكان يحرص على أن يُلَطِّف من نبرته وأن يبتسم.

سألت «أُورسا»، الحفيدة الصغرى ذات البنية التي تبدو هشة ولكنها صلبة كحجر الغرانيت: «ماذا ستقول لهم إن كنت لا تعلم شيئاً تقوله». أجاب «أُوراك»: «إذا لم يعرف القاضي إجابة، أو حتى في أسوء الأحوال، إذا اتخذ قراراً خاطئاً فلن يعني هذا موت السماء بنجومها. إن الخطأ من طبيعة الإنسان، وإن واجب القاضي هو أن يحكم وفقاً لخبرته أو أن يمتنع عن الإجابة إن كانت لديه شكوك».

ألحّت «أورسا» قائلة: «إن الشكوك في هذه الحالة تهيمن على المعرفة». قال «أوراك»: «إن جزءاً مما سوف يسألونه يتعلق بعَالَم مجهول...». فكر «أوراك»، ثم قال: «علي أن أتحاور لمرات أكثر مع (أورسا)، إنها تمتلك هبة السؤال».

رحل «أُوراك» ومعه أحفاده الثلاثة وأربعة من الحمير.

خلال مرورهم بالقرى وبالحقول وبالغابات كانت «إيستي» و«ميرا» يطرحان بعض الأسئلة:

«لمَ لون بشرة النساء أكثر بياضاً من بشرة الرجال؟»

«لمَ يجري في وسط القرية جدول كريه الرائحة؟»

«لمَ يجري الأطفال وراءنا ويلمسون ثوبي المصنوع من ورق الأشجار؟»

«فيمَ تفيد أبنية النوراغ؟»

توقفت «أُورسا» لتتحدث إلى أحد المزارعين وأحد الرعاة وأحد التجار وإلى امرأة

كانت تطحن القمح بواسطة حجر يفوقها حجماً. كان «أُوراك» يجيب متحلياً بالصبر عن أسئلة «إيستي» و«ميرا»، ولكنه لاحظ أن «أُورسا» لم تكن توجه له أسئلة، وكانت تتوقف لتتحدث مع الغرباء. كان «أُوراك» شيخاً عجوزاً، وكان يبغي أن يجد قاضياً ليحل محله، ويرغب في الانسحاب وانتظار الموت فوق الساحل الصخري بينما يشاهد البحر.

سأل «أُورسا»:

«ماذا قال لك الراعي؟».

أجابت: «سألته أن يشرح لي طريقة حلب الماشية ونجحت في أن أعرف عن الغنم أكثر مما كنت أعرفه».

سأل القاضي: «ماذا قال لك التاجر؟».

«قال إنه تعرف إلى رجل محارب ارتحل طويلاً في العالم ورأى منطقة (بارباريا) حتى ينابيع النهر الأزرق، وفي الشرق وصل إلى بلد الليمون الأسود»

سأل القاضي: «ماذا قالت لك المرأة التي كانت تطحن القمح؟».

«شَرَحَتْ لي كيف تحمل المرأة من الرجل».

سأل القاضي: «ماذا قال لك المزارع؟».

«شرح لي الفرق بين جراد (بارباريا) التي تجلبه رياح الصحراء والجراد المولود بين هذا العشب».

في جوف الجبل وتحت ضوء «إيس» الذي كان يتسلل إلى الداخل من كوة موجودة في قبة الكهف، قال الراشدون: «أيها القاضي، يفد اللاجئون من كل البلاد ويحتلون أجزاء من الجزيرة، ويطلب الآن منا البونيقيون أن نُجند أبناءنا ليقاتلوا الرومان... ماذا عسانا أن نفعل». نظر إليهم «أُوراك» ثم أخذ يرقص متبعا الطقوس. بدأ بخطوات مترددة وكأنه قد نسي كيف يُحرك جسده، ثم رفع يديه للسماء وأنشد أسماء كل النجوم التي كان يعرفها، فراحت ساقاه تقفز بقوة وبدا جسد «أُوراك» العجوز وكأنه يحلق فوق أقدام خبيرة ومرنة وقوية وكأنه حَجَر به حياة. لم يكن كثير من الراشدين قد اشتركوا من قبل في طقس «إيس»

وكانوا يشاهدون في ذهول القاضي العجوز، لم يكونوا يستطيعون تصديق كيف يستطيع رجل أن يقفز عالياً وأن يسقط بهدوء وثقة هكذا، أو كيف يتمكن من التحليق فوق المنحدر في جوف الجبل بين الديار القديمة منذ زمن «مير»، وأن يُثني ذراعيه وساقيه في أوضاع لم يروها من قبل مسكوناً بروح العنزة. بعد أن انتهت الرقصة أخذ «أُوراك» يرمق كلاً منهم على حدة، فقد كان الكثيرون منهم مجهولين له، ثم قال: «ليست لدي إجابة... لقد فكرت ملياً ثم أعدت التفكير. أرى السفن في عرض البحر، يستطلع الرومان أراضي الراقصين ولكني لا أعرف كيف يعيشون، وفيمَ يفكرون، وبمَ يؤمنون وماذا يريدون. من المؤكد أن الأمر يتعلق بحياة عشائر الجزيرة ومن الضروري وجود قاض أفضل، لذا فإني أَقترِحُ (أُورسا)، تطلع إليه الراشدون في دهشة، فلم يكونوا يعرفون «أُورسا»، ولم يكونوا يعرفون من تكون، ولكن لا أحد منهم كان يعرف ماذا عساه أن يفعل. لم يكن لدى أحد منهم إجابة، ولهذا كانوا قد بحثوا عن «أُوراك». سأل «سير» من «أر»: «لأي عشيرة ينتمي الشخص الذي ذكرت اسمه؟»، فأجاب «أُوراك»: «إنها من عشيرة «سي»... وُلِدت في (أورين) في داري». نهض الواحد منهم تلو الآخر، وتكلموا، فقال ثلاثة منهم: «أكير» من «سي»، بينما قال التسعة والتسعون الآخرون: «أُورسا».

قالت «أُورسا»: «فلتعودوا إلى هنا بعد ثلاثة أيام!».

سَهَرَتْ الليل، حَكَت للنجوم عن أيامها مع العنزات وهي تقفز من صخرة إلى أخرى هناك في الأسفل عند الساحل الصخري وحتى البحر، أنصتت أو خالت أنها استمعت إلى حكايات النجوم. عند الفجر ودع الأخوان والجد «أُورسا» بالأعناق ورحلوا، وابتعد «أُوراك» بقلب مطمئن.

رقصت «أُورسا» وهي تغني قصصاً اختلقتها عن النمل والأرانب البرية وعن الكلاب وعن الجن. عندما هبط الليل سهرت تسأل النجوم عن الكلمات التي قالها الرجال والنساء

الذين قابلتهم خلال الرحلة. تذكرت كل ما سمعت، وكانت قد فهمت ولكنها تجنبت أن تقول لـ«أُوراك» حتى لا تعكر عليه شيخوخته: «فيما وراء البحر، في الشرق، هناك أرضٍ خصبة وغنية تعيش فيها جماعات كثيرة، والرومان هم إحدى تلك الجماعات. يقولون إنهم أبناء إله ذئب قتل أخاه، إنهم متوحشون كالذئاب ومتأهبون لافتراس بعضهم بعضاً كما يفعلون مع الآخرين، إنهم طريدة حمى حرب شرسة، يهاجمون ويسرقون وينفون ويغزون، وفي حوزتهم أسلحة براقة وحادة. لديهم إله لا يُقْهَر يقودهم، إنه ذئب يحمل سيوفاً. إنهم يحنثون بالقسم وينكثون بالعهود ويريدون غزو الأرض والبحر والعالم».

سألت «أُورسا» النجوم التي ربما تكون قد أجابتها.

نامت «أُورسا» عند الفجر. وصل الراشدون عند الغروب وأيقظوها، فتوجهت القاضية إلى الجدول لتغتسل ولتتعطر بنبات الآس، ثم عادت فأنشدت النجوم ورقصت ثم قالت: «إن الرومان كخيوط من العشب في أحد المروج ونحن كالضفادع بين الصخور في بركة يقوم الراعي فيها بملأ قدح بالمياه. نحن قليلون مقارنة بخيوط العشب، فلا ترسلوا أبناءكم ليقاتلوا في صفوف التجار، فسيأتي الرومان فوق أرضنا. إن الرومان يحتلون ويغزون ويستعبدون الإنسان ويروضون الذئاب للحرب، وسوف يكون علينا أن نصمد هنا حول الذكريات العتيقة، وسيكون علينا أن نعرف جوف الجبل كما نعرف باطن أيادينا. إن أملنا الوحيد في الخلاص سيكون في الجبل وفي الغابة».

بات الرومان ذائعي الصيت قبل أن نتمكن من رؤية أحد منهم بلحمه وشحمه. كان «الإيتروسكان» و«الليغوريون» و«البونيقيون» يتكلمون عنهم. بدأ «الإيتروسكان» في اجتياز الجزيرة من أقصاها إلى أقصاها ليشتروا الجبن والملح اللذَين كانوا ينقلونهما فوق زوارق كبيرة إلى «كورسيكا» حيث كان قد فر إليها آخرون من تلك العشيرة، وكانوا أثناء سفرهم وشرائهم وبيعهم وإبحارهم يتضرعون ليلاً ونهاراً إلى خمسمئة من الآلهة حتى

يتجنبوا لقاء آخر مع أبناء الذئب. أما «كورسيكا»، فكنا نعرفها، فقد كان علينا أن نكون عمياناً حتى لا نراها، وكان علينا اجتياز البحر كي نصل إليها. كنا قد تطلعنا إليها بفضول، فلم يكن قد ظهر دليل بعد على وجود الإنسان عليها.

كنا قلائل وكنا كلنا تقريباً موجودين على طول الساحل الغربي، حول «مو» و«أر»، وبين المستنقعات وسفح الجبل. فقبل أن نتخيل أن نُعَمِّر «كورسيكا» كان علينا أولاً تعمير جزيرة الراقصين.

أمتزج «الليغوريون» بأهل الجبل بعد أن قبلوا بطقوسنا، وما أن كانوا يسمعون كلمة «رومان» حتى كانوا يأخذون في السباب والصراخ والبصق والزمجرة والبكاء.

كان البونيقيون يسيرون في الجزيرة بحثاً عن متطوعين للحرب، وكانوا يشرحون أن الرومان هم أناس كالآخرين حتى وإن كانوا أفضل المحاربين. إنهم ليسوا بآلهة وليسوا ذئاباً مسلحة وكان يُمكن قتلهم، ولكن كانت هناك حاجة لِقَتَلَة.

كنا خائفين من الرومان وكان بنا فضول لرؤية أحدهم.

وصلوا من البحر، فاستولوا على «كارالي» وأخذوا كل الشباب الأقوياء عبيداً. حدث الأمر نفسه لعشيرة «لو» التي لم تكن لديها الشجاعة لترك الأقبية دون حراسة حيث كان أفراد العشيرة قد خزنوا بداخلها القمح والتين الجاف والزبيب والجبن ولحم الخنزير المملح والذهب والفضة. تقدم الرومان بمحاذاة طريق الفينيقيين في السهل، وكان المئات والمئات منهم مسلحين ومُصطفين في فيالق وكانوا يرتدون زياً أبيض وأحذية. كان لهم شعور ولحى قصيرة مما أدهشنا عند رؤيتهم. كان عددهم أكثر من الذي كانت قد تنبأت به «أُورسا» منذ خمسين سنة مضت، كخيوط عشب في أحد المروج. لبثت عشيرة «مو» في

قريتها، فقد كانت لديهم ثروات ينبغي الدفاع عنها: بيوت كبيرة ومنيرة بها فسيفساء ثمينة وحدائق بها نافورات بهيجة. قرروا أن يمنحوا الرومان هدية حتى يكتسبوا ودهم: مئة بقرة عشراء وضعوها أمام مدخل القرية في ساحة السوق بين النوراغ وأسوار «تاروس». بعد الاستيلاء على «كارالي» باتت «تاروس» وكأنها جحر نمل أصابه الجنون. فرّ عبر البحر كل من استطاع ذلك، وكل مكان فوق السفن القليلة المتاحة دُفِعَ وزنه ذهباً ثمناً له. كثير من البونيقيين لم يفروا لأنهم لم يكونوا أغنياء بما يكفي، لذا فقد اختبأوا في منازل «مو» متنكرين في هيئة مواطنين سردينيين. لم ينظر الرومان إلى البقرات العشار ودخلوا «مو» وهم يدفعون السردينيين والبونيقيين بالرماح حتى بلغوا السوق، ثم فصلوا بين الرجال والنساء، وعند الغروب قتلوا الرجال ضرباً بالمطارق الحجرية، ومع الشروق قاموا بتقطيع أوصال النساء حتى لا يلدن روماناً آخرين. كانوا يقيدون كل امرأة من ساقيها، ثم يربطونهما بأربعة خيول يعدو كل منها نحو إحدى الجهات الأربع. تركوا على قيد الحياة أربعة أطفال في السابعة من أعمارهم وسمحوا لهم بالفرار نحو الجبال ظناً منهم أن الأطفال كانوا سيحكون ما حدث فيبثوا الرعب بين المقاومين المُحْتَمَلين.

سأل «إتسور» من «أر»: «ألهذا من المفيد معرفة الجهات الأربع؟»

-7-

تنهد «أنطونيو سيتسو»، ثم تطلع إلي وصَمَتَ، ثم نظر إلى ساعة الحائط فوق المدفأة، وكانت الساعة الثامنة وكانت الغرفة باردة. تنفست في نشوة عبير التفاح المحفوظ في سلة موضوعة في ركن مظلم، لم أكن متعباً من الاستماع. التهم «أنطونيو سيتسو» قطعة جبن، ومضغها بتؤدة وهو يفكر، ثم احتسى رشفة نبيذ. كانت المرأة تصغي إلى الأصوات في صمت وعيناها مغمضتان أو لعلها كانت نائمة. لم أكن لأجرؤ على أن أتفوه بشيء خوفاً من أن يُساء فهم أي كلمة أقولها فيظنون خطأً أنني متعب أو أن لدي رغبة في الانصراف. بدأت أدرك أن القصة المحكية هي قصة النساء والرجال الذين عاشوا قبلنا في جزيرة الراقصين، إنهم أباء وأمهات ربما يشبهوننا في رقتهم وابتساماتهم أو في جنونهم الذي لا نعرف أين كانت ولادته.

قال «أنطونيو سيتسو»: ألف سنة من الحرب، هكذا كان الرومان لنا، ألف سنة من الحرب.

مرتان كنا على مسافة خطوة من موت الحرية، وكانت المرة الأولى بعد مئة سنة من ظهور أبناء الذئب حليقي الرؤوس في «كارالي».

كان «أُورور» من «أر» يقول: «إن الرومان لا يمكن قهرهم في الأراضي المستوية والمكشوفة. إنهم كثيرون وجيدو التسليح، وماهرون في القتال وفي امتطاء الخيل. في الغابة وفوق الجبل سيكون على الفيالق التفرق إذا أرادت مواصلة التقدم، وسيكون على

الجنود التقدم فراداً بشق الأنفس وبخطوات واسعة. علينا أن نفاجئهم بغتة وفي صمت، نقتل ونختفي. يجب أن نجعل الرومان يتطلعون برعب إلى كل ممر ضيق، إلى كل واد وإلى كل مجرى لجدول خوفاً من وجود فخ منصوب. إن القرى في السهول تغدو بلا حماية حين يكون الرومان منشغلين بحروب في أراضي ما وراء البحر. سيقوم الراشدون بامتطاء الخيل وبالقتال وبشن غزوات تكفي لسد جوع الناس من القمح والدقيق والنبيذ والأبقار والنعاج والعنزات والخنازير والأرانب والدجاج والخيول. إن كل ما يمتلكه الرومان هو نتاج أرض الراقصين». حوّل «أُورور» كلماته لأفعال، وأختار ثلاثمئة من الفرسان وقادهم بينما كان الرومان منشغلين بقتال القرطاجيين. نهب ثلاثين قرية وأرسل مئات ومئات العربات المحملة بالمؤن فوق الجبال، ووصل حتى أبواب «كارالي». قال: «إنه ليس بالأمر العسير... سنعيد الكَرَّة».

ظهر «أمسيكورا» الذي كان يجول بين القرى ويقول إنه من عشيرة «مو» ولكنه قد تربى في «روما»، ولهذا كان يحمل اسماً رومانياً. كان يقول إنه قد حان الوقت لمهاجمة «كارالي» لاستردادها، ثم فيما بعد كان سيكون باستطاعتنا أن نغرس في البحر جذوع أشجار مدببة حتى نمنع السفن الرومانية من الرسو. لكن، توقف «أمسيكورا» عند «أُورين» على الساحل الصخري، وأرسل تسعة فرسان لإعلان وقف الحرب فاتبعته ثلاث عشائر. كانت لدى «أُورور» من «أر» شكوك، فتحرى الأمر واكتشف أنه لم يكن أحد يعرف «أمسيكورا» سوى الفرسان التسعة المجهولين مثله، فلقد ظهر هذا الرجل من العدم. كان طويلاً وقوياً ومغطى بالندبات، وكان يقول إنه قد قاتل في حلبات المصارعة في روما وفي الإسكندرية، وإنه كان قد اشترى حريته، وإنه كان حفيداً لعبد أخذه الرومان من «مو» في الماضي الغابر. قال «أُورور» إلى الراشدين الذين كانوا يعرضون عليه لقاء «أمسيكورا» في جوف الجبل المقدس: «إننا نعرف كل أفراد عشيرة (مو)... ونعرف أنه تم التعرف إلى الموتى كافة، وأن أربعة أطفال أحياء فقط هم من وصلوا إلى (سي). إن هذا الرجل قد يكون مجنوناً أو مدعياً أو جاسوساً، وإن الكَشْف عن سر جبل (مير) يعني كشف

قلب دفاعاتنا، وعن الجحور التي طالما سمحت لنا بأن نبقى إلى اليوم على قيد الحياة رغم الغزاة. لن أمنحه ثقتي ولا أظن أن من الممكن غرس جذوع مدببة في البحر». استدعى «أُورور» «أمسيكورا» إلى «أر»، فأعلن «أمسيكورا» بأنه قد شعر بالإهانة لعدم لقائه القاضي في معبد «إيس». أجاب «أُورور» بأنه ليس لـ«إيس» معابد وأن المعابد موجودة فقط في روما. قام «أمسيكورا» بإعلان أن القاضي لا يبجل المحاربين، وأنهم سوف يتحركون من دون القاضي، ومَن كانت لديه الرغبة فإن باستطاعته أن يلحق بـ«أمسيكورا» لتدمير الرومان، فقامت سبع عشائر أخرى بالانضمام إليه. بلغ إلى القاضي تذمر الإحدى عشرة عشيرة التي لم تلحق بـ«أمسيكورا»، وطلبوا أن يقاتلوا. أجابهم «أُورور» بأنهم كانوا قد قاتلوا وأنه لايزال عليهم القتال طويلاً ولكنه لم يكن يثق بـ «أمسيكورا». قاد «أمسيكورا» عشر عشائر إلى السهل. كان الرومان قد أخذوا مواقعهم فوق الهضاب، وكان المئات والمئات من الرجال والخيول قد هبطوا من خلف «أمسيكورا». خرج جنود رومان آخرون من «كارالي» لمواجهة المتمردين، وهبط رومان آخرون من سفن كثيرة، وكانت الجزيرة تعج بالرومان وكأنها جحر نمل. قام «أمسيكورا» المُحاصَر بالاستسلام دون مقاومة، فأُسِر ألف سرديني عبيداً. علق «أُورور» على ما حدث قائلاً: «لقد نقص الفرسان المدافعون عن الجبل تسعمئة وتسعين فارساً مقاتلاً».

مكث ابن القائد «أمسيكورا»، ويُدعى «يوستو»، فوق الساحل الصخري لـ«أُورين»، إحدى القرى الثلاث التي كانت قد أعلنت منذ البداية ولاءها لأبيه. شب عن الطوق، وأعلن الحرب على الرومان وعمره عشرون سنة فاتبعته ثلاث عشائر. كان الرومان في السهل كثيري العدد وكأنهم النحل داخل أحد الجحور، فاستسلم «يوستو». عَقب «أُورور» قائلاً: «لقد نقص الفرسان المدافعون عن الجبل مئتين وتسعة وتسعين فارساً. إنها خدعة من الرومان. إذا استمررنا في اتباع المجانين والجواسيس الذين يعلنون الحرب فسيُقتل أو يُستعبد كل الفرسان عما قريب، وسوف يصعد الرومان إلى القرى ليجدوا

العجائز والأطفال فقط، سيقتلونهم أو يستعبدونهم، ولن تكون هناك عشيرة حرة ولن تكون أرضنا ملكاً لنا».

باتت كلمة «أُورور» قانوناً خلال القرون، صمدنا فوق الجبال، وأعانتنا الكوليرا التي كانت تقتل الرومان في «كارالي» دون السردينيين. كان أفضل المحاربين الرومان يرغبون في الثراء وأن يمضوا شيخوختهم في «بادانيا» في مزرعة جميلة بجانب النهر، أو في أسوء الأحوال، أن يلقوا حتفهم في المعركة وليس جراء حمى «كارالي»[1]. كان أفضل ضباط الجيش الروماني يضعون نصب أعينهم الوصول إلى المناصب العليا في الجمهورية، ولم تكن لديهم الرغبة في أن يخاطروا بميتة وضيعة في المدينة أو فوق جبال أرض كان الرومان يقولون إنهم يمتلكونها منذ قرون. كان المذنبون والمتهربون والمتمردون يصلون إلى «كارالي» ويقضون شهوراً بين العاهرات والحانات، ثم يُصابون بالحمى التي كانت تقتل الكثيرين منهم، وفي حالات نادرة فقط وبمساعدة أحد «الدوقات» الطموحين والراغبين في الفرار في أسرع وقت من الجزيرة، كانوا يتمكنون من مغادرة المدينة مُسلحين في قوافل طويلة. كانت كل القرى على الطريق بمثابة فرصة لهم لإقامة مآدب للطعام وللشراب ثلاثة أو سبعة أيام أحياناً. تَعَلَّم العبيد من نسل «لو» إخفاء النساء.

ظل «اورور» قاضياً سبعين سنة وقاد مئة وستة هجومات.

نُقل كثير من السردينيين إلى روما للاحتفال بالنصر. كان الدوق الروماني بعد الانتصار في الحرب يمر بموكبه في المدينة ومن ورائه أسرى يدفعهم الجنود بالرماح، وكان شعب روما يصيح فرحا إلى الدوق. عرض العديد من الدوقات في مواكبهم ثلاثة أو أربعة من السردينيين كثيفي الشعر ملتحين وغاضبين، أيديهم ورقابهم مكبلة في أقفاص خشبية. كان الرومان يصقون على السجناء الذين كانوا يردون بدورهم البصق بمقدرة كبيرة على إصابة الهدف، وكانوا يركلون بأقدامهم لإبعاد الجموع عنهم، وكانوا يقاتلون جيداً داخل

(1) منطقة في شمال إيطاليا.

حلبة المصارعة حيث كانت تصل مغامرتهم إلى نهايتها. انتصر «أومرو» تسعاً وتسعين مرة في القتال بالمطرقة، وقَتَل تسعة وتسعين منافساً. كان شخصاً ذا شهرة عريضة عديداً من السنوات في روما، وكانت المُحظيات تسعى وراءه، وكان المال وافراً لديه. كان «أومرو» ملكاً للدوق، وكان يعيش وكأنه حر، أو كان يتوهم ذلك، فلم يهرب ليعود إلى الجزيرة وقد ترك نفسه لتفتتن بذاتها، وكان يحسب أنه لا يمكن قهره. في المرة المئة قام شاب نوبي بتهشيم رأسه إلى ألف جزء ليصير مشهوراً هو الآخر ولينال حياة رغدة لفترة أقل من سابقه، فقد قَتَله في المنازلة السابعة رجل من الصحارى.

قال «إيتسور» من «أر»: «إن الرومان نبات خبيث يملأ كل المرج قاتلاً العشب الطيب، وإن حاولت اقتلاعه فسيصيبك بِالسُم».

بلل «أنطونيو سيتسو» شفتيه برشفة نبيذ وقال:

مر عجوز جوال بقرية «سيروغوس»، فأعطاه طفلاً، ابناً لعبيد، ماء وطعاماً. حكى العجوز للعبد قصة «إيوسوس»، وقال:«إنه كان ابن الرب... ابن الخالق الواحد رب السموات والأرض». قام الكهنة بمحاكمته وسألوه: «هل أنت ابن الرب؟»، فأجاب «إيوسوس»: «نحن البشر كافة أبناء الرب، الأحرار منا والعبيد، وأنتم أيضاً يا من تقبعون الآن في الزيف وفي الكذب». سأله الكهنة: «إذن أنت لا تنكر أنك ابن الرب؟» أجاب «إيوسوس»: «لا أستطيع أن أنكر، إنها الحقيقة، فأنا ابن الرب ككل إخواني وكل البشر». لقد دانوه وقالوا إنه كان يريد أن يصير ملكاً، فسلموه للرومان. حتى في بلد «إيوسوس» النائي يوجد الرومان وجماعات من المتمردين ينغصون عليهم حكمهم». عرض الرومان «إيوسوس» في السوق بينما كان الناس يبصقون عليه، ووضعوا على كتفيه جذع شجرة أَرز وجعلوه يحمله إلى أعلى منحدر، وعندما كان «إيوسوس» يسقط كان يضربه الرومان بالسياط، وكانوا يلقون الملح فوق جراحه المفتوحة. فوق قمة الجبل قاموا بغرس جذع الشجرة في الأرض وقاموا بصلب «إيوسوس» فوقه، وحينما أصابه العطش جعلوه يشرب الخل. لقد مات «إيوسوس»، ولاح في السماء نور أبيض كالقمر وخاطف للأبصار كالشمس، ولمدة ثلاث وثلاثين ساعة لم يكن هناك نهار أو ليل. أتى صوت من السماء، ليس لرجل أو لامرأة، وكان يصرخ من اليأس، سمعه كل من كان في فلسطين وفوق البحار وفي الصحارى. أصاب العمى كل من رأى ذلك النور، فلن يستطيع رؤية الفجر ولا البحر ولا النجوم، وقد أصاب الصمم كل من سمع ذلك الصوت، فقد سمعوا ألم الكون كله. بعد ثلاثة أيام قام «إيوسوس»، وخرج من القبر ويعيش الآن عبر العالم ويحرر

الإنسان من الخوف. إن مجيئه رمز لمجيء الخالق على الأرض. إني «إيوسوس» الآن من أجلك، وسيمكنك أنت أيضاً أن تكون «إيوسوس» غداً لأحد آخر».

كان عمر الطفل العبد ست سنوات حين هرب من قرية «سيورغوس»

ذهب إلى «كارالي» مشياً حيث كان يأمل في أن يجمع أخباراً عن «إيوسوس».

لاثني عشر عاماً ظل خادماً متطوعاً لـ«تورشيدي».

كانت «تورشيدي» عاهرة في روما، وكانت المفضلة لأحد القناصل ولعدد ليس بقليل من أعضاء مجلس الشيوخ الأغنياء؛ وكانت قد استطاعت نتيجة براعتها في تسويق نفسها ولمكرها وبخلها من أن تدخر جوالا من النقود. عقب ظهور أولى علامات الشيخوخة على جسدها، والتي أدت إلى نقص واضح في أرباحها، تركت مدينة الحكم وابتاعت حانة في «كارالي» حيث كانت تحيا حياة هادئة، وكانت قد تزوجت من أحد المحاربين الذي كان قد فقد ذراعيه في نزال ضد أحد البريطانيين، وكان يزرع قطعة أرض في «دوليا»، دون أن يعرف أحد كيف كان يقوم بهذا!!

كان الطفل يحمل الكؤوس إلى الطاولات ويسأل أنباء عن «إيوسوس»، وكان يغسل الجِرار في وقت متأخر من الليل ويفكر في «إيوسوس»، وعند أول ضوء للشروق كان ينام في القبو ويحلم بـ «إيوسوس»، ليستيقظ بعد سويعات قليلة وشفتاه تردد اسم «إيوسوس».

لكن لم يكن أحد يعرف أكثر مما كان قد عرفه الطفل من الجوّال العجوز.

بعد إحدى عشرة سنة من العمل في حانة «تورشيدي» صار الطفل شاباً، وتعرف إلى بحار مصري أهداه لفافة ورقية بها كلمات لـ«إيوسوس» كان قد سمعها ونسخها رجل كان قد رآه ينهض من قبره. لم يكن الشاب يعرف القراءة فطلب من «تورشيدي» السماح له بمتابعة دروس «تيرسيو»، العبد المُعتَق الذي كان يُعلِّم القراءة والكتابة. أبت

«تورشيدي» أن تسمح له لأن «تيرسيو» كان سيطلب أجراً لذلك، فقال لها الشاب: «سأعمل لأجله بعض الساعات». وافقت حينئذ «تورشيدي» لأنها ظنت أن خادماً عالماً ربما كان ليعطي بريقاً ومكانة إلى الحانة، فرواد الحانة كانوا سيوجهون له الأسئلة وسيستمعون بسرور إلى الأجوبة، وكانوا سيكيلون المديح له ثم يركلونه في مؤخرته ويضربونه بالكؤوس المملوءة بالبول فوق رأسه لاهين ومذكرين إياه بأنه لايزال عبداً. كان «تيرسيو» مسيحياً، فالمسيحيون هم من يتبعون كلمة «إيوسوس». بعد أن لاحظ ما يتمتع به الشاب من الذكاء، قام «تيرسيو» بإعفائه من الأعمال، وعندما سأل الشاب «تيرسيو» عن السبب، أجابه «تيرسيو»: «لقد قال «إيوسوس» أحِبَّ الآخرين كما تحب نفسك. لو كنت مكانك بكل هذه الرغبة في التعلم وقلة الوقت المتاح لكنتُ عانيت عند أدائي تلك الأعمال، فلتدرس!». تعلم الشاب القراءة والكتابة، وكشف غموض كلمات اللفافة التي كانت قد مُنحت إليه. ترك «تورشيدي» و«تيرسيو» سراً في ظلام الليل، هرب واجتاز السهل راكضاً حتى «سيورغوس» ونام في بيت أمه (التي كانت تظن أنه مات، ولم تستطع التعرف في هذا الشاب العالِم إلى طفلها الذي كان قد هرب). رحل عند الفجر ومع الغروب كان قد بلغ الجبال، هامَ على وجهه ثلاثة أيام بلياليها. في الليلة الثالثة نام على مقربة من مزرعة للماشية لقاضٍ فُقِد اسمه. كان القاضي قد أبصر الرجل بالقرب من مرتفعات «مور» عند ارتفاع الشمس في السماء، وكان قد لاحظ كيف كان يتجول في الوادي بفضول وكأنه تائه. رأى أيضاً أنه كان شاباً يرتدي ثياباً رومانية، ولم يكن يحمل سلاحاً، وكانت له قسمات أهل «لو»، وكان يقبض بقوة إلى صدره على كيس كان يبدو وكأنه يحوي كنزاً. في الفجر خرج القاضي من المزرعة فوجد الرجل ينام، فأيقظه وطلب منه أن يساعده في حلب الغنم، وكان الرجل سعيداً لتقديمه العون. قدم له القاضي حليباً وخبزاً وشربة نبيذ، فقَبِل الرجل. كان القاضي يتكلم لغة القدماء، أما العبد الهارب فكان يتحدث بلغة الرومان، وفي شهر واحد تعلم الرجل لغة القاضي وتمكن من أن يحكي له عن «إيوسوس» وعن الكتاب الذي أُهدي إليه وكيف تعلم القراءة والكتابة حتى يقرأه.

سأله القاضي: «هل تستطيع أن تعلمنا لغة الكتاب التي تتكلمها؟». أجاب الرجل:

«نعم... أستطيع أن أُعلّم القراءة والكتابة باللغة التي أتكلمها». قال القاضي: «سأكلفك بمهمة. امش في القرى، واقرأ كلمات كتابك، وعلّم الجميع لغتك! كلّمهم عن «إيوسوس!»، وسيعطونك في المقابل طعاماً وجلوداً». سأل الرجل: «هل تريد أن أقرأ لك الكتاب؟». أجاب القاضي: «كلا، إنني أعرف ما يكفي. ستذهب أولاً إلى قرية (أر)، فلا أحد هناك يعرف لغتك، وسيكون لديك الكثير لتُعلّمه لهم، ثم ستتجه إلى قرية (سي)، ثم إلى قرية (نا) حيث الحال هناك مشابهة. سيكون الوضع أفضل في المناطق الأخرى حيث الكثيرون يعرفون لغتك ويتكلمونها. علّمهم القراءة والكتابة وحدّث الجميع عن (إيوسوس)! عندما ستهبط إلى أراضي الإمبراطورية سأعطيك مئة من الفرسان لتصل هناك على حين غرة، ثم تخطف العبيد وتأخذهم إلى مكانٍ آمنٍ وتشرح لهم أنهم جميعاً أبناء الخالق. إن أرادوا فسوف يمكنهم العودة إلى العبودية ولكن سيكون لديهم الاختيار. إن الطريق إلى (أر) سهل: فلتتبع ساحل الجبل إلى نهايته، فالقرية خلف القمة الحجرية هناك في الأعلى عند الأرض المستوية».

أطاع الرجل

أرسل القاضي صقراً إلى زوجته «سار» التي كانت تعرف أن وصول الصقر يعني: «إن مسافراً سيأتي لكم حاملاً معه قراري، فليحِل محلي!» وكان وصول الشحرور معناه: «سيبلغكم رجل خطير ولكن لا يجب قتله»، أما وصول الغراب فكان معناه: «اقتلي مَن يأتي!»

ذهبت «سار» لتستقبل الرجل وأحضرته إلى الدار وكأنه القاضي. في كل صباح كان يُعلّم القراءة والكتابة بلغة الرومان، وفي المساء كان يتحدث عن «إيوسوس»، وفي الختام كان يقرأ لهم جملة من الكتاب.

قال «إيوسوس»: «طوبى للرجل الذي تألم، فقد وجد الحياة»[1].

---

(1) إنجيل توماس أية 58.

وقال أيضاً «الفريسيون والعلماء أخذوا مفاتيح المعرفة وأخفوها. إنهم لم يدخلوا كما لم يسمحوا لأولئك الذين يريدون الدخول القيام بذلك. فلتكونوا حذرين كالثعابين وبسطاء كالحمامات»[1].

وقال: «إن كان أعمى يقود أعمى يسقط كلاهما في حفرة»[2].

كانت كلمات «إيوسوس» تترك الجميع في حيرة، وكانوا يسألون عما تعنيه.

أصابت جملة من الكتاب «سار» بالدهشة وتكلمت مع القاضي. قال القاضي: «أعرف أن الرب واحد وخالق، وأعرف أن القدماء كانوا يقرأون كلماته في السماء. إن (إيوسوس) يقول الحق، وقد بلغت كلمته هذه الجبال بفضل رجل كان عبداً ولم يعد الآن كذلك، وكان قد ولده أناس مستضعفون ولكنه ليس مستضعفاً، تعلم القراءة والكتابة بلغة الرومان وتعلم هنا في شهر واحد لغة القدماء. إن كلمة (إيوسوس) لَحق يا زوجتي ولها قوة البرق والبحر في العاصفة».

دعت «سار» فتاة من القرية اسمها «ڤارا»، وسألتها إن كانت قد تعلمت لغة الرومان وإن كانت تعرف القراءة والكتابة فأجابت « «ڤارا» بنعم، فقالت «سار»: «سأقص عليك الآن حكاية... قصة بلغة القدماء وسيكون عليك ترجمتها إلى لغة الرومان، وعليك أن تتذكريها، كلمة كلمة، باللغتين، أيمكنك فعل هذا؟»، أجابت «ڤارا» بنعم، ثم أضافت «سار»: «سيكون عليك أن تَقُصّي هذه الحكاية بعد ثلاثين عاما لرجل أو لامرأة سيكون له أو لها عمرك نفسه الآن، وإذا رأيت أن خلال السنوات الثلاثين القادمة قد حدثت أشياء ينبغي روايتها، فلتضيفيها بإيجاز وباختصار، فهل يمكنك وهل ترغبين في فعل هذا؟»، فأجابت «ڤارا» بنعم. قالت «سار»: «فلتُقسمي على هذا! ولتُقسمي بأنك سوف تطلبين مِمَن ستقصين عليه الحكاية أن يؤدي القسم

(1) إنجيل توماس أية 39.

(2) إنجيل متى إصحاح 15 آية 14.

نفسه!». أقسمت «ڤارا»، فقالت لها «سار»: «الآن صرتِ حارسة للزمن»، وقَصَّتْ لها الحكاية.

لم تكن «ڤارا» تعرف ما الجملة التي جعلت «سار» تسأل القاضي ثم جعلتها تبتدع حارساً للزمن. ظنَّت أنه ربما تكون هذه الجملة التي قال فيها «إيوسوس»: «كان إنسان، رب بيت، غرس كرماً وأحاطه بسياج، وحفر فيه معصرة، و بنى برجاً، و سلمه إلى كرامين، وسافر. ولمّا قرب وقت الأثمار أرسل عبيده الى الكرامين ليأخذ أثماره. فأخذ الكرامون عبيده وجلدوا بعضا وقتلوا بعضاً ورجموا بعضاً. ثم أرسل أيضاً عبيداً آخرين أكثر من الأولين ففعلوا بهم كذلك. فأخيراً أرسل إليهم ابنه قائلاً يهابون ابني. وأما الكرامون فلمّا رأوا الابن قالوا فيما بينهم هذا هو الوارث هلموا نقتله ونأخذ ميراثه. فأخذوه وأخرجوه خارج الكرم وقتلوه!»[1].

لا يعرف أحد السبب الذي دفع «ڤارا» للتفكير في تلك الجملة وليس في غيرها، فلم تكن «ڤارا» تعلم من كان مكلفاً من قبل بالاستماع إلى ذكرى القدماء وتعلمها والإضافة إليها وحفظها.

رحل الرجل، وكان يسير من قرية إلى أخرى ويُعلِّم ويقرأ الكتاب.

بعد أن استمعوا لحديثه قام ثلاثمائة شاب من «لو» بتحرير أنفسهم من ظلم الرومان، ولاذوا بالفرار فوق الجبال تاركين في قرى الإمبراطورية العجائز والجبناء الذين لم يكونوا يستطيعون أو يرغبون في الهرب.

---

(1) إنجيل متى إصحاح 21 الآيات 33–39.

قال «إيوسوس»: «من لن يكره أباه وأمه فلن يستطيع أن يصير لي تلميذاً»[1].

إن الرجل الذي علّمنا القراء والكتابة وهدانا إلى «إيوسوس» ليس له اسم، وكان خادماً لـ«تورشيدي» وتلميذاً لـ«تيرسيو»، وكان القاضي قد سأله: «ما اسمك؟»، فقال: «لا أتذكره، فقد كنت طفلاً، ولم يكن أحد يدعوني باسم قبل أن أهرب».

كان أهل القرى يسألون: «وبأي اسم ندعوك؟»، فكان يجيب: «إنسان».

إنها قصة رجل اجتاز البحر، وترك أثراً في وجدان المسيحيين. لم يحتمل أحد ما في روما عدم وجود اسم له فدعاه «جالِب النور»، وفي لغة الرومان كان يُقال له «لوتشيفيرو»، وفي ما بعد فوق الجبال دعوناه نحن أيضاً «لوتشيفيرو». كان اسماً لائقاً عليه، فقد كان له وجه متفتح ومبتسم ومنير كالتأمل. مات «لوتشيفيرو» عجوزاً في قرية «أر» حينما كان جميع السردينيين، ماعدا العجائز منهم والأطفال دون الثماني سنوات، يعرفون القراءة والكتابة باللغة اللاتينية. اكتشفنا حينذاك أنفسنا، وننتمي منذ ذلك الحين إلى كلمة «إيوسوس».

(1) إنجيل توماس أية 55.

-9-

قال «أنطونيو سيتسو»: ألف سنة من الحرب، هكذا كان الرومان لنا، ألف سنة من الحرب. لحسن الحظ لم تكن هناك حرب كل يوم، فقد كانت هناك أيضاً فترات طويلة من الهدوء والسلام.

انتزع «الڤاندال» من الإمبراطورية سواحل «باربارِيا»، وتقدموا نحو «كارالي» فوق عشرين سفينة[1]. طيلة سبعة أيام انتظرت «كارالي» العون الذي لم يصل واستسلمت. حمل الڤاندال فوق السفن الشباب القادر على العمل، واتخذوهم عبيداً، ثم أنزلوا في «كارالي» ثلاثمئة راهب من الإسكندرية بهدف التخلص منهم، فقد كان «ترابيموند»، ملك الڤاندال، يبغضهم وكان قد أمر بإبعادهم إلى أقصى مكان ممكن. لم يرد أن يأمر بقتلهم خوفاً من لعنة الرهبان من أي طائفة كانوا، ولكنه لم يكن ليحتمل أن يراهم حوله حيث كانت تدهمه الكوابيس من فكرة الإنصات إليهم وهم يتكلمون. فقد كان أولئك الرهبان مشاكسين ومتطرفين وقادرين على الصراخ كالنسور وعلى بصق براميل من الضغينة، ناهيك عن أنهم لم يكونوا بارعين في استخدام أيديهم وغير قادرين على الخدمة أو التجارة.

قام أفراد عشيرة «لو» المُستَعْبَدون باتباع أسيادهم تاركين المناطق الريفية المعرضة على الدوام لغزوات السردينيين، ولجأوا إلى المدينة.

---

(1) الڤاندال هم إحدى القبائل الجرمانية الشرقية التي استطاعت الاستيلاء على أجزاء من الإمبراطورية الرومانية واجتياح روما في القرن الخامس الميلادي.

أضحت «كارالي» وكأنها خلية نحل تعج بأصوات تتجادل حول موضوعات تتعلق بالعقيدة، وكان الرهبان منقسمين إلى ثلاثة أحزاب. في أحد الأيام قام الفقيه الأبرز، الراهب «فولغوريو»، بشرح أسباب الخلاف قائلاً هذه الكلمات: «هل «إيوسوس» بشر أو إله، إله أو بشر؟ إن افترضنا الحالة الثالثة، أي أنه إله وبشر، فكم ستكون نسبة اللاهوت ونسبة الناسوت فيه؟ وفي أي هيئة سيكون الإله حاضراً فيه؟ أم أن روح «إيوسوس» فقط هي الإلهية؟ هل كانت إذن الروح الإلهية فقط هي من قامت من الموت وليس كل جسد «إيوسوس»؟ ولكن هذا يتعارض مع النَص لأن جسد «إيوسوس»، وليست روحه الإلهية، هو من قام وخرج من القبر بعد أن حرك بقوته حجر القبر الثقيل. النتيجة إذن، إن الحالة الثالثة، بما تحمله من تعارض واضح مع النص، خاطئة وشيطانية. إن «إيوسوس» إذن إما أن يكون إلهاً أو بشراً». كان أول الأحزاب الثلاثة، المُسمى بحزب الحالة الأولى، يعتقد أن «إيوسوس» الإنسان هو ظهور وتجلٍ جسدي دون ميلاد أو موت بشري للاهوت غير البشري. ثاني الأحزاب كان يؤمن بأن «إيوسوس» كان بشراً وليس إلهاً أو ابن إله، لأن الإله لا يموت ولا يلد ولكنه يَخلق. أما الحزب الثالث فكان يعتقد عن يقين وفي حيرة معاً أن «إيوسوس» كان بشراً وفي الوقت ذاته إلهاً أيضاً. انضم «فولغوريو» لمدة عشرين سنة إلى صفوف الحزب الأول، وعشرين سنة أخرى إلى الحزب الثاني، ولكنه أبغض دوماً مؤيدي الحزب الثالث. كانت قد أُنشئت في «كارالي»مدارس لتعليم البيان المسيحي تتبع الحزب الأول والثاني والثالث، فقام شباب عشيرة «لو» بتكريس أنفسهم لدراسة الفقه، وسدوا جوع المشاكسين السكندريين غير قادرين على عمل شيء سوى التدريس، وكانت النتيجة رائعة. فخلال العقود التالية صار اثنان من «كارالي» من عشيرة «لو» مُطرانين لروما، وحملا اسمَي «إيلارو» و«سيماكو». اضطر الأول منهما، حينما كان شمّاساً شاباً في عهد «لاون الأول» أن يختبئ سبعة أيام بلياليها في سرداب تحت الكنيسة أثناء انعقاد مجمع «إفسس»، وذلك حتى لا يقطعه إرباً مناصرو الرفض المطلق للحالة الثالثة.

في صباح يوم ما، استيقظ سكان «كارالي» ورأوا في البحر ثلاثمئة سفينة حربية إمبراطورية، مما أثار ذعراً شديداً. فنتيجة لغزو للڤاندال ووجود رهبان «فولغوريو» ونقاشاتهم حول طبيعة «إيوسوس»، كان الناس في «كارالي» قد اعتادوا على الحرية وأحبوها، فلاذوا بالفرار مترجلين وعلى ظهور الخيل والحمير والبغال حاملين معهم سلالاً ولفافات وصناديق مملوءة بكل خيرات الله. كان الرجال والنساء يتقدمون بالمئات فوق أحجار الطرق الإمبراطورية، ولجأ المُلّاك الأغنياء إلى قرى الإمبراطورية حيث كانوا يمتلكون هناك أراضي وعبيداً، ودفنوا صناديق معبأة بالكنوز في كل مكان. أما الأحرار الفقراء فقد اجتازوا الحدود ليلاً ووصلوا إلى «أر» حيث كان هناك المئات والمئات من الرجال والنساء والأطفال والماعز والنعاج والدجاج والأبقار والعجول والأرانب والديوك. عند بزوغ الفجر رأتهم القاضية، فمنهم من كان يجلس على المرج وعلى الصخور، ومن كان واقفاً أمام الديار الأولى في «أر». برز من الجموع عجوز ضئيل الجسم ذو ظهرٍ منحنٍ، وسألها: «هل أنتِ (أليني)، قاضية (أر)؟ أجابت القاضية بنعم. «أيتها القاضية، إن الرومان عائدون، وكنا مضطرين إلى الرحيل، فشبابنا يقولون إنهم لا يريدون أن يكونوا عبيداً». سألت القاضية: «كم عدد الرومان؟»، فأجاب: «إنه أسطول». سألت: «هل هبطوا من السفن؟»، فأجاب «لعل نصف خيولهم قد هبطت بالفعل إلى المدينة، وبدءاً من الغد سوف يبدأ المحاربون في النزول من السفن».

رمقت القاضية وجوه أولئك الرجال والنساء والأطفال والبهائم، ثم قالت: «فلتواصلوا المسير نحو الجبال، سوف تجدون في القرى ملاذاً لكم، فلن يستطيع أحد أن ينزع منكم الحرية هناك». اتخذ الموكب الطويل للنازحين طريقه نحو الجبال. قالت «أليني»: «سوف يرحل (إيتسو) من (أر) إلى (سي) حاملاً هذه الرسالة: (سيصل رجال يبحثون عن ملجأ خوفاً من الرومان، فلتتلقوهم وكأنهم إخوة لكم. إن «أر» قد صمدت أمام الرومان، فلترسل كل قرية رسلاً إلى القرى المجاورة لترديد الكلمات نفسها)».

يقولون إن «إيتسور» كان أكثر الفرسان براعة وكان فرسه هو الأسرع، حتى أنهم بعد أن أنذروا أهل «سي» تمكنوا من العودة سريعاً والاستماع لبقة حديث القاضية التي كانت تقول حينها: «سُنشيد سوراً حول (أر)».

في «كارالي» وجد الأساقفة والمحاربون المرتزقة التابعون للقائد «بوبليوس مامالوتوس»، الذين كانوا قد هبطوا من السفن الإمبراطورية، المئات والمئات من رجال ونساء ينتمون إلى سلالة مجهولة نتاج تزاوج متكرر بين كل شعوب البحر الذي يحيط بالمدينة: عاهرات ولصوص وتجار ومرابون وأصحاب حانات وجزارون وصيادون كانوا يعيشون في أكواخ يقل ارتفاعها عن طول قامة رجل ومكتظة بالمئات حول التلال التي كان الرومان قد بنوا فوقها ڤيلات من الرخام والطين. كان يقطن الحي الروماني الرهبان والجنود القليلون الذين مكثوا في المستنقعات في مأمنٍ من هجمات الڤاندال ثم عادوا إلى المدينة بعد حلول السلام وعلى وجوههم تبدو الغطرسة والجوع. كان الجدل حول طبيعة «إيوسوس» كثيراً ما ينتهي باللجوء إلى استخدام الأسلحة، وكانت بقع من الدم الجاف تلطخ الطرق الرومانية.

ضطر أساقفة الحملة الإمبراطورية لأن يُخضِعوا الرهبان في الوقت الذي كان المرتزقة، الراضون عن إرجاء العملية العسكرية، ينتصرون في مسابقات لألعاب النرد وللحصول على النساء في الأحياء السيئة السمعة، وكانوا قد أخذوا في التأقلم على المدينة، وتعلموا أن يتعرفوا إلى أعراض الداء الأسود.

كان الأساقفة والرهبان يتجادلون في أمور اللاهوت في قاعة يغطي أرضيتها البلاط، ولها قبة وحوائط مغطاة بالفسيفساء التي تُصور قباباً بمختلف أنواعها، في ڤيلا لأحد الرومان من عهد «شيشرون» كانت قد انتقلت ملكيتها إلى «فولغوريو»[1]. قام رهط

(1) أحد أهم أعلام الأدب والخطابة في العصر الروماني (106 – 43 ق.م).

الرهبان في «كارالي» بالاستغراق في القيل والقال، وبالصراخ وبالوعيد وبالبصق وبالأكل وبالشرب وبالتقيؤ طيلة تسعين يوماً. في أحيان كثيرة لم يكن الأساقفة الإمبراطوريون يفهمون مغزى أقاويل الرهبان. جاء نبأ بأن قرية للبرابرة كانت تُشيِّد أسواراً حولها. صرح الأساقفة بأن رهبان «كارالي» مهرطقون كافرون وأبناء للشيطان (سواء أكانوا من تابعي الحالة الأولى، أو الثانية أو الثالثة) وأمروا بقيد وثاقهم وقطع ألسنتهم، بدءاً من «فولغوريو» نفسه، ثم باعوهم بضاعة إلى تاجر رقيق من «ماسيليا»، الذي كان سعيداً بشرائهم لأنه لم يكن يعرفهم ولم يكن سمعهم من قبل يثرثرون. قام الرهبان مقطوعي الألسن في أعلى البحر بقتل التاجر، ثم ألقوا بأنفسهم من السفينة ليبلغوا شواطئ «بارباريا» سباحة.

بعث الأساقفة فرقاً للاستطلاع وعلموا أن قرية للسردينيين على الطريق الغربي المتجه للشمال محاطة بأسوار يبلغ ارتفاعها قامة أربعة رجال ومبنية من الأحجار والطين وتدعمها أعمدة خشبية مدببة.

حضر أحد الأساقفة يصحبه ثلاثة آلاف مسلح أمام الأسوار، وتقدم نحو الباب الصغير الوحيد المفتوح في الأسوار رافعاً الصليب إلى الأعلى. قبل عشر خطوات من عتبة الباب صاح الأسقف: «إني أتيت باسم «إيوسوس»، وأرغب في التحدث مع أهل المدينة»، ثم ابتعد وعاد إلى صفوف الجنود. خرجت القاضية ووصلت بالقرب من الأسقف، فسألها رجل الكنيسة: «من أنت؟». أجابت القاضية: «إنني أليني» فسألها الأسقف: «لماذا أنت بمفردك؟». أجابت القاضية: «إن راشدي القرية أرسلوني ليعرفوا ماذا تريدون؟».

سأل الأسقف: «ما طبيعة (إيوسوس)».

أجابت القاضية: «ماذا تعني بسؤالك؟».

«أإله هو أم بشر؟».

«حسب القليل الذي أعرفه، كان إيوسوس بشراً وابناً للرب. لعل أهل المدينة التي خلفنا يؤمنون بشيء آخر، فسأخبرهم بسؤالك. ولكن، هل أتيت مع آلاف المسلحين

لتسألنا عن «إيوسوس»؟.

همس أحد المساعدين في أذن الأسقف: «إنها بربرية... إنها تتكلم اللاتينية بطلاقة ولكنها بربرية».

سأل الأسقف: «هل تتعبدون للأحجار؟».

أجابت القاضية: «ماذا يعني سؤالك؟».

«هل أنت مسيحية؟».

«نعم أنا مسيحية».

«هل (إيوسوس) إله أو بشر أو هو إله وبشر معاً؟».

«أعرف القليل عن (إيوسوس)، ألم يقل في المحاكمة أنه ابن الرب؟».

«إنها هرطقة! إنك تنتمين إلى مؤيدي (مقاريوس) كريهي الرائحة. متى قابلت (مقاريوس)؟».

«من (مقاريوس)؟».

«ألا تعرفين من (مقاريوس)؟ كيف أصبحتِ مسيحية؟».

«إن (لوتشيفرو) هو من جعل أهل (أر) يعتنقون المسيحية».

قال الأسقف: «آه... إني أقرأ روحك وأرى فيها يداً شيطانية، لقد بعت روحك للشيطان! فللتراجعي يا تابعة (مقاريوس).

تراجع الأسقف مسافة متر إلى الخلف، ورفع الصليب بذراعه اليمنى إلى السماء وزعق: «شياطين! إنكم لشياطين...لديكم ثلاثة أيام لتؤمنوا بالمسيح ولتتخلوا عن تلك العقيدة المقاريوسية الفاسدة، العفنة، الشيطانية، الكريهة، الشنيعة، الغبية، العقيمة، الموحِلة الجهنمية، فلتخبري سكان المدينة! أمامكم ثلاثة أيام». تراجع الأسقف متراً للخلف ورفع الصليب بذراعه اليمنى وأعاد قوله: «شياطين! إنكم لشياطين، لديكم ثلاثة أيام لتؤمنوا بالمسيح وتتركوا تلك العقيدة المقاريوسية الفاسدة، العفنة، الشيطانية، الكريهة، الشنيعة، الغبية، العقيمة، الموحِلة، الجهنمية، فلتخبري سكان المدينة! ثلاثة أيام فقط». قفز الأسقف فوق صهوة حصانه وابتعد متجهاً إلى «كارالي» ملوحاً بالصليب بينما يتبعه المسلحون.

منذ بدء تشييد الأسوار كان المئات والمئات من الفرسان قد وفدوا إلى «أرباري»، كما أطلقنا عليها منذ ذاك الحين، واستمر وصولهم بعد اللقاء مع الأسقف. رحل كل الرجال والنساء القادرين على امتطاء الخيل من القرى حاملين معهم مؤناً من الطعام والشراب وبلغوا المدينة المحصنة بالأسوار.

تولى «إيتسور» الحراسة لمدة سبعة أيام وثماني ليال فوق قمة تل «موناستير». عند فجر اليوم الثامن، بزغت الشمس في الأفق ورأى «إيتسور» جنود الإمبراطورية يتقدمون على مهل، منهم المترجلون وآخرون ممتطون الخيل. قبل أن ينتصف النهار كانت «أرباري» قد عَلِمتْ بقدوم العدو، فأخذ ثلاثمئة من القاصرين المسلحين بالأحجار والأقواس والسهام أماكنهم فوق الأسوار، أما نحن والآخرون فابتعدنا في اتجاه الهضبة وينبوع العيد، وترقبنا في صمت بقرب درج «مير».

قطع أربعة آلاف من المرتزقة الممتطين الخيول والمترجلين المسافة بين «كارالي» وأسوار «أرباري» في عشرة أيام، ولتَجنُّب الإبطاء الذي كثيراً ما يضر في الحرب قام القائد «بوبليوس مامالوتوس» بمجرد وصوله بالصياح في اتجاه الأسوار: «أيها البرابرة المقاريسيون، فلتهتدوا ولتفتحوا الأبواب»، فلم يجب أحد. أضاف «مامالوتوس»: «إني أتيت باسم المسيح، أيها المقاريسيون الوثنيون، افتحوا الأبواب»، فلم يجب أحد. أرسل «مامالوتوس» عشرة رجال مسلحين بالمنجنيق إلى الباب الموصد، واقتربوا بالمنجنيق إلى مسافة عشر خطوات من الأسوار فباتوا هدفاً لوابل مميت وقصف مكثف بالسهام وبالأحجار، فلقي ثمانية رومان مصرعهم ونجح اثنان في النجاة بنفسيهما.

اجتمع «بوبليوس مامالوتوس» بالضباط، وحيث إنه من الخطأ إرجاء اتخاذ القرارات أثناء الحرب، فقد قرر القيام بتحرك سريع: الحصار. قام المحاصرون بنصب خيامهم الإمبراطورية على مسافة ثلاثمئة خطوة من الأسوار أمام باب «أرباري»، وبعث «بوبليوس

مامالوتوس» فارساً يحمل رسالة للمدينة. قُتِل الفارس بالسهام قبل أن يتمكن من إيصال رسالته وظل دمه ينزف تحت الشمس مع الثمانية الآخرين. بعث «مامالوتوس» برسول ثانٍ راح يتقدم مترجلاً رافعاً يديه إلى الأعلى حتى بَلَّغ رسالته قائلاً: «إنكم محاصرون... نمنحكم ثلاثة أيام للاستسلام»، فلم يجب أحد وابتعد الرسول دون أذى. كان يرافق الجيش أصحاب حانات وعاهرات، وبمجرد حلول المساء كانوا يعملون على إدخال البهجة على الجنود المنهكين في الحرب. كانت أمسيات المحاصرين تبدأ قبل الغروب وتتواصل حتى ارتفاع القمر في السماء، ثم يتساقطون على الأرض مخمورين.

كان الفجر على وشك البزوغ عندما أيقظهم ضجيج الأرض وهي ترتجف تحت ركض المئات والمئات من الخيول. كان هناك عُشر الجنود الإمبراطوريين فقط وقد أصابهم الذهول فوق ظهور الخيل حين اكتسح المخيم حشد من الرجال والنساء صغيري الأجسام ذوي لحى طويلة يكتسون الجلود ويمتطون خيولاً دون سرج ويقذفونهم بكل أنواع الأسلحة: الأحجار والرماح والسهام بدقة عالية في التصويب، ثم ابتعدوا. انهمك «بوبليوس مامالوتوس»، والذي كان قد أُصيب في أنفه بحصاة ثقيلة، بِعَدّ الموتى، فكانوا ثلاثة عشر وكان الجرحى بالمئات. أصدر أوامره بالانسحاب فلم يطارده أحد.

قرر الأساقفة والمرتزقة الاستماع إلى اقتراح «بوبليوس مامالوتوس» بغزو الجزيرة عبر اجتياز الجبال الشرقية، حيث كانوا سيتمكنون بتلك الطريقة من القضاء على قرى البرابرة التي كانت بمثابة طرق خلفية للمدينة المحصنة، وبعد هذا فقط كان يمكن للحصار أن يصبح ذا أثر. قرر القائد «بوبليوس مامالوتوس» أن يبقى في «كارالي» حاكماً لها، فتقدم أسقف وألفان من الرجال نحو أول التلال الواقعة جهة «أُوللا».

كانت القاضية قد وضعت جواسيس ومراقبي استطلاع حول «كارالي».

حينما علمت بالطريق التي سلكها الرومان أمرت بإخلاء القرى الشرقية وأن ينسحب السكان إلى أعلى جبال «مير» وأن يتأهبوا لنصب الفخاخ في قلب الجزيرة.

انتقت سبعين فارساً ونشرتهم فوق الجبال وفي الأودية وعلى التلال حتى يراقبوا العدو ويبلّغوا الأنباء، ثم تركت «أرباري» متجهة للحرب بمصاحبة ثلاثمئة شاب شجاع.

عَلِمت بما حدث في أراضي الإمبراطورية التي اجتازها الجنود الإمبراطوريون: فقد أعلنوا أن العبيد وملاك الأراضي، الذين أرادوا البقاء لزراعة الأرض ولحراسة ثرواتهم، برابرة مقاريسيون، ثم سرقوهم وأعدموهم. واصل الجيش تقدمه على مهل بسبب أعمال الاغتصاب والسلب التي كان يقترفها الجنود، وبمجرد اجتيازهم الحدود الإمبراطورية لم يجدوا أحداً على الإطلاق فتسلى المرتزقة بتدمير بيوت القرى السردينية المهجورة من سكانها وبقضاء حاجتهم فوق أطلالها، ولكن في كل ليلة كان يختفي أحد الجنود.

عند وصولهم إلى «أُونون» وجدوها خاوية مهجورة، فأرسل الإمبراطوريون من يستطلع لهم الأمر في الشمال وعلموا أن قرى «الإيتروسكان» قد تم إخلاؤها أيضاً، فقد لجأ السكان إلى «كورسيكا».

عاد الجيش الإمبراطوري إلى «كارالي» بأسرع مما كان متوقعاً، فقد أخاف الاختفاء المتواصل للجنود الأسقف والمرتزقة، لاسيما بعد أن عثروا في الطرق الجبلية على آذان وأعضاء ذكرية مبتورة، فراحوا يتحدثون عن عمليات تعذيب بربرية بشعة يتعرض لها السجناء.

قرر الأساقفة والمرتزقة جراء ذلك التفاوض مع البرابرة، فحضر الأسقف الأصغر سناً المدعو «أنتيوكو» بصحبة مئة فارس غير مسلح أمام باب «أرباري» الذي وجدوه مفتوحاً.

قال الأسقف: «إن هذه الأراضي ملك للإمبراطورية».

أجابت القاضية: «إن هذه الأرض التي تقف عليها قدماك تنتمي لقومنا من قبل أن تُولَد (روما)، وستظل لنا حتى بعد أن تفنى (روما)».

قال «أنتيوكو»: «لقد ماتت روما».

«وسوف تموت (روما) الجديدة في كل الأحوال».

«هل أنت مسيحية؟».

«نعم إنني مسيحية».

«إذن أطيعي الأسقف!».

«أنت لست الأسقف الذي أتبعه».

قال «أنتيوكو»: «ليس لديكم أسقف...ليست لديكم مدينة. إن هذه قرية فقط، حتى ولو كانت محصنة فليس لديكم ملك أو أمير وأنتم تنتمون للإمبراطور، إنكم برابرة تعيشون فوق أراضي الإمبراطور».

أجابت «أليني»: «إن أراضي الإمبراطورية فوق هذه الجزيرة تقع في مكان بعيد عن هذه المدينة، إن هذه المدينة والجبال والمستنقعات الشمالية والهضاب تنتمي إلينا من قبل أن يُولَد الإمبراطور، وسوف تبقى لنا حين سيموت آخر إمبراطور. إن تصرفت مثل ضيف شرير فيمكنني أن أقتلك».

سأل «أنتيوكو»: «ماذا سيحدث لقومك عندما تموتين؟».

«سيكون لديهم قاضٍ آخر».

«أهو أبنك؟».

«لا».

«مَن إذن؟»

«سوف أقترح اسماً على مجلس الراشدين، وسيكون على أكثر من خمسين شخصاً اختياره ليصبح قاضياً».

قال «أنتيوكو»: «لو تقولين إنك اعتنقت المسيحية فيمكنني أن أقرر البقاء في (كارالي)،

فليس لدي أي رغبة في العودة إلى القسطنطينية ويمكنني أن أعيش معكم في سلام».

أجابت «أليني»: «لن يكون على رجال الإمبراطورية وضع أقدامهم فوق أراضي القضاة!».

«اتفقنا!».

«إذن ستكون أنت الأسقف الذي أتبعه».

بعد عودته إلى «كارالي»، أبلغ الأسقف «أنتيوكو» الإمبراطورية بأن البرابرة المقاريسيين قد اعتنقوا المسيحية وطلب إمداده بالرجال لتشييد دفاعات ضد غزوات البرابرة، فبرغم اعتناقهم للمسيحية لم يكفوا عن كونهم برابرة.

في عصر الإمبراطور «جستنيان» شُيدت قلاع فوق الممرات الحدودية الفاصلة بين أراضي الإمبراطورية والأراضي التابعة للقضاة، وذلك في محاولة لمواجهة أعمال السلب، وقام الإمبراطور «قسطنطين» وخلفاؤه ببناء تحصينات أخرى عند سفوح الجبال.

شيدت القاضية «أليني» في قلب مدينة «أرباري» قصراً من الحجر، بسيطاً ومتواضعاً، بداخله كانت توجد قاعة واحدة بحجم كل البناء. كانت به ثمانية أبواب مفتوحة على الدوام ليلاً ونهاراً حيث كان يمكن للإنسان والحيوان الدخول، وفي مركز القاعة المفتوحة على العالم كانت توجد عين «أرباري» محاطة بحديقة ذات عشب وزهور وموحلة كأي مكان يجري به الماء، وكانت الأرضية مغطاة بالأحجار المربعة المصقولة ماعدا الجزء المحيط بالعين مباشرة. كانت النساء يحملن الأباريق ويصعدن ويهبطن كل يوم الدرجات الخمس الموصلة للمياه بين العشب الأخضر والأزرق وزهور الأقحوان البيضاء والصفراء والبرتقالية. قررت القاضية أن ينعقد مجلس الراشدين في القصر بالقرب من العين والزهور وليس في جوف الجبل.

اجتمع المجلس في القصر وسمعوا «أليني» تقترح «سولانا» قاضية جديدة.

كانت «سولانا» قد دعمت أسوار «أرباري» بقضبان حطب قاسية كالحجر، وقادت مئة غزوة ناجحة، وصلت في إحداها حتى أبواب «كارالي». كان الرجال والنساء يلتقون في قصر «أرباري» لاحتساء الشراب ولملء الأباريق وللتحدث وللمزاح وللتجارة.

ماتت «أليني» بعد عشرين عاماً من تنحيها عن قيادة القضاء في «أرباري»، وقررت «سولانا» دفنها بجوار الأسلاف القدماء في جبل «مير». هبت المدينة بأكملها والرجال والنساء من كل القرى الحرة لمصاحبة موكب الجثمان منشدين الأغاني وراقصين وضاحكين كما كانت «أليني» قد تمنت. التقى رجال ونساء من قرى مختلفة للمرة الأولى في جنازة القاضية «أليني»، تزاوجوا وأقاموا قرى جديدة متاخمة لحدود الإمبراطورية، وصاروا قاطعي طريق ولصوص محاصيل ورجالاً صالحين لشن الغزوات.

قام أرباب السفن باستجلاب المئات والمئات من العبيد الموريتانيين وبعثوا بهم إلى المناجم في منطقة «سولشيس»، حيث لقي الكثيرون منهم حتفهم تحت سياط الرومان.

شيد الإمبراطوريون مدينة محصنة بالأسوار في وسط أراضي الموريتانيين كان يسكنها في البداية أسقف وأصحاب المناجم اليونانيون وبعض النبيلات اليونانيات الراغبات في معاشرة الرجال الموريتانيين، واللائي كن خاضعات وأسيرات لرذائلهن المخجلة. قُتِل موريتانيون كثيرون لمنعهم من إفشاء الأسرار الشنيعة للنبيلات، أو حتى بغرض التسلية فقط. لُوحِظ أن المدينة كانت محصنة بشكل عجيب ضد الداء الأسود مما جعل الإمبراطوريين يتدفقون عليها، بينما مكث في «كارالي» كل من كان مضطراً فقط لذلك وكان أكثرهم من الجنود والعبيد.

-10-

بعد مئتيّ سنة من موت «لوتشيفيرو» جاء إلى «أرباري» أحد نسل «لو» وطلب لقاء حارس الزمن. قال الرجل إن اسمه «لوتشيفرو» وإنه أسقف «كارالي»، وروى أنه قد صار أسقفاً في شبابه في عصر الإمبراطور «جوليان» المدعو «المرتد»، ثم نُفي لثلاثين عاماً في صحراوات «طيبة» و«الأناضول» بتهمة الهرطقة، ثم في النهاية تم استدعائه إلى «كارالي» ليصير أسقف الأساقفة في الجزيرة. ابتسم الأسقف «لوتشيفيرو» وعلق قائلاً: «حينما كنت أعيش في الصحراء كنت أخشى أن يُكلِّف الإمبراطور (قسطنطين) قاتلاً مأجوراً بقتلي، واليوم ها أنا أقود قوماً. علينا أن نعيش حياتنا دون خوف، فالمفاجآت السعيدة لن تفنى أبداً». طلب «لوتشيفيرو» الثاني كتاب «لوتشيفيرو» الأول، فمُنح إياه.

كانت الألفية الرومانية توشك على الانطواء، واتسع نطاق غزوات البرابرة ليقطعوا الطرق بين الجزيرة والإمبراطورية. أعلن «لوتشيفرو» نفسه حاكماً على أرض السردينيين بالنيابة عن «إيوسوس» والكنيسة المسيحية.

كان أول قرار له بصفته حاكماً هو استدعاء «تاورو». كان «تاورو» رجلاً سعيد الحظ، وموهوباً من نسل «لو»، وابناً لـ«روتيليو» الذي كان عبداً لـ«إيميليانو»، الرجل الحر الذي كان قد وُلِد في إقليم «بادانيا»، وبعد حروب كثيرة قرر أن ينسحب ويذهب إلى ريف «كارالي» لأن الحمى السوداء، التي كان يخشاها الجميع، كانت أفضل حالاً من الرومان الذين تحولوا في نهاية فترات انحطاطهم إلى شرذمة من الفاشلين الذين أفسدتهم الرذائل والانحلال وكانوا، على أقصى تقدير، قادرين فقط على السخرية

وليس على الحكم والدفاع عن إمبراطورية. كان «روتيليو» قد تمكن من أن يبرز بين العبيد ليصبح مديراً لأملاك سيده، فاعتقه «إيميليانو». إن «تاورو» ابن «روتيليو»، الذي وُلِد عبداً بات حراً وله من العمر سبع سنوات فقط، كان أثناء عبوديته قد ذاق فقط حلاوة الحياة ونعومتها وذلك بفضل ذكاء والده، ومنذ اللحظة التي لم يعد فيها عبداً صار يتذوق بشكل أفضل تلك الحلاوة. مات «روتيليو» عندما كان «تاورو» قد صار رجلاً، وبعد سنتين مات أيضاً «إيميليانو». كان «تاورو» قد حضر إلى «كارالي» مؤكداً أنه وريث «إيميليانو» وبحوزته وصية موقعة من «إيميليانو» لإثبات ما كان يدعيه. كانت الوصية مزيفة، وكان «تاورو» قد كتبها بحنكة حتى أن أحداً لم يعترض على صحتها. عندما استدعاه «لوتشيفيرو» كان «تاورو» غنياً ورجلاً ناضجاً، كان كل منهما يعرف الآخر، كانا صديقين يحاول كل منهما استغلال انهيار الإمبراطورية لمصالحه الخاصة. سأل «لوتشيفيرو» «تاورو»: «ما الشيء الأسوأ لقومنا؟». أجاب «تاورو»: «إنها حمى الداء الأسود، إن سكان الجبال فقط هم من لا يعانونها، فهي مدمرة في السهول، إنها لا تقتلنا ولكنها تستنزف قوانا حيث إن نصف السهل غير مزروع جراءها، ولا نستطيع استغلال السنوات الممطرة كما ينبغي بسبب كثرة المرضى. مع تعاقب الأجيال كانت دماؤنا قد أخذت من السم ما يكفي لتحصيننا من الموت، ولكن الأمراض الأخرى والمجاعات كانت تدهمنا على الدوام وتفتك بنا وذلك لأننا ضعفاء ومرضى وغير قادرين على استغلال الأرض جيداً لتخزين مؤن الطعام». سأل «لوتشيفيرو» «ماذا عسانا أن نفعل؟» أجاب «تاورو»: «فلنمش في العالم لنبحث عن حمى مثيلة لندرك أوجه الشبه بين تلك وهذه الأماكن، فإن العامل المشترك سيكون هو سبب المرض». سأل «لوتشيفيرو»: «هل توافق على أن تقوم بهذا البحث؟». أجاب «تاورو»: «نعم».

لمدة عشرين سنة سار «تاورو» في أراضي «بارباريا» وفي الشرق. منذ السنة العاشرة كان يسافر صيفاً وشتاء متدثراً بمعطف جلدي كان قد حاكه بنفسه، وكان يغطي رقبته

ومؤخرة رأسه. كان يعتقد أن ذلك المعطف يحميه من الداء الأسود، وكلما تقدم في البحث كان يقل انفصاله عن المعطف، وأثناء الليل كان يغطي وجهه بقناع مصنوع من جلد الغنم. عاد «تاورو» إلى الجزيرة، وأخذ يسافر من قرية لأخرى عارضاً سبب الداء: إنه البعوض الذي يخرج من المستنقعات وبرك الماء مع الغروب. عاد «تاورو» إلى أرضه ليس ببعيد عن «أرباري» وكتب كتابا يشرح فيه كل شيء مفيد تعلمه خلال عشرين سنة من الارتحال، وكل ما كان له صلة بالداء الأسود الذي سيحمل فيما بعد اسم الملاريا وظل ذلك الكتاب محفوظاً إلى يومنا هذا.

شيدنا بيوتاً بلا نوافذ، وحكنا ستائر تتدلى على الأبواب ليلاً لمنع دخول البعوض العدو. كنا نرتدي صيفاً وشتاء ثياباً من الجلد، وبالليل كنا نوقد ناراً بعيدان الحطب العطرية في وسط البيت، وكنا نخفي وجوهنا وراء أحجبة سميكة. كان الكثيرون يقومون حتى بتربية الأبراص ويملأون بها البيوت.

استدعى «لوتشيفيرو» عند لحظة الموت «تاورو»، وأراه لفافة رَق وقال له: «إن هذا الكتاب يحتوي على كلمات «إيوسوس»، وينتمي لـ«لوتشيفيرو» الأول، القديس. إنه من سمع «إيوسوس» وكتب عنه كلمات هذا الكتاب بالآرامية، اللغة التي تعلمتها خلال سنوات منفاي. تَرْجَّم هذا الكتاب إلى اللاتينية «إيسين»، راهب من صحراء طيبة المصرية حيث عشت أنا شخصيا لعشرين سنة من حياتي، ولقد مات «إيسين» أثناء وجودي هناك ولكن شهرته باعتباره قديساً ومترجماً لم تمت. لا أدرك كيف تمكن «لوتشيفرو»، الذي لم يغادر الجزيرة أبدا، من أن يحصل على هذا الكتاب. ففي الصحارى التي يسكنها الرهبان يُعتبر هذا الكتاب سراً يجب إخفاؤه عن البلهاء والأشرار، وعليك أن ترعاه وأن تتركه في يد أمينة قبل أن تموت!»

مات «لوتشيفيرو»، وصاحبت «كارالي» كلها الجثمان عبر الطريق التي تربط بين قمة التل الأعلى والكنيسة حيث دُفِن، وقد أُطلِق اسم «لوتشيفيرو» عليه لتصبح أول

طريق تحمل اسما في «كارالي» وفي الجزيرة كلها، ولايزال الطريق محتفظاً إلى اليوم بهذا الاسم.

أما «تاورو»، فما أن شعر برائحة الموت تدنو منه حتى غادر الأرض الذي أمضى فيها ثلاثين عاماً من حياته بعد عودته. امتطى جواده في صمت متجهاً نحو الشمال، وبلغ «أرباري» وسأل عن حارس الزمن، فوافق الحارس على تسلم الكتاب. عاد «تاورو» إلى الحقول ومات بعد مرور ثلاثة أيام بينما كان يشرح لأبنائه الكثيرين كيفية تحسين توزيع المياه حول أشجار البرتقال باستخدام عيدان البوص المُقَسَّمة إلى نصفين. كان فخوراً بهذه الأشجار التي تُثمر برتقالاً حلواً من سلالة جديدة ابتدعها هو من شجيرات شرقية.

إن «تاورو» هو أول كاتب سرديني حُفِظت صفحات كتاباته، ومن المؤلم أنه استعمل الحيلة ليس فقط في مساعدة الناس، ولكن في الاستيلاء أيضاً بطريقة غير مشروعة على ممتلكات غيره. ربما يمثل عذراً له أنه لم يكن ثمة ورثة شرعيون، حسب ما كان معروفاً آنذاك، وأن «روتيليو»، أباه، كان قد ساهم بشكل كبير في تكوين تلك الثروة وزيادتها.

توقف «أنطونيو سيتسو» عن الكلام، وكان يبدو أن لديه شكا ما. سألني: «هل تعتقد أنه يمكن تبرئة ساحة (تاورو)؟»، أحنيت رأسي مشيراً بالموافقة. رأيتُ زوجته وهي تبتسم وتشير إلى بيديها أن أنتظر. انتصبتْ واقفة، وسارت بسرعة حتى بلغت حوضاً في نهاية الغرفة، أخذت منه أربعة عناقيد من العنب، ووضعتها فوق صينية من الحديد الأسود. اتجهت نحو خزانة بيضاء وأخرجت منها شمعة، أوقدتها، ثم وضعتها في منتصف الصينية. أخرجتْ من الخزانة خبزاً مجلوباً من «سيدوري» وأعطته إلى «أنطونيو سيتسو» الذي فتح المطواة بهدوء وقَطَّعه لشرائح كثيرة بينما كانت الزوجة تضع الصينية قرب أرجلنا. أكلنا خبزاً وعنباً وكان «أنطونيو» سعيداً. لم يكن أحد يتكلم، وكنا ننظر لبعضنا بعضاً ونبتسم. كان وجه «أنطونيو سيتسو» مستديراً وله ابتسامة إنسان بلا خبث. كان ذلك العنب

المُبَرَّد ساعات في المياه الجارية للحوض المتصل ببئر عن طريق نظام معقد اخترعه «أنطونيو سيتسو» نفسه، هو أطيب عنب تذوقته طوال حياتي.

قال «أنطونيو سيتسو» كانت «كارالي» و«سولشيس» وجزء من السهل فقط تنتمي إلى الرومان الشرقيين. كان يسكن «كارالي» المئات من الجنود اليونانيين يقودهم بضعة ضباط بهم حنين لا ينقطع لجحر الثعابين الذي بعث بهم إلى الغرب بين أقوام يكنون لهم العداء. وكانت «كارالي» مقصداً في بعض الأحيان لجندي بلغاري أو مقدوني عشيق لإحدى الإمبراطورات وكان هذا الأمر يجبره على الابتعاد إلى أبعد مكان ممكن للإفلات من الموت. كانت البيوت الرومانية آخذة في الانهيار التام، أما القادة فكانوا يعاقرون الخمر حتى الثمالة ويتركون الحكم في أيدي العاهرات. صار السهل جدباً، وكان العبيد يفرون، واليونانيون يلقون حتفهم جراء الداء الأسود. كان القادة يأملون في الهرب بمجرد أن تسنح لهم الفرصة، أو كانوا ينسون أملهم عبر التلذذ بالشعور بالاضطهاد أو باستعراض قوتهم. في يوم ما وصل أحد القادة فوق الجبال وأختبئ لأنه كان يظن أن الجميع في «كارالي» كانوا يريدون قتله بالسم، فأقترح عليه أهل «سي» بأن يصطحبوه إلى المدينة فبكى القائد كالطفل لثلاثة أيام بلياليها وفي فجر اليوم الرابع قطع أوردة معصمه. أمر قائد آخر بشنق سبعين من سكان «كارالي» وثلاثمئة عاهرة بابلية لأن أحداً ما كان قد قتل قطه الأسود المفضل وعلقه على باب بيته. وقعت الأراضي تحت سيطرة أهل «لو» الذين كانوا سعداء منذ البداية لأنهم باتوا أحراراً وملاكاً لأراضٍ ومحاصيل. كانوا يدفعون الضرائب، ثم في وقت لاحق عندما لم يكن لدى اليونانيين القوات الكافية لتهديدهم، صاروا هم من يقومون بجلد جباة الضرائب.

بعد مئة عام من موت «لوتشيفيرو» الثاني ظهر للوجود «لوتشيفيرو» الثالث الذي حضر أمام حارس الزمن في مدينة «أرباري» وطلب منه كتاب «لوتشيفيرو» الأول، فسأله حارس الزمن مهلة ثلاثة أيام للتفكير بالأمر. أمر بتحري الأمر في «كارالي» وعرف أن

«لوتشيفيرو» كان ابنا لجارية حولتها سيدتها، الساحرة والصديقة الحميمة لزوجة القائد، إلى بلهاء. كانت أم «لوتشيفيرو» ترتاد طقوساً سرية، وكانت قد رأت في ابنها إشارة سماوية ما. فمنذ نعومة أظافره كان «لوتشيفيرو» محاطاً بعناية كثير من النبيلات اليونانيات اللائي كن يدعونه بـ«أُوميغا»، وكن قد دفعنه إلى أن يصبح راهباً. كان جزءاً من جاذبية «لوتشيفيرو» يكمن في ضخامة أعضائه.

لم يكن حارس الزمن يعلم معنى كلمة «أوميغا»، وسأل «لوتشيفيرو» عنها، فشرحها «لوتشيفيرو» قائلاً: «أُوميغا!...إنه الحرف الأخير، فأنا أجلب معي نهاية الزمان».

سأل الحارس: «فيمَ يفيدك؟...إنه كتاب صغير جداً لعبء كبير جداً».

«سأحتاج إليه، فلدي أعداء في روما وفي الإسكندرية».

قرر حارس الزمن أن «لوتشيفيرو» لم يكن جديراً بالحصول على الكتاب، ولم يعطه له. طلب «لوتشيفيرو» أن يقرأه ولكن رفض حارس الزمن أن يسمح له بقراءته خوفاً من أن يقوم «لوتشيفيرو» بحرق الكتاب أو إتلافه. نهض «لوتشيفيرو» واقفاً وصاح: «سألعنك يا (غونالي) من (أر) يا حارس الزمن». في اليوم التالي روى «غونالي» من «أر» القصة إلى نهايتها ونقل مهمة حفظ الذكريات والكتاب إلى حارس جديد. نجحت الحيلة، وعاش «غونالي» من «أر» ستين سنة أخرى وتمكن من إنجاز أعمال ذكية، وعاش حارس الزمن أيضاً. فقد كانت اللعنة في الحقيقة موجهة ضد «غونالي» من «أر»، حارس الزمن، وحيث إن «غونالي» لم يعد حارساً، ولم يعد الحارس «غونالي»، لذا فقد ماتت لعنة «لوتشيفيرو» بعد أن باتت بلا هدف. عاد «لوتشيفيرو» إلى «كارالي»، وبدأ يعظ قائلاً إنه قد قرأ إنجيل «لوتشيفيرو» وأعلن نفسه «لوتشيفيرو» الثاني. لم يكن يعلم أنه قد سبقه اثنان كانا يحملان اسم «لوتشيفيرو» وليس واحداً فقط كما كان يظن. كان يؤكد على أنه «أُوميغا»، وأنه يجلب معه نهاية الزمان، ويقول إن «لوتشيفيرو» الأول كان قد كلفه بمهمة اختيار 337 مختارا لإتمام الخلاص. كان يزعم أن مهمة الاختيار كان قد كُلِف

بها كل من يحمل اسم «لوتشيفيرو» منذ زمن «إيسوس» وإلى الأبد، فكل من له اسم «لوتشيفيرو» كان وسيكون مُكلَّفاً بتخليص 337 مختاراً. كان يقول إن هذه كانت سلطاته، وإنه لم يكن باستطاعة أي أسقف في «بارباريا» أو في الشرق، لاسيما في روما، أن يدعو نفسه مسيحياً إن لم يكن قد عَمَّدَه «لوتشيفيرو أُوميغا» مُبَشِّر نهاية الزمان. تجمع كثيرون في «كارالي»، لاسيما النبيلات اليونانيات الفاسقات حول «لوتشيفيرو» وكن يتوسلن إليه بأن يدرجهن في قائمة الـ 337، بينما كان «لوتشيفيرو» دائماً ما يرجئ الاختيار. كان يقود عصابة من الرهبان الذين يرتدون اللون الأبيض، والذين زعقوا مراراً مطالبين بأن يكون لهم قداس خاص بهم. مكث «لوتشيفيرو» ثلاثة أيام بلياليها وحيداً يصلي ثم أعلن عن التناول المقدس «الوتشيفيراني» الذي قَدَّمه وكأنه قد أُوحي إليه به من الرب في رؤية. لقد قام في الحقيقة بإعادة إحياء الطقوس الفينيقية لـ«كارالي» مع إدخال تعديل وحيد فقط: وهو استبدال العشب، الذي كان يوضع في وسط الساحة، بالمئات والمئات من أرغفة الخبز المحشوة بالزبيب والتوابل، إضافة إلى براميل وبراميل من نبيذ «كارالي» الأصفر كالذهب. كانت الطقوس الجنسية المقدسة تنعقد كل سبعة أيام، ولكن النبيلات كن يتوسلن كي تصبح يومية. أُستُدعي «لوتشيفيرو» إلى روما لمناقشة الأساقفة، فذهب، وتباهى بقراءته لإنجيل «لوتشيفيرو» المحفوظ في مدينة «أرباري» لدى حارس الزمن، فقام الأساقفة والرهبان باستجوابه طويلاً، وكان من بينهم «جيرولامو» الذي ترجم التوراة إلى اللاتينية. أنصت «جيرولامو» إلى «لوتشيفيرو»، وكتب كتاباً ضد جماعته مديناً هرطقتهم. قال «جيرولامو»، وربما كان محقاً في قوله، إنه كان متعجباً لأن أحداً ما كان يعتقد بإمكان وجود أفكار بداخل جلد خروف «ماستروكا» (كان «ماستروكا» الاسم اللاتيني الذي كان يُطلق على لباسنا التقليدي المصنوع من جلد الغنم). فحسب رأي «جيرولامو» لقد كنا نحن أغبياء وبرابرة كثيفي الشعر، ولكن علينا ألا ننسى أن عذره في ذلك، أن السرديني الوحيد الذي قابله، إن كان سردينيا حقاً، لم يكن شخصاً يتمتع بذكاء خارق. رجع «لوتشيفيرو» إلى «كارالي» وقرأ كتاب «جيرولامو» «الرد على جماعة «لوتشيفيرو»»، والذي كان بمثابة إعلان زاعق يؤكد أن روما كانت تخشاه،

إنه الـ«أُميجا». كانت النبيلات يهللن لأن بإمكانهن القول إنهن تابعات لـ«لوتشيفيرو» وملعونات من روما. ظل أداء طقس التناول الخاص بـ«لوتشيفيرو» يتم بصورة يومية طوال سبع سنوات. في العام الثامن وصلت من مقر الإمبراطورية سفينة طال انتظارها لأشهر محملة بعبيد نوبيين يعرفون أداء رقصة مقدسة مصحوبة بدق الطبول للتحدث مع إلهة الأصداف اللولبية وزَبَد البحر المزدهر. وجدت النبيلات اليونانيات أن الرقصة النوبية كانت أكثر متعة من طقس التناول «اللوتشيفيراني» اليومي السخيف. تسبب العدد الكبير للنوبيين وخصائص أخرى لهم في إضفاء شحوب على مزايا الـ«أُوميغا» الذي لم يطق الانتظار منسياً لأكثر من ثلاثة أيام عقب وصول السفينة، وراحت شهوته للحم وللسلطة تعذبه، فحاول أن يبتز الساحرة وسيدتها. كان «أوميغا» يعرف أسراراً كثيرة عن الساحرة وعن زوجة القائد وعن القائد نفسه وعن مواطنين آخرين كثيرين في «كارالي»، وهدد بكشفها للإمبراطور في القسطنطينية. تملقته المرأة ملاطفة إياه بيديها ودعته إلى الطاولة وقدمت له كؤوساً تسعاً من نبيذ «كارالي» الممتاز كانت قد وضعت في كل منها تسع جرعات من سم مصري زعاف. عقب الكأس التاسعة تحشرج «لوتشيفيرو» ثلاث دقائق ثم مات، وأُلقي به في البحر بالقرب من «روبي بيانكا».

كان «لوتشيفيرو» الأول جالباً حقيقياً للنور وكان يُفضل أن يناديه الناس باسم «إنسان»، وحاول «لوتشيفيرو» الثاني أن يبذل قصارى جهده في الوقت الذي عاش فيه وفي حدود ذكائه، أما «لوتشيفيرو» الثالث فقد كان مجنوناً فريداً من نوعه وكان من الأفضل ألا يُولَد أبداً.

قال «موير» من «أرباري»: «كم من الأجيال ستتعاقب حتى ينسى أهل (كارالي) أنهم كانوا عبيداً طيلة كل هذا الوقت الطويل؟».

قامت فتاة ذات حسن بديع اسمها «ڤيروتا» من سلالة مجهولة، كانت قد استهلت

حياتها تابعة لقداس «لوتشيفيرو»، باعتزال الناس لتصير ناسكة في أحد الكهوف فوق تلال «موناستير». في غضون فترة وجيزة سرت في الجزيرة شهرة تصفها بالشهوانية والروحانية وبالنبوءة. كان الناس يمتدحون قدراتها الفائقة في كل شيء، من ارتقائها إلى كل ما هو سماوي إلى انحطاطها الدنيوي والشهواني. تدفق عليها رجال أغنياء وفقراء ونساء جائعات كثيرات وشُيد دير نسائي عند سفح تل الناسكة «ڤيروتا» ليصير مقراً لطريقة خاصة في الرهبانية أُطلق عليها «الرهبانية الڤيروتانية» والتي كانت تبيح البغاء وسيلة لاكتساب الرزق. ازدادت الطريقة ثراء بسرعة ونمت وصارت لديها أربعة أديرة كلها داخل أراضي الإمبراطورية. بعث «جورجو مانيو»، أسقف روما، بخطابات حانقة على «ڤيروتا» وحاول أسقف «كارالي»، «جانواريو» بكل الطرق أن يجعلها تتوقف عن أفعالها. نتيجة لعدم جدوى الحديث معها، كلف الأسقف ثلاثة قتلة مأجورين بقتل «ڤيروتا» ليلاً في أحد أزقة «كارالي». كان نظام الرهبنة «الڤيروتاني» ينص على إمكانية استغلال أجساد الراهبات موضحاً التفاصيل الدقيقة كافة الخاصة بذلك وسعر «الصدقة» الخاصة بكل جزء من أجسادهن. قام الأسقف بتصحيح قواعد النظام لاغياً البغاء منه، وقام ببيع الراهبات المخالفات اللائي لم يتخلين عن عادات الناسكة إلى القوط الغربيين[1]، وخلال مئة عام كان النظام «الڤيروتاني» قد تم تنظيفه، ثم تضائل فاندثر.

عقب أربعين سنة ظهر أسقف من القسطنطينية في «أرباري» وطلب من حارس الزمن تسليمه إنجيل «لوتشيفيرو». أكد الحارس المذعور «أتزين» بأن الكتاب لم يكن ببيته وابتعد قائلاً: «سأذهب لأحضره وأعود». مشى لبيت القاضي «غونالي»، قال له القاضي: «لا تعطه الكتاب!»، فأجاب «أتزين»: «إن مئتين من الرومان المسلحين يصحبون الأسقف، وإن لم أعطه الكتاب فسوف يقومون بتقطيعي إرباً». سار القاضي إلى بيت «أتزين»، وأخذ الكتاب وابتعد راكضاً بجواده أمام أعين الرومان المندهشين، فأمرهم الأسقف بمطاردته.

---

(1) ينتمي القوط الغربيون إلى الأصول الجرمانية وكانوا قد أخذوا في تهديد أراضي الإمبراطورية الرومانية منذ القرن الثالث الميلادي، ثم سقطت دولتهم تماماً نتيجة للفتح العربي لإسبانيا عام 711.

تسلل «أتزين» مستغلاً الاضطراب الذي حدث، واختبئ في قبو إحدى الأرامل في مكان كان عادة ما يرتاده ربما لجودة النبيذ أو لكرم الأرملة. طارد الرومان القاضي، وعادوا أدراجهم بعد بضع ساعات قائلين إنه كان قد تسلل داخل الغابة حيث كان رجال مختبئون بداخلها قد أصابوا بسهام رموها بدقة كبيرة اثني عشر جندياً، فأمر الأسقف بالبحث عن «أتزين» داخل كل دار. حينما طرقوا باب بيت الأرملة، اختبئ «اتزين» في القبو داخل حوض خشبي مملوء بعصير العنب. ثقب الرومان بعض الجرار ولكنهم كفوا عن البحث بعد أن جذبت اهتمامهم الأرملة بثيابها الخليعة في الدور الأعلى، فقامت بتسليتهم ساعة، وحين انصرفوا عثرت على «أتزين» يطفو في الحوض فأخرجته، كان لا يزال يتنفس. كان «أتزين» أقل حراس الزمن جدارة بالثقة.

ابتسم «أنطونيو سيتسو» وقال: «كان «أتزين» أحد أسلافك».

تمنيت أن تمنحني بقية القصة أسلافا أفضل.

إن ألفاً من السنين فترة طويلة. قبل وصول الرومان كانت الجزيرة غابة ممتدة من أبواب «كارالي» إلى سواحل «غاللورا»، وكانت هناك أراضٍ مزروعة فقط حول القرى، وكان يوجد طريق واحد فقط من «تاروس» إلى «كارالي». عندما أتى «الڤاندال» من البحر كانت الغابة تبدأ عند «ڤيلاتشيدرو» وعند «أُورولي»، أي بالقرب من حدود أراض الإمبراطورية. كان الرومان قد اقتلعوا الأشجار من السهل ومن التلال الغربية ومن جهة «أُوللا» لزراعة القمح والزيتون ولاستخراج الفضة التي كانت تُنقل عبر سبع طرق لتصل إلى «كارالي» حيث كانت تُشحن فوق سفن روما. لم يكن يتبقى في الجزيرة سوى قشر القمح وبقايا بذور الزيتون ومخلفات أحجار مناجم الفضة.

علق «إيتزور» من «أر» قائلاً: «إن الرومان يعرفون كيف يأخذون، فهم لا يفكرون في أي شيء آخر».

قبل وصول الرومان كنا نتكلم اللغة القديمة وكنا نعرف اللغة البسيطة الخاصة برجال البحر. في زمن الڤاندال كنا نعرف اللاتينية وبعض الناس كان يحافظون على اللغة القديمة ويستخدمونها في المواقف الحميمة وللتعبير عن مشاعرهم، فكانت وكأنها بمثابة لهجة خاصة. هل لو لم تكن الموجة البربرية اجتاحت روما لكانت تمكنت تلك من كسر صمود آخر الشعوب؟ إن هذا شيء مُحتمل. إننا ندين بحريتنا إلى كل البرابرة الذين تجدهم في كتب

التاريخ: القوط والبروغوند[1] والسِلت[2] والجرمان والهون[3] والڤاندال وكل الشعوب التي هاجمت الإمبراطورية وأجبرتها على الركوع والسقوط، ثم دمرتها واضعة النهاية لحربنا التي استمرت لألف عام. لقد قمنا نحن أيضاً بدورنا ولم نتخل عن قلب الجزيرة.

كان الرومان يدعوننا «بيليتّي»، أي مرتدو الجلود، لأننا كنا نرتدي معاطف من جلود الأغنام، وكانوا يسمون أرضنا بـ«باربرا» ويصفون تقاليدنا بالبربرية، ولكنهم لم يستطيعوا طيلة ألف سنة من غزو كل أراضي الجزيرة.

حينما سمعنا الناس تتحدث عن الڤاندال وهبطنا لشن الغزوات لم نكن نتخيل أن الإمبراطورية قد انتهت، وإنها لن تتعرض ثانية لغزوات يظل صداها في الذاكرة.

هل يمكن لمقاومة امتدت ألف سنة من أن تغير طبيعة شعب؟ فقد صرنا ماهرين في شن الغزوات وفي سرقة عمل الآخرين.

كان يسكن القرى الرومانية في السهل مئات من عبيد سردينيين يتحكم فيهم قلة من المُحرَّرين وكانوا يدركون فقط بأنهم سردينيون فقراء، مهانون وصابرون، وكانوا يتناسلون. كان الأسياد الحقيقيون، الرومان الأحرار في عصر الجمهورية واليونانيون في الحقبة الإمبراطورية، يقيمون في ما وراء البحر. أما في «كارالي»، فإضافة إلى الجنود، كان يقيم فيها مئات من المُحَرَّرين كاليهود والمصريين الذين كانوا يديرون أراضي شاسعة،

(1) مجموعة من القبائل الجرمانية الاسكندينافية التي عاشت فترات من السلام والحرب مع الإمبراطورية الرومانية منذ القرن الثالث حتى القرن السادس الميلادي.

(2) مجموعة من القبائل الهندوأوروبية التي كانت تعيش فوق رقعة كبيرة من أراضي أوروبا، من الجزر البريطانية وحتى نهر الدانوب، لاسيما خلال القرن الرابع والثالث قبل الميلاد.

(3) قبائل من الرعاة يعتقد أن أصولهم مغولية تركية، بعد أن سيطروا على آسيا الوسطى هاجروا واستقروا في أوروبا خلال القرن الرابع الميلادي.

وبعض المغامرين الرومان، ونفر من اليونانيّين أو البلغاريّين المتورطين في مصائب سياسية، وشعب كبير من العبيد من الدرجة الأولى والثانية والثالثة. كان عبيد الدرجة الأولى من القرطاجيين، والسانيين[1] والسيكوليين[2] وكانوا يتحكمون في عبيد الدرجتين الثانية والثالثة. أما عبيد الدرجة الثانية فقد كانوا من السردينيين وكان يترأسون بدورهم عبيد الدرجة الثالثة الذين كانوا عبيداً سردينيين لا يتحكمون في أحد. كان عبيد الدرجة الأولى، وأحياناً الثانية أيضاً، يتمتعون بقدر من حرية الحركة، فكانوا يمتطون البغال للتنزه كما يفعل اليوم الموظفون العموميون، وكانوا ينتمون إلى فرق وجماعات دينية ويمتلكون المال وينفقونه. في العام الذي سمعنا فيه الحديث عن الڤاندال كان يعيش في «كارالي» ألف وإحدى عشرة باغية.

قال «روسدي» من «سي»: «إن عنزة بلا أمراض خير من امرأة رومانية باغية»

تحدث الكتاب اللاتينيون، وعلى رأسهم «شيشيرون»، عن عدم جاذبية سردينيا للسكان مبررين ذلك بحمى «كارالي» وبغارات برابرة الجبال الكثيفي الشعر المسلحين والمكتسين بالجلد.

تتحدث النصوص البيزنطية أيضاً عن عدم جاذبية سردينيا للسكان مبررين ذلك بحمى «كارالي» وبغارات برابرة الجبال الكثيفي الشعر المسلحين والمكتسين بالجلد.

كان لدى الجميع ميل للاعتقاد بأن البرابرة كثيفي الشعر الذين حاربوا الجمهورية هم آباء البرابرة كثيفي الشعر الذين قاتلوا الإمبراطورية. لكن مؤرخاً من «سافويا» كتب أن السابقين كانوا سردينيين «نوراغيين» وكانوا قد هُزموا وباتوا حراساً أوفياء

---

(1) شعب كان يستوطن منطقة وسط إيطاليا.

(2) شعب كان يستوطن جزيرة صقلية.

للجزيرة التابعة لروما[1]، أما اللاحقون فكانوا موريتانيين، أولئك الذين بُعث بهم للشقاء في المناجم. وبحسب رأي المؤرخ، فإن الموريتانيين كانوا قد تمكنوا من الفرار والمقاومة والقتال قروناً في جبال لم يكونوا يعرفونها. تبعاً للمؤرخ أيضاً، فإن برابرة الخمسمئة سنة الثانية كانوا ذوي بشرة سوداء من «باربايا»، أما السردينيون فقد التزموا الطاعة وكانوا يزرعون القمح في السهل لحساب الأباطرة المسيحيين الطيبين.

سألتُ نفسي عن المبررات التي ربما ساقت المؤرخ بأن تلتبس عليه حقيقة بسيطة جداً بهذا الشكل الملتوي: فنحن قد قاتلنا لألف سنة.

قال «أنطونيو سيتسو» إنه قد تفكر في الأمر. كان يعتقد بأن هذا هو السبب: فبينما كان مؤرخ «سافويا» يكتب، كان رجال «سافويا» يحملون السلاح باسم المَلك ويدنسون جبال المقاومة ويحتلون المراعي والبساتين، ويحرقون الغابات ويتقدمون بمصاحبة الكلاب والبنادق، وكانوا يعلنون كل ما كانوا يحيطونه بأسوار من الحجر مِلكا لهم بناء على قانون «سافويا». كانوا يدمرون نظام الإدارة الجماعية للأراضي المُتوارث منذ فجر الزمان، وكانوا يحرمون الشعب من مصدر عيشه الأساسي: المرعى والأرض الخصبة. كانوا يعتبرون السردينيين القابعين في القرى الجبلية، والذين كانوا يطلقون النار على بناة الأسوار الحجرية، لصوصاً مطلوب القبض عليهم وقتلهم لأنهم كانوا يدافعون عن كل ما كان حقاً لهم منذ فجر الزمان. كان القضاة يقررون داخل الكهوف مثلما كان يحدث خلال أسوء عصور روما.

---

(1) عائلة «سافويا» الإيطالية هي إحدى أهم العائلات الملكية الأوروبية التي تعود جذورها إلى القرن العاشر الميلادي وتمكنت خلال القرون التالية من توسيع دائرة نفوذها إلى صقلية ثم إلى سردينيا في عام 1720 إلى أن اعتلوا عرش إيطاليا الموحدة في سنة1861 وحتى عام 1946، السنة التي شهدت إعلان الجمهورية الإيطالية.

روى «أنطونيو يسبانو»، حارس الزمن أثناء عصر «البيمونتيين»، هذه الحكاية.

كان الطفل يركض وينظر إلى شق «كوري فاولاس» الضيق. كان قد حل عليه الظلام الذي كان كبقعة سوداء تتسع رويداً رويداً لتغزو الجبل كله، وكان يتطلع إلى السماء ذات الزرقة القاتمة، ويحسب أنه سوف يصل إلى «لوجيا رابيوزا» مع آخر نيران الغروب. كان يظن أنه كان عليه أن يتسلق فوق كومة الأحجار في الظلام، وأن يركض كمُهر، ولكنه لم يكن كذلك، فقد كان طفلاً في السادسة من العمر، ضئيلاً ومملوءاً بالعظام والعضلات النحيفة القاسية الملائمة لتحمل أي تعب بشرط أن يرغب عقله في ذلك. لم يكن يعرف حاجة للهواء في صدره، وكان يركض بتناسق مع تنفسه كما يعدو المهر وكما يركض الكلب. كان سريعاً في الوادي وهو يركض بأقدام حافية، وكانت عظامه تتلوى كبوص المستنقعات، فتنطلق وتندفع فوق أقدام أبيض ظهرها كلون الجليد الذي يبدأ في التساقط فوق الأرض الداكنة للدرب الذي نحتته البغال والخيول وعجلات العربات وحوافر الغنم والكباش (عند حواف الدرب كانت هناك نباتات شوكية وأشجار الفلين وقد طوتها رياح الشمال). كانت أقداماً داكنة، راحتها التي لا يسترها حذاء تكاد تكون سوداء، فلم يكن الطفل قد ارتدى حذاء قط في قدمه. كان يركض دون ضجيج وكأنه يرقص، وكان ينصت للريح التي تهب من الشرق، ويبحث عن صدى ركض الخيول. كان يتذكر الرجال الذين رآهم يصعدون إلى البلدة، المئات والمئات منهم، جنود وضباط، وكان يتذكر كلمات الجندي الأول المُنادي. كان في الميدان حينما بدأت القوات في الظهور في نهاية «تانكوروس»، عندها قال الجندي المنادي: «هذه المرة سوف نُخرج القاضي من وكره... من يساعده سيتم استعمال السلاح معه... باسم الملك». كان الطفل يتذكر الكلمات ويركض، كان يفكر ويبتسم دون قصد سعيداً بالركض: «لن يركض أحد آخر إلى سكان القرية، فلا أحد آخر يريد مساعدة القاضي، إنهم يفضلون موته». كانت عضلاته الساخنة تنشد أغنية: «فلتذهب، ولتنظر، ولتسمع، فلتمض!».

قال الأول: «إن تلك الخيول كانت تأكل في المرعى الخاص بي، ولقد تم تغيير العلامة الموجودة على شعرها وتزييف العلامة المطبوعة على الجلد، فتلك الخيول كانت ملكاً لي. لّما ذهبنا لاستعادتها أطلقوا النار علينا، واضطررنا لأن نطلق النار نحن أيضاً. لقد قتلنا ليس بهدف القتل بل لنسترد الخيول، فلقد كانت الخيل لي ولقد سُرِقت من أرضي بعلامات مزيفة».

قال الثاني: «لقد كانت تلك الخيول لنا قبل أن تكون لهم. لقد سرقوها في شهر اللوز الحامض في ليلة بلا قمر بينما كان ابني يقوم بالحراسة، لقد قتلوه ليأخذوا الخيول، فهل تساوي حياة إنسان واحداً وعشرين فرساً؟ واحدا وعشرين فرساً؟ هل هذا هو الثمن؟ كنا قد استعدنا تلك الخيول في شهر زهرة البَرْوَق للسنة نفسها بينما كان يقوم على رعايتها راعيان بريئان وأخ للقاتل، فلم نؤذ الراعيَّين التزاماً منا بالتعاليم المسيحية»

سأل القاضي الاثنين: «هل قالت أمكما لكما إنكما أخوان؟»

أجبنا معا: «نعرف هذا»، فقد كانا أخويين شقيقين من الأم والأب نفسيهما، وليسا أخوين بمعنى رفيقين أو بالمعنى المسيحي أو الإنساني الأعم.

أمر القاضي بأن تُقطّع الخيل إرباً، وأن تُعلق رؤوسها على أعمدة في منتصف الشارع الرئيس للبلدة لمدة واحد وعشرين يوماً، وأن تُترك لحومها في واحد وعشرين مكاناً مختلفاً لتأكلها النسور والنمل وكل حيوان يسعى في السماء وفي الأرض.

كان القرويون البسطاء يقولون عبر الطريق: «أكان من الضروري عمل هذا؟... قَتْل الخيول؟ هل نسى أن الخيل ابن للخالق بدرجة ليست أقل من الإنسان؟ وإن كان عليه قتلها، فهل كان عليه أن يجعلنا نتأمل رؤوسها في قلب البلدة لمدة واحد وعشرين يوماً؟ وإن افترضنا أيضاً أننا نحتمل الرائحة العفنة للخيل النافقة وهذا المشهد الشنيع، فهل كان عليه أن يُعطي اللحم للحيوانات وليس للمسيحيين؟» هكذا كان يعلق الناس على حكم

القاضي بقتل الحصين الواحد وعشرين، وكان آخرون قد قالوا بصوت عالٍ أشياء أسوء من ذلك واصفين القاضي بالمجنون الخطير.

كان «إيسكينا» قد قال في حانة في «بولّو» قبل سنة كاملة من موته (لم يكن أحد يعرف من قتله ولِمَ قتله) وهو يكاد يغني في سخرية متواصلة كما كان يفعل عادة: «إن الحق مع القاضي، فلقد أمر بقتل الخيل حتى لا يُقتل إنسان آخر في ما بعد بسبب تلك البهائم. لقد أمر بتعليق الرؤوس حتى نتذكر الحكم طيلة واحد وعشرين يوماً على الأقل، ولمدة واحد وعشرين يوماً لم يَقتل أحد أحداً آخر في شوارع البلدة للاستيلاء على حصان أو كبش. إنه أمر بإعطاء اللحم إلى الحيوانات لأننا لا نستحقها، فإن كان صحيحاً أنه اضطر لقتل واحد وعشرين حصاناً رائعاً للحصول على واحد وعشرين يوماً من دون موت إنسان، فأي لحم نستحق؟ أي جائزة؟ الثروة؟ لا أحد في هذه البلدة قادر على بلوغ الشيخوخة ولا حتى الجبناء. إنكم تقتلون هذا لأنه نظر إلى أعينكم مباشرة نظرة تحدٍ، وتقتلون ذاك لأنه يتحاشى النظر مثيراً للشكوك، وتقولون لأنفسكم إنكم تفعلون هذا كي تصيروا أغنياء أو لتنتقموا لخطأ ما فعله أحد بكم دون أن تعرفوا متى ومَن، لعله حدث في فجر الزمان!. لا أحد يستطيع بلوغ الشيخوخة، وفيمَ يفيد الثراء إن لم يكن لجعل حياة العجائز أكثر ليناً بعد اللهاث في الشباب؟ أي جائزة نستحق؟ لحم تلك الخيول المسكينة؟».

سمع الطفل أصواتاً، فتوقف وكف عن التذكر، مد أذنيه.

«عذراً أيها الملازم، هل يمكنني أن أسألك سؤالاً؟».

«عليك أن تصمت أيها الجندي! إذا ما اقترب أحد وسمع الأصوات فسوف يتوخى الحذر».

«(بصوت خافت جداً) أيها الملازم، سمعت أمس حديث النقيب بينما كنتم تأكلون تحت الظل في منتصف النهار».

«هل استرقت السمع؟».

«لا! لقد سمعت عن غير قصد. كان النقيب يقول إن القبض على المجرم بات ممكناً لأن البلدة قد خانته، لقد باعته، لقد تخلوا عنه لأنه مجنون. أتقصد لقصة الخيول وقصة الرجل الذي وجدوه عارياً ومقيداً إلى مدفأة في ليلة عيد الميلاد لأنه كان قد غوى بامرأة رجل آخر؟ لقد سئموا منه ولكن ليست لديهم الشجاعة لمواجهته، إنهم يخشونه، لقد سلموه وعلينا فقط إخراجه من تلك المغارة وأتمنى ألا أكون أنا أول من ينزل هناك في الأسفل في الظلام. لا أعرف إن كنتم تفهمونني! إذا كانوا قد تخلوا عنه وباعوه فلماذا نلبث هنا قرب تلك الصخرة الكريهة والتي يسمونها باسم امرأة طيلة الليل في سكون دون خبز وحتى دون شراب؟ إذا كانوا قد دعونا لقتله؟».

«أحد ما... جندي ... أي أحد ... لا أعلم مَن! لن يدوم الجليد طويلاً، فلقد انتهى أو يكاد ينتهي. فيما يخص المغارة، فسينبغي على أحد الجنود النزول أولاً... إن المجرم بالداخل هناك».

«كانوا يدعونه (قاضياً) أيها الملازم... إنهم مجانين. أرجوك! لا تأمرني بالنزول أولاً... إن المجرم مسلح وسيرى نفسه وقد اشتد عليه الخناق... هل تفهمون؟ إن خطيبتي تنتظرني في البلدة... أيمكنني أن أُريكم رسماً لها؟ لقد قمت أنا برسمه بألوان الفحم... إنني ماهر في رسم الناس. لدي أيضاً صورة صديقة لي، امرأة طيبة وعزبة ولديها ثروة من الأبقار والعجول والقمح والبيوت، إنها قبيحة قليلاً ولكن الزواج منها صفقة جيدة، فلديها دار مملوءة بالخادمات... أتفهمون؟ هل سيصل الشراب للجميع غداً؟ في الصباح؟».

كان الطفل ينتظر مختبئاً خلف شجيرة آس، وكانت الأبخرة المتصاعدة منه أثناء ركضه آخذة في الهدوء ومتحولة ببطء إلى قطرات من العرق تبعث بالدفء في جسده، وكان متأهباً للتحرك ومُنصتاً لأي حفيف يصدر.

كانوا يشاهدون الصور على آخر ضوء للغروب، وكان الملازم يكاد لا يرى شيئاً سوى

ظلال قاتمة، كان مغتاظا فأعادها إلى الجندي متمنياً أن يصمت هذا أخيراً، ولكنه سأل سؤالاً: «أيها الملازم، لماذا أَعطى سكان البلدة اسم امرأة لهذه الصخرة؟»

«يقولون إنها امرأة، امرأة جميلة وبخيلة ومالكة أراضٍ وبغال. يوماً ما، بينما كانت عائدة من الحقول، التقت مجرماً جريحاً كان يقول لها: «إني سأموت في هذه الليلة، فأعطني عنقوداً من عنبك حتى يغدو الموت أكثر حلاوة!»، أجابته المرأة: «لو كنتَ حياً وقوياً ما كنت طلبتَ ولكنك كنت ستذهب لتأخذ وتسرق، فكم مرة سرقت من كرمي ومن صهاريجي عنباً وعجولاً؟ الآن ترغب في أن أقوم أنا بجعل موتك أكثر حلاوة؟ بعد أن قالت تلك الكلمات نظرت إلى المجرم في عينيه، ورفعت قدمها، وركلت الجرح الدامي في بطن اللص، فرآها الرب وحولها في اللحظة ذاتها إلى حجر وهي تحمل على رأسها عنباً حتى يعاقبها على شُحِّها... هكذا يقولون».

«عذراً أيها الملازم، ولكن إذا كان الرب قد غضب لأن المرأة أبت أن تعطي العنب، أفلم يكن من الأفضل أن يُحوِّل المرأة فقط إلى حجر تاركاً السلة وعناقيد العنب إلى اللص المحكوم عليه بالموت؟»

تسلق الطفل في الظلام فوق أنف «لوجيا رابيوزا» والتي كانت محاطة بالجنود المختبئين في المرج، ثم هبط زاحفاً فوق كتفي المرأة البخيلة ومشى في سكون ثلاثمئة خطوة في شق الجبل الذي كانت تسد نهايته كومة من أحجار الغرانيت، بعضها صغير كبيض الدجاج وبعضها الآخر كبير كالثور، كالعربات أو كالبيوت. عند أسفل كومة الأحجار سمع دوي ثلاث طلقات نارية خلف كتفيه، تسلق كالعنزة وكان الظلام دامساً، تعثر، تدحرج، فوثب على قدميه، وعاد ليتسلق ثانية دون أن يكترث بالأحجار التي كانت تتدحرج، ثم انزلق، وعاد للتسلق من جديد. كانت أنفاسه متقطعة، وكان قلبه يقفز حتى عنقه.

لقد أطلق الجندي الثرثار الرصاص مذعوراً من خنزير بري، فأخاف الخنزير (الذي

فر سريعاً) وأَعْلَمَ كل المناطق المحيطة لمسافة ميل بوجود جنود مسلحين عند الصخرة. إن «لوجيا رابيوزا» قد استيقظت وراحت تطلق الرصاص لاستهلال حياتها الثانية على أفضل حال، فكر الطفل: «أطلقي الرصاص يا (لوجيا)!... هل ستقتلين أحداً؟».

بينما كان يركض في الهضبة الملاصقة لأشجار الفلين والشوك كان الطفل يفكر في المغارة، وبينما كان يتسلل في صمت بين الجنود كان يفكر في المغارة، وبينما كان يصعد بين الصخور، فيسقط ويُصاب بخدوش ورضوض، كان يفكر في المغارة. بينما كان يقفز بخفة ورشاقة ككبش بري من صخرة إلى أخرى كان يفكر في المغارة. بينما كان يتسلق سريعاً رغم الظلام وكأنه يحفظ عن ظهر قلب خط الصعود المتعرج كالثعبان، كان يفكر دوماً في المغارة (لم يمش أبداً في هذا الطريق وكان يعرف تلك الأماكن فقط لأنه كان قد رأها من مسافة بعيدة ولأنه كان قد سمع عنها). كان يعلم من حكايات العجائز أن القاضي ينام في قاعة الحكم، في ركن بجانب عمود يتدلى من قبة المغارة، فوق جلد بقرة، محتضناً البندقية. كان يعلم من حكايات العجائز أن الصالة كانت في جوف الجبل: «فلتهبط عبر ممر تحت الأرض، ولتعبر جسراً فوق النهر الجوفي، ثم لتصعد وتنزل عبر الأنفاق، سيقودك غناء الريح التي تتسلل من كوة اسمها (فم الكلب) حتى تصل إلى بحيرة عليك الدوران حولها من جهة اليمين، عقب البحيرة يوجد الباب، ووراء الباب ممر في نهايته القاعة». كان يعلم من حكايات العجائز أن الناس حينما كانوا يذهبون هناك لمسألة ما كانوا في حاجة لمشاعل وللاستعانة بدليل مثل «تيتينو فرونجاس» أو «كوستانتينو ديميلاس» لكيلا يضلوا طريقهم في جوف الجبل.

فكر الطفل: «ماذا عساي أن أفعل كي أصل إلى القاعة وأرى القاضي، فإن لم يكن لدي مشعل ولم آتِ من قبل إلى المغارة، ولا أعرف حتى أين المدخل؟ يقول العجائز: «إن المدخل على مسافة اثنتي عشرة خطوة لرجل بالغ بدءاً من الحجر حيث مات بجواره «أنطونيو مورّو» عازف الناي. لكن، عندما مات «أنطونيو مورّو» لم يكن قد وُلِد بعد وكان جده

مازال طفلاً، فكيف سأتمكن من معرفة الحجر الصحيح؟».

شيء ما في الظلام أمسك بالطفل ورفعه في الهواء.

همس صوت في الظلام: «من أنت؟».

أجاب الطفل: «أنا ابن القاضي(إسكينا)».

قال القاضي: «لقد كان أبوك رجلاً حقيقياً».

أجاب الطفل: «أعرف هذا».

لقد سمع القاضي وقع أقدام الطفل بينما كان يركض فوق الهضبة (من المغارة يمكن سماع كل خطوة حول المكان حتى ولو كانت آتية من الصهاريج أو من البلدات المحيطة). نجح في العثور عليه وظلا مختبئين معاً في جوف الجبل حيث دار الجنود والملازمون والنقباء المسلحون حول أنفسهم في صفوف ملتوية، كل أربعة منهم مشدودون بحبل معاً. كانت أقدامهم تتعثر، وينزلقون معا عند سقوط أحدهم، ثم كانوا يراهنون على مَن يدخل أولاً في النفق المجهول وقد غطاهم الوحل وبللهم الماء، وهم يطلقون النار على الخفافيش. ظلوا يرتجفون ويلعنون أربعين يوماً وليلة دون أن يعثروا على القاضي أو الطفل. كان القاضي حارساً للزمن وروى الحكاية للطفل ليلة بعد ليلة بينما كان القمر يدلف إلى قاعة الحكم وينيرها من صدع في القبة العالية. لم يدخل العقيد في مغارة القاضي، فقد ظل جالساً فوق الحجر حيث كان «أنطونيو مورّو» قد عزف الناي طيلة حياته (وإلى اليوم إذا مررتَ ليلاً مع صحبة طيبة في شهر الجنستا المزهرة فيمكنك سماعه يعزف رقصات ومقطوعات لموتسارت). بينما كان الجنود والملازمون والنقباء يبحثون في أنفاق الجبل كان العقيد جالساً على الصخرة التي تحولت إلى مأدبة، كان أمامه اثنا عشر خنزيراً وأربعون برميلاً من خمر «كانوناو»، وخمسة وثلاثون من خمر «ناسكو»، وحلوى «باردولا» و«سابا»، فالتهم العقيد الطعام واحتسى الشراب. في ذلك الحين كان قد مضى على موت «أنطونيو مورّو» وقت وجيز، أقل من مئة عام، وكان حينذاك يعزف كثيراً أكثر مما يعزف اليوم، ولكنه لم يعزف في تلك المناسبة. إنه لا يعزف في شهر الجليد ولا يعزف للعقداء أبداً.

قص هذه الحكاية «أنطيوكو يسبانو»، حارس الزمن أثناء الحقبة البيمنتوية وابن «كوستانتينو يسبانو» الملقب بـ«إيسكينا».

كان القضاة يعيشون في المغارة، ولم يكونوا ذوي بشرة سوداء مطلقاً كما قد يظن مَن يُصدق «مطبخ» «سافويا» العجيب للحقائق التاريخية. لم يكونوا ذوي بشرة سوداء، ولم يكونوا يبدون مطلقاً أنهم ينحدرون من سلالة الموريتانيين، بل كانوا كثيفي الشعر، مسلحين ومكتسين الجلود كأولئك الذين كانوا قد قاتلوا الرومان من قبل. كان مؤرخ «سافويا» يُفضل أن يُقطِّع أوصال تاريخ الشعب الذي عاش في هذه الأرض منذ فجر التاريخ، والذي كان عليه طيلة العشرين قرنا الأخيرة أن يواجه ضيوفاً ينتمون لأعراق مختلفة ويدّعون أنهم أسياد هذه الأرض.

لعل مؤرخ «سافويا» كان يرغب في أن يلاحظ أحد ما في العاصمة ذو منصب عالٍ حميته وعنصريته، فربما كان لينتشله وينقذه من الجزيرة الرديئة ولا سيما من أولئك التلاميذ الغرباء الذين كانوا يحدقون فيه طوال الدرس وكأنه كلب ذو ثلاثة رؤوس ويتكلمون فيما بينهم بسبع لهجات مختلفة إحداها كانت تبدو كاللهجة الكاستالية القديمة. لم يكن التلاميذ يفهمون شيئاً من الإيطالية الخاصة بمقاطعة «سافويا»، أو ربما كانوا يتظاهرون بعدم الفهم، وكانوا أفظاظاً سيئي التربية. قام تلميذ، حيوان من «إيرتسو»، بقذف محبرة بدقة غير متناهية مصيباً مؤرخ «سافويا» في منتصف جبهته تماماً، فترنح المؤرخ، وتلطخ وجهه وتلعثم، ثم كان عليه أن يرسل ثيابه للتنظيف. طُرِد حيوان «إيرتسو»، «نينو لوبينا»، من كل جامعات المملكة وحُكم عليه بخمس سنوات أشغال شاقة، وكان يجيب عن كل من كان يسأله عن سبب فعلته تلك قائلاً: «إن ذلك الأحمق كان لا يقول سوى ترهات».

كان المؤرخون من «سافويا» يحاولون أن يمزقوا الحبل الذي يربط بين سيادة السردينيين وأرضهم؛ كانوا يريدون أن يثبتوا أن تلك السيادة كانت قد فُقدت لأكثر من مرة منذ عصور سحيقة؛ وأننا كنا «أرض الإمبراطورية»، وأن هذا، حسب تصورهم المغلوط

للقانون، كان بمثابة مبرر كافٍ لأن تغتصب عائلة «ساڤويا» لقب مَلِك سردينيا.

كان مؤرخو «ساڤويا» يريدون إقناع الطلاب السردينيين بأنهم فينيقيون أو بونيقيون أو حتى موريتانيون ولكنهم ليسوا سردينيين. كان هؤلاء المؤرخون يفضلون أن يتخيل السردينيون عدم وجودهم أصلاً، أو أن يظنوا أنهم أبناء وطن لا يعرفون حتى أين مكانه.

قال «كوزيمو سابا»، حارس الزمن أثناء حقبة «باكاريدّا»: «كانوا يجعلوننا نُولَد في (بارباريا)... في موريتانيا، وليس في (أليسيا) أو فوق (رينو) في سردينيا، وكانوا يجعلوننا نُولَد ذوي بشرة سوداء وليست بيضاء».

قال «غوستو لوسّو»، حارس الزمن من «أرمونجا»: «لقد تقلدت عائلة (ساڤويا) مُلك سردينيا بالزيف، فلقد تَوَّجَهم من لم يكن لديه سلطة التتويج، وإن شرعيتهم زائفة كما يبدو من أفعالهم».

عبر طرق غير مشروعة، احتفظت القرى فوق الجبال، التي لا يعنيها مؤرخو «ساڤويا» ولا قوانينهم الخاصة، بأضخم الأراضي العامة مساحة في الجزيرة وفي إيطاليا كافة، وإلى يومنا هذا فإن الجبال التي لجأ إليها «مير» في الماضي القديم تُعدّ ملكاً جماعياً للرجال السردينيين الأحرار والعشائر التي تقطن فيها.

قال «أنطونيو سيتسو» في أحيان كثيرة لا يكون التاريخ أرضاً للحقيقة.

كانت الساعة العاشرة، وتنبهتُ أن زوجة أنطونيو كانت قد اختفت، فنهض «أنطونيو» وأشار إلي بأن أتبعه، فوجدنا الزوجة تقوم بشواء مُخّ حمل في الحديقة المغلقة للدار. كانت في الحديقة أشجار ليمون وعنب ولوز وعشرات من نباتات مختلفة وأحجار وبئر ومئات

من الطيور وثلاثة كلاب وثماني قطط وفرس كان يرعى الكلأ بهدوء في أحد الأركان، وكانت الأشجار والحيوانات تحيط بنا من كل الجهات وكان للبيت شكل نصف دائري وله سور في منتصفه بوابة يفصله عن الشارع، وكانت في كل غرفة من غرف المنزل نافذة تطل على الحديقة.

أكلنا رؤوس الحملان في صمت منصتين إلى امرأة في الحديقة المجاورة لم نكن نراها وكانت تنشد أغنية قديمة عن لص مقتول تبكيه أمه، وكانت تغني مهمهمة ربما لأنها كانت تحتضن طفلاً محاولة أن تجعله يستسلم للنوم.

عدنا إلى المطبخ.

قال «أنطونيو سيتسو» لقد باتت روما ذكرى لاتزال حية في عقول بربرية بينما كانت أوروبا آخذة في التكون.

لقد وجدنا أنفسنا أحراراً وسط بحر من اللصوص.

امتلك «الكورس»[1]، المنحدرون من تزاوج الإيتروسكان مع القوط، أسطولاً من السفن الصغيرة والتي كانت تقوم بأعمال قرصنة طول سواحل البحر المتوسط الأعلى. قامت عصابة من القراصنة «الكورس» تحت قيادة «أُورتيمورو»، والذي كان مشهوراً بوحشيته، باحتلال «باوزانيا»، الميناء الروماني المهجور في شمال سردينيا، وأطلقوا عليه اسم «توريس» جاعلين منه ملاذاً للاختباء بعد أعمال السلب والقتل التي كانوا يرتكبونها في عرض البحر. لسنوات كثيرة ازدهرت القرصنة وقاد «سوزوريو»، ابن «أُورتيموريو»، عصابة من القراصنة الأغنياء والأشداء وغزوا أطلال «جنوة» والتي كانت قد تعرضت للتدمير والسلب مرات عديدة خلال القرون الماضية على يد البرابرة، وكان يسكنها آنذاك أناس همجيون يرتدون الأسمال البالية. فتح «سوزوريو» «جنوة» وأعاد بناءها جاعلاً منها جمهورية للبحارة اللصوص.

كان الإيتروسكان يعيشون منذ ألف سنة في الجزء الشمالي الشرقي في «غادّورا»، وقلدوا أبناء عمومتهم «الكورس» ،واحترفوا القرصنة هم أيضاً، وشيدوا ميناء ليلوذوا به

(1) الكورس هم سكان جزيرة كورسيكا التابعة الآن لفرنسا.

بعد غزواتهم وأطلقوا عليه اسم «لونغوني».

كانت القرية القديمة «مو»، والتي أُعيد بناؤها تحت اسم «بوزا»، أول ميناء لشعب القضاة، وكان الميناء الوحيد في الجزيرة الذي لا يقع على البحر المفتوح ولكن بمحاذاة مصب نهر «تيمور». قام سكان «بوزا» برسم حدود أراضيهم بين جبل «أرڤينو» وجبل «كيرا» بواسطة أعمدة وأحجار، وذلك حتى تقع الينابيع الأربعة كلها لنهر «تيمور» داخل أراضي القضاة، ورضي سكان «توريس» بتلك الحدود. لم تكن السفن القادمة من «تولون» و«جنوة» و«كتالونيا» والمتوجهة نحو «بوزا» تتعرض لهجمات قراصنة «توريس» أو «لوغوني». لم تكن هناك حدود مرسومة بين أراضي السردينيين وأراضي الإيتروسكان حيث كنا نعيش إخوةً.

في يوم السوق دخل أسقف دون حراسة مترجلاً من بوابة «أرباري» دون أن يلحظه أحد، فقد كانت البوابة مفتوحة ليل نهار ولم يكن هناك حراس. توقف الأسقف أمام بائع الحلزون الذي كان قد وضع سلاله فوق درج الكاتدرائية وسأله: «أين القاضي؟». أشار البائع إلى بيت من الطين مطلي باللون الأبيض كسائر البيوت الأخرى في زقاق من الحجر الموحل كسائر الأزقة الأخرى. كان الأسقف حافياً ولم يخش أن تتسخ قدميه بالوحل. بلغ بيت القاضي واجتاز عتبته التي كانت بلا باب. في الظل كان هناك نصل من الضوء المُترب ينسل من كوة في منتصف السقف لينير حصيرة تفترش الأرض، فنادى الأسقف: «أيها القاضي!»، فلم يجب أحد. خرج الأسقف إلى الطريق، وأبصر امرأة تمر فسألها: «أين القاضي؟»، فأجابت المرأة مبتعدة: «إنه هنا». قعد الأسقف على عتبة دار القاضي «غوانتينو» وراح يرمق المارة من رجال ونساء ودجاج أهوج وأطفال يصرخون ويركضون وتاجرات وتجار يصيحون وينادون على بضاعتهم: «معاول ومجارف بأسعار زهيدة...» أو«الليمون...! ليمون (أرباري) الغض...!» أو «نبيذ معتق لمدة عشرين سنة وأسود كبصق الجبّار وقوي كركض الخيل...». شاهد الأسقف عجائز ضاحكات

متدثرات بثياب سوداء يسرن مسرعات بمحاذاة الحائط وفي وسط الطريق، ورأى فرساناً ذوي وجوه تغطيها لحى سوداء لا تكشف سوى عن الأعين والأنوف ويمتطون خيولاً نحيفة منطلقة. كانت الأعين كثغور براقة بين جفون شبه مغمضة. عند الغروب توقف فارس أمام الأسقف الذي كان يصلي مُسنداً وجهه إلى الأسفل بين يديه المتشابكتين، رفع الأسقف رأسه وأبصر لحية سوداء وعينين شبه مغمضتين غير مختلفتين عن أعين الفرسان الآخرين الذين كانوا يمرون عبر الزقاق طوال اليوم، ثم لاحظ يد الفارس اليمنى التي كانت تُقدِّم إليه جراباً. انتصب الأسقف واقفاً، أخذ الجراب وفتش فيه بفضول بينما كان الفارس يبتعد. كان الجراب من جلد الغنم الأحمر، وكان يحتوي بداخله على خبز محشو بالعنب المطهو، وآخر محشو بالسمك، وآخر محشو بلحم الماعز، وثلاث ثمرات يقطين مملوءة بنبيذ «ريولا» المعتق لمدة عشرين سنة، ويقطينة أخرى كبيرة مملوءة بالماء البارد. جلس الأسقف فوق عتبة الدار وأخذ يأكل. قضم الخبز المحشو بالعنب المطهو ومضغه فأعجبه ذاك «المذاق السماوي»، ثم رأى امرأة عجوزاً حدباء تقترب منه مسرعة متمتمة بكلمات غربية من لغة مجهولة. كان للعجوز شعر طويل أبيض مجدول في مئة ضفيرة، وكانت لاتزال تتمتم بكلماتها الغامضة، توقفت أمام الأسقف وأعطته مشعلاً متقداً من الشحم، فأمسك الأسقف بالمشعل، ولبرهة توقفت المرأة عن التمتمة ونظرت إليه وارتسمت على شفتيها نصف ابتسامة وبدت وكأنها سعيدة، ثم صرخت وكأنها قطة داس أحد على قدمها، ثم أخذت تومئ بيديها وبذراعيها مُفهمة الأسقف أن عليه النهوض. أطاعها متعجباً وما أن وقف على قدميه حتى دفعته العجوز إلى داخل الدار بقوة أكثر مما كان يُمكن تخيله أو كان ليُنبئ به مظهرها، فدلف الأسقف إلى البيت معتقداً أن العجوز كانت زوجة القاضي، والذي كان يتخيله طاعناً في السن. انتزعت العجوز بأطراف أصابعها قطعة من الشحم المتقد من المشعل وألقت بها إلى وسط الدار فوق كومة من العشب والحطب والفحم فانبعث دخان وُسمعت طقطقة النيران، ثم خرجت العجوز من الدار، وتوقفت عند العتبة، بسطت جلد بقرة كان الجزء الخاص بالعنق منها مثبتاً بمسمار إلى عِضادة الباب، ثم اختفت. كان الأسقف يعلم بوجودها لأنه شاهد أحداً ما يقوم من الخارج

ببسط الجلد بعناية حتى لا يترك فيه ثغراً أو منفذاً. فكر أن أفضل شيء يمكن عمله في دار الآخرين هو احترام رغبة المُضيف، على الرغم أنه لم يكن من اللائق أبداً ترك النار مشتعلة والدار مغلقة في تلك الساعة وفي ذاك الوقت من العام. دار حول نفسه وفي يده المشعل المتقد ووقعت عيناه على الحصيرة التي كان قد رآها في الصباح. نفد شحم المشعل وقعد الأسقف فوق الحصيرة يحيطه الظلام، التهم الخبز المحشو عنباً واحتسى النبيذ من إحدى ثمرات اليقطين ثم اضطجع. كان قد مشى ثلاثة أيام على أقدامه الحافية، وكان منهكاً، فغط في النوم. استيقظ عند الفجر لأن نصل الضوء القادم من الأعلى كان يبرق في عينيه، فحرك جفنيه وأبصر قرب مضجعه الخبز المحشو سمكاً والآخر المحشو بلحم الماعز. رأى اليقطينة المملوءة بالماء، فأكل بشهية كبيرة وشرب مستمتعاً بالمذاق. لمح وجود قنينة، فنهض وبلغها، ورجّها وسمع أن بداخلها سائلاً ما فتذوقه، كان لبناً بقرياً طازجاً ومحلى بالعسل، فشرب الأسقف كثيراً. اتجه لعتبة الباب، وطوى الجلد الذي كان بمثابة باب للدار وربطه بالعضادة، وجلس مولياً وجهه إلى الزقاق. وحدث تماماً مثلما حدث في اليوم السابق: الساعات والرؤى والأصوات والجراب والطعام الذي منحه إياه الفارس المجهول في صمت، فلقد كان كل شيء مماثلاً تماماً. عند الغروب، بعد أن أصدرت العجوز أصوات من حلقها وعويلاً حاداً ولوحت بحركات عنيفة هوجاء، أجبرت الأسقف على شرب كل ما كان يحتويه الإبريق من اللبن، ثم ابتعدت بالإبريق الفارغ وما لبثت أن عادت بإبريق آخر مملوء، ثم أغلقت الباب بجلد البقرة وتلاشت. قضم الأسقف الخبز بالعنب ومضغ، ثم قال في نفسه «إنه أطيب من خبز الأمس» واحتسى نبيذ «ريولا» من إحدى ثمار اليقطين. في اليوم الثالث قام الأسقف باحتساء كل اللبن بالعسل الموجود في الإبريق قبل أن تصل العجوز، وكان هذا هو الشيء الوحيد المختلف عما حدث في اليوم السابق. في منتصف صباح اليوم الرابع ساوم الأسقف تاجراً جائلاً لشراء أربعة أزواج من السراويل، ودفع له ثلاثة أضعاف ثمن البضاعة، وكان تاجر الأقمشة قادماً من «سيو» ككل التجار السردينيين البائعين لأي بضاعة أخرى. دخل الأسقف الدار، أنزل الستارة الجلدية، وخلع ثيابه المتسخة التي كان يرتديها منذ سبعة أيام وكانت تجعل من مظهره يبدو وكأنه أحد

عبيد «كارالي»، ثم ارتدى سروالاً، وقعد فوق العتبة كاشفاً عن ساقيه البيضاوين وصدره الناصع. اقشعر جسده وقت الغروب، ثم ظهرت العجوز ودون أن تنطق بكلمة واحدة وضعت أمام الأسقف قميصاً نظيفاً مصنوعاً من نبات القنب وسترة من جلد الغنم ثم اختفت. ارتدى الأسقف القميص، ثم شاهد فارساً يلوح أمامه كأحد الفرسان الكثيرين ذوي اللحى الشبيهة بالقناع وذوي العيون المغمضة. فجأة ظهرت العجوز ثانية، فركضت متجهة إلى الفرس، وثبت بخفة لا يمكن تخيلها فوق صهوة الجواد خلف الفارس الذي طوقته من خصره وشرعت في الصياح بصوت غليظ وبلغة كانت تبدو للأسقف بربرية وغير مفهومة كمزيج من الصراخ ونعيق الغربان والعقاعق الثائرة، كانت العجوز تشير بإصبعها نحو الأسقف.

قال القاضي: «طاب يومك أيها الأسقف».

قال الأسقف متسائلاً: «طاب يومك أيها القاضي...مَن هذه المرأة؟».

«إنها أمي. ألم يرق لكم الحليب؟».

«بالعكس، فقد كان ممتازاً».

جلسوا فوق الحصيرة على ضوء النصل الأبيض القمري الذي كان يتسلل من الكوة، وأكلوا خبزاً وجبناً، واحتسوا نبيذاً جديداً من «ماسّاما»، فاتح اللون كزهرة الخوخ وله عبق التوت الناضج.

قال الأسقف: «إنه نبيذ طيب المذاق وطازج، إنكم لا تسكنون قصراً ولكن لديكم مأدبة ملك».

أجاب القاضي: «فيمَ يفيد القصر أيها الأسقف؟». ثم أضاف قائلاً: «إنني أعيش فوق ظهر فرسي».

«لقد أخبركم جواسيسكم بوصولي؟».

«من قبل أن تغادر روما يا أسقف».

«إذن كنتم تنتظرونني، فلماذا انتظرتُ طويلاً هكذا إذن، حتى وإن كنت بصحبة طعام وأشخاص طيبين».

«ليس لزاماً علي أن أجيب أيها الأسقف، فأنتم في أرض القضاة. لو ذهب رسول لي إلى روما فسينتظر شهوراً بين حانات ودهاليز حجرية مظلمة قبل أن يتمكن من لقاء الخِنصر الأيسر لأسقف روما».

«إنه رئيس الكنيسة التي تنتمون إليها أيها القاضي».

«تنتمي إليها روحي فقط أيها الأسقف وليس وقتي بصفتي قاضياً. أبغي أن أُرضي فضولكم، لقد كنت في الشمال».

«ماذا يحث في الشمال؟»

«إن عشيرة (توريس) وعشيرة (لونغوني) على خلاف، وتدعي عشيرة (توريس) أن عشيرة (لونغوني) قد خطفت عشر فتيات من (توريس) وباعتهن إلى أناس من (جنوة) وتطلب تعويضاً مقداره عشر فتيات من (لونغوني) وتشترط انتقاءهن. تنفي عشيرة (لونغوني) خطفها للفتيات ولذا لن تسلم شيئاً في المقابل».

سأل الأسقف: «من يقف الحق بجانبه؟»».

أجاب القاضي: «ليست لدي أدلة»، ثم أضاف: «من الصعب إدراك الصدق والكذب في كلمات أولئك القراصنة المعتادين منذ أجيال وأجيال على الكذب، ولكنّ لدي شكاً بأن عشيرة (توريس) لا تقول الصدق».

«لماذا؟»

«هناك الكثير من النساء في عشيرة (لنوغوني)، أما عشيرة توريس فلديها عدد قيل منهن. لقد اعتاشت عشيرة (توريس) دوماً على القرصنة فقط، والآن بات البحر ملكاً لقراصنة أكثر عدداً وعدة، فصارت عشيرة (توريس) مجبرة على ممارسة التجارة على الساحل، وبدلاً من أن يسلبوا أصبحوا هم من يتعرضون للسلب بين الفينة والأخرى. إن عشيرة (لونغوني) وسكان قرى (غدّورا) يقيمون هنا من قبل وصول الرومان، ولقد أصلحوا أراضي السهل الصغير، وتتسآل عشيرة (توريس): لِمَ لا نستولي على تلك الأراضي؟»».

«ماذا سيحدث؟»

«إنها الحرب».

«هل أنتم واثقون من هذا؟».

«أجل إني متأكد، ولكن لن تتعرض (كارالي) للخطر. إن ثلاثمئة من القراصنة الحفاة وعشرين زورقاً متهالكاً لن يهاجموا مدينة تحصنها الأسوار وتعتلي التلال ويحيط بها الماء».

«وكيف ستكون الحرب؟».

«ستهاجم «توريس» وستتراجع عشيرة «لونغوني»».

«إلى أين؟».

«لا أعلم».

«لماذا لم توقفوهم؟».

«إنهم يقرون بسلطتي على عشيرة القضاة، ولكنهم لا ينتمون لعشيرة القضاة».

«ألا تعتقدون أنهم سَيتّحدون لمهاجمتكم؟».

«لقد قلت للراشدين في العشيرتين إن أي أجنبي أعزل من السلاح ويقبل بشريعة القضاة فسيكون مُرحباً به في أرض السردينيين».

«ما معنى هذا؟».

«إن أفراد عشيرة (توريس) لا ينفصلون عن أسلحتهم ولا حتى للنوم، ستفر عشيرة (لونغوني) مذعورة نحو الشرق والجنوب، وسنستقبلهم بالترحاب وسنمنحهم أراضي خصبة».

«لماذا».

«إن عشيرة القضاة قليلو العدد، فكثيراً ما يموت الأطفال خلال السنوات الأولى لحياتهم. أما شباب الفرسان فيقومون بالسطو على أراضي (كارالي)، فهم يحبون سلب ممتلكات الأعداء، ولا أستطيع إجبارهم على أن يصيروا مزارعين لأنهم لا يرغبون في ذلك. في الحقيقة، إن أرادوا فلن تكون هناك أراضٍ كافية للجميع. يعتقد الجميع أن الغزو من الشرف وأن الزراعة ليست شيئاً ذا قيمة. لقد حَوَّل سكان (غدّورا) كومة مقفرة من الأحجار إلى جنة مثمرة، ولدينا حاجة إلى المزارعين، وسيقوم الفرسان بالدفاع عنهم ضد

عشيرة (توريس)».

«أتفكرون ببسط سيطرتكم على كل أراضي الجزيرة؟».

«نفكر في منع سيطرة الآخرين على أراضي القضاة».

«كانت تلك الأراضي ملكاً للإمبراطورية يوماً ما».

«إن أراضي الإمبراطورية لم تصل يوماً إلى (أرباري)».

«كان الإمبراطور (قسطنطين) قد أكد أن سردينيا ملك للإمبراطورية».

«إن (كارالي) هي التي كانت تابعة للإمبراطورية وليست (أرباري)».

«لقد كتب (قسطنطين) وصية منح فيها سردينيا إلى أسقف روما رئيس الكنيسة».

« لقد وهب (كارالي)، ولم يكن له ليهب (أرباري) التي لا تنتمي له».

«لقد طلب أسقف روما الحصول على إنجيل (لوتشيفيرو) الزائف والشيطاني لحرقه في مراسم عامة ويجب أن تلتزم روحكم بطاعة رأس الكنيسة».

«روحي فقط وليست عشيرتي، فإن حدث شيء للكتاب فسيكونون على استعداد لقتلي».

«فلتعطني إياه إذن دون علم أحد».

«إنه في حوزة أيادٍ أخرى ولا أستطيع أخذه سراً».

«فلتتحدثوا مع عشيرتكم، إن أسقف روما يعرض في المقابل تسع سفن».

«سفن...؟».

«ومئة عبد حبشي ومنحكم لقب (دوق)».

«دوق»؟...

«هذه أراضي الإمبراطورية وقد وهبها الإمبراطور (قسطنطين) إلى أسقف روما، وهو سيتنازل عنها لكم كدوقية. ستحكمون هذه الأرض كما تشاءون أنتم وورثائكم من بعدكم حسب قوانيننا...!!».

«إننا نحكم فعلاً هذه الأرض كما نشاء. إن الكتاب الذي ترغبون فيه يحميه قسم لا يستطيع أحد الحنث به».

«سيختار أسقف روما أسقف (أرباري)».
«شريطة أن يختاره من بين الكهنة المنتمين لعشيرة (أرباري)!».

رحل الأسقف وقام القاضي «غوانتينو» بشن غزوة دامت سبعين يوماً وملأ أرض السردينيين ذهباً وفضة وأبقاراً وعجولاً.

هاجمت عشيرة «توريس» عمق أرض «لونغوني» ووجدته خالياً من الرجال والحيوانات والمتاع، فكل شيء كان قد انتقل ليزيد من ثراء قرى القضاة. اندفعت عشيرة «توريس» إلى داخل الغابة ليكتشفوا كم كان يسيراً أن يختبئ الموت بين الأشجار، فتراجعوا قانعين بما كانوا قد استولوا عليه.

صار لدى عشيرة «لونغوني» قاضٍ خاص بهم.

وصار لدى «توريس» قاضٍ من عشيرتهم.

وجدت عشيرة «أونون» نفسها محاطة بأراضٍ صخرية قليلة الخصب كانت نافعة فقط خلال أيام الإمبراطورية لحماية المنفذ المؤدي لجبال «مير»، فاستولت على وادي «لوكوي» مكونة قريتين جديدتين، «أوليانا» و«غوروس». لم تغادر عشيرة «أوليانا» أرضها أبداً منذ استقرارها فيها، أما عشيرة «غوروس» فقد أنشأت قريتي «فونّي» و«غارتيلّي».

صار لـ«كارالي» أيضاً قاضيها، ولكنها لم تزدهر ولاسيما بسبب الداء الأسود، فقد اعتبر الأساقفة وسائل الحماية ضد المرض التي كان قد ابتدعها «تاورو» شعوذة، وكان الأساقفة الأسياد الحقيقيين للمدينة وللأراضي التي كانت يوماً ما ملكاً للإمبراطورية ولقضاة «كارالي».

ظل الاحتفال بعيد «كارالي» للمعاشرة الجماعية والذي كان في الماضي عيداً فينيقياً ثم «لوتشيفيريا» معمولاً به. أحد أساقفة «كارالي» المذعور، ربما من هذا الفسوق الاحتفالي ومن جهل الناس وضعف إيمانهم، كرّس نفسه للأكل بشراهة بدلاً من الصلاة، وأعلن أن الداء الأسود كان عقاباً إلهياً لمجامعة الرجال للعنزات والنساء للكباش محرّماً نوم العنزات والكباش في داخل البيوت. في كل يوم كانت قوافل من العربات التي تجرها الثيران تحمل

الحليب إلى المدينة من المزارع، وكان على سكان «كارالي» الاعتياد على دفع ثمن الحليب، ودأبوا، حتى دون وجود البهائم، على النوم ونوافذ البيوت مفتوحة أثناء الصيف. ظل الناس يعانون الداء الأسود المتوطن، لم يكونوا يموتون ولكنهم كانوا يلبثون جامدين في سكون تحت الظلال كالموتى.

استؤنف شن الغزوات مجدداً بعد ثلاثين سنة من التوقف.

كان كثير من السردينيين يعملون خدماً في حقول «كارالي»، حيث كانت المجاعات قد قضت على أغلبهم، وكان الفرسان قد سلبوا كل ما لديهم، وفي الوقت ذاته كان الرهبان والتجار يزدادون وزناً في المدينة. كان خدم كثيرون قد فروا إلى أرض القضاة حيث لا مكان للعبودية هناك.

كان القاضي «باريزوني» غريب الأطوار ورحالة وغشاشاً.

كان يقوم على إرساء العدل جالساً مسنداً كتفيه إلى حائط النبع في قصر القضاة في «أرباري»، بينما النساء كن يجئن ويذهبن في هدوء وهن يحملن الأباريق.

بينما كان ينصت للمتخاصمين، كان «باريزوني» يمضغ عشباً اسمه «كيف» كان قد أهدى بذوره إليه رجل عربي كان قد سلب «كارالي» واجتاز فوق صهوة الخيل مقاطعة «كامبيدانو» بمصاحبة ألف من المحاربين، ثم توقف أمام أسوار «أرباري» ليستريح قبل أن يعيد اجتياز الطريق ذاتها، ولكن في الاتجاه المعاكس. قام «باريزوني» ببذر البذور، وكان يبدو راضياً عن الحصاد، وكان العربي قد أهداه أيضاً لعبة تدعى «شاه»، ومنذ ذلك الحين صار القضاة مولعين بتلك اللعبة.

حضر رجل أمام القاضي وقال: «إني أمتلك قطيعاً في أرض (سيو)، وتمنعني زوجتي من حلب النعاج».

سأل «باريزوني»: «ومن يحلب النعاج؟».

«زوجتي».

«فلتبعث بها إليّ وسأخبرها قراري».

عقب سبعة أيام، وبينما كان «باريزوني» يلعب لعبة «شاه»، وللمرة الأولى كان لديه اعتقاد أن بإمكانه هزيمة «إيتسوكور» الذي كان قد أخطأ إحدى الحركات لثقته المفرطة في مهارته، ظهرت امرأة وصاحت: «أين القاضي؟ هل طلب حضوري؟ إن زوجي يقول إن القاضي يريد معاقبتي، وعلامَ يريد معاقبتي؟»

نجح «إيتسوكور» في إدراك التعادل، وولى «باريزوني» وجهه صوب المرأة وسألها: «لِمَ

لا تسمحين لزوجك بحلب النعاج؟».

«إنه يُدللها».

«كيف يدللها؟».

«إنه يعاشرها كالنساء، فصارت النعاج تعتقد أنها كالنساء وأصبحت تعطي لبنا أقل».

«ألا يُدللك زوجك؟».

«هاك الكسول؟ كلما ابتعد كان هذا أفضل لي».

«إن قررتُ إخصاء زوجك حتى يكف عن مضايقة النعاج فماذا تقولين؟».

«إنه يستحق ذلك، ولكني لا أطلب هذا؟».

«ماذا تطلبين إذن؟».

«أريد ألا يضايق النعاج».

«فلترجعي إليه وقولي له بأن يبتعد عن النعاج، إنه قرار القاضي، فإن مس النعاج فسيتم إخصاؤه، وأنت يا امرأة ستكونين مسؤولة عن مستقبل زوجك، إذا رجعت عندي ثانية فأنت تعرفين ما سأفعله».

كان «باريزوني» ينام قرب النبع، والنساء كن يهمسن بهدوء حتى لا يوقظنه. وصل إلى «كارالي» عجوزان يمتطيان بغلين. تركا البغلين خارج أحد الأبواب الثمانية للقصر وتوجها للداخل حيث أبصرا القاضي نائماً، جلسا بجواره ونظرا إليه، فتح «باريزوني» عينيه ورأى أن وجهَيّ العجوزين كانا متطابقين. كانا يبدوان وكأنهما الرجل نفسه في الثوب نفسه مرتين، التفت «باريزوني» إلى اليسار وإلى اليمين لينظر إن كان هناك «باريزوني» آخر... أخذت الفتيات حاملات الأباريق في الضحك، وفررن وكأنهن يرقصن. بعد أن تأكد من عدم وجود «باريزوني» آخر، لاحظ القاضي بعض الفروق بين العجوزين: فأحدهما كان ينظر بعين واحدة بينما العين الأخرى كانت لا تُرى تحت جفن مخيط. سأل القاضي وهو جالس وكتفيه إلى النبع:

«ماذا تريدان؟».

أجاب الاثنان في صوت واحد: «العدالة».

«فليتكلم كل واحد منكما على حدة من فضلكما».

شرعا في الجدال فيما بينهما بلهجة شرقية صِرفة وسريعة غير مفهومة للقاضي، وكانا يتكلمان دائماً معاً في الوقت نفسه ملوحين بأذرعهما في حركات معبرة. أوقفهما «باريزوني» صائحاً بصوت عالٍ كما كان يفعل مع الثيران: «إيه!»، فصمت الاثنان.

قال القاضي: «إنكما تتكلمان معاً».

بدءا يتجادلان من جديد، ولم يكن القاضي يفهم كلمة مما كانا يقولانه، فأَوقف الاثنين بصيحة كانت كافية لجعل قطيع كامل من الخيول البرية يتحجر في مكانه: «إيه»، سألهما إن كانا يفهمان لغة «أرباري»، فأومآ برأسيهما في إشارة بالموافقة. سأل القاضي: «هل يمكنكما التحدث بلغة (أرباري)؟»، فأومآ برأسيهما مجدداً بالموافقة. «إن فعلتما فسأكون شاكراً جداً لكما». تحدثا بلغة «أرباري» بسرعة ضعف العادية وبإيقاع منغم يفصل بين مقاطع الكلمات، أو كانا يصلان مقاطع كثيرة معاً في مقطع واحد مصدرين ضجيجاً يشبه أصوات الدجاج أو قطعان البهائم، وكانت المحصلة جوقة من الأصوات المتنافرة غير المفهومة. لم يكن باستطاعة «باريزوني» أن يفهم شيئاً ولو مقطعاً واحداً، فنهض واقفاً، فصمت الاثنان، فقال لهما «ابقيا جالسين هنا في انتظاري حتى أعود!»، فأومآ برأسيهما.

خرج «باريزوني»، واستلقى في الحديقة وغط في النوم. أيقظه بعد ساعة «إيتسوكور» العائد من إحدى جولاته ممتطياً جواده. فبينما كان كل الناس المنهكين من شمس الصيف يغطون في النوم تحت ظلال الأشجار، كان «إيتسوكور»، مرتدياً سرواله فقط، يمتطي جواده راكضاً عبر الوديان والجبال، ويدنو من كل عين ماء ليسقي جواده آملاً في أن يعثر على فتاة تستحم. بين الفينة والأخرى كانت بعض الفتيات يختفين من بيوتهن أثناء نوم الجميع، ويركضن وحيدات مسرعات خفية نحو النبع للاستحمام على أمل أن يرين «إيتسوكور». ولو سَأَلتَ فتاة منهن: «هل ذهبتِ إلى العين؟»، لأجابت بكلا وأن أخريات هن من يذهبن هناك، وإن سَألتَها: «هل كن يضاجعنه؟»، لأجابت: «كن يلهون». وإن سألتَها: «لِمَ تلهو تلك الفتيات مع (إيتسوكور)؟»، لأجابت الفتاة: «يُقال إنه كريم الطباع وطيب النفَس». ولكن يبدو أنه كانت هناك فضائل أخرى لـ «إيتسوكور» ولكن لم يكن

لفتاة أن تعترف أبداً بمعرفتها له إلى أحد الرجال، في الوقت الذي كانت الفتيات يتهامسن بهذا خفية في زاوية مظلمة بين ضحكاتهن المختنقة. أيقظ «إيتسوكور» «باريزوني» وسأله: «لِمَ تنام في الخارج؟»

«يوجد في الداخل رجلان، فاذهب واصطحب أحدهما إلى الحانة، ومُرهم أن يطعموه وأن يسقوه».

خرج «إيتسوكور» من القصر وهو يحمل أحدهما فوق كتفيه وكأنه حمل وليد وليس عجوزاً صامتاً مرتجفاً.

قعد «باريزوني» وكتفاه إلى النبع ونظر إلى العجوز الثاني الذي كان يرتجف أيضاً.

صمت «باريزوني» ونظر إلى العجوز نظرة حليمة حتى كف هذا عن الارتجاف، فابتسم القاضي وقال: «أيها الأخ، إنك آمِن، فلتأكل ولتشرب...! تستطيع الآن أن تبوح بما لديك».

«إنه يتهمني بأني اقتلعت عينه».

«وهل هذه هي الحقيقة؟».

«نعم، ولكني لم أفعل ذلك بغية في ارتكاب الشر. لم أستطع السيطرة على (توميندا)، فَرَكَلَته وأصابته في وجهه مقتلعة عينه».

«ولِمَ لا يريد أن يصفح عنك؟».

«يقول إني حاولت قتله لأتمتع وحدي بإرث أبينا».

«كم عمركما؟».

«يزيد عن المئة».

«ولِكَم سنة أخرى تظنان أنه يمكنكما البقاء على قيد الحياة؟».

«عندما حدثت الواقعة كان عمرنا ثماني عشرة سنة».

«ومنذ ذلك الحين وأنتما تتناقشان حول هذا الموضوع؟».

«في كل يوم».

«ما الإرث؟».

«عشر قطع ذهبية أخفيناها جيداً منذ يوم موت أبينا، وكان عمرانا حينذاك ست سنوات».

«ماذا سيحدث للقطع الذهبية بعد موتكما؟».

«لا يهم».

«سَتَتْرُكَ أخاك يقتلع لك عيناً بمجرد وصولكما للبيت، فهل توافق؟».

«لقد عرضت عليه هذا أيها القاضي».

«وماذا قال أخوك؟».

«قال إنه أفضل مني».

«فلتلحق به في الحانة، وأخبره أنه إن لم يقتلع لك عيناً فإن غضب القاضي سيكون قارساً وسريعاً كريح الشمال في شهر الجليد».

إن استثنينا بعض الأحكام المثيرة للجدل والانقسام الواقع في قلب أرض القضاة، فإن السنوات العشرين الأولى من حقبة القاضي «باريزوني» كانت بمثابة الجنة لنا، فكانت السنوات العشرين الأكثر ثراء وجمالاً لـ«أرباري».

بعد إحلال السلام بين «توريس» و«لونغوني» راحا يتبادلان التجارة مع البيزيين والجنويين والبروفينسيين والكتالونيين ومع العرب. حضر الراشدون من محيط قرية «أولّا» إلى القاضي طالبين الحماية من سكان «كارالي»، فأبلغ القاضي أسقف «كارالي» بعودة محيط «أولّا» إلى سلطة القضاة كما كان الوضع قبل مجيء الرومان، فلم يرفض الأسقف السرديني النسل والمولود في «دوليا» الطلب.

وصلت أراضي القضاة إلى تخوم أسوار «كارالي» الرومانية التي كانت أخذة في التآكل محاطةً بحركة بطيئة دؤوبة (ماعدا فترة القيلولة الطويلة عند ارتفاع الشمس) لمواطنين بيزيين كانوا يبحثون عن قاعدة لهم لممارسة التجارة وشن الغزوات، وكان هناك أيضاً الرهبان المنقسمون إلى أحزاب وعصابات، وأناس أميون لا يعرفون اللاتينية كثيرو الذرية،

ورسل أسقف روما الباحثون عن أفضل الطرق للفرار من المدينة في أسرع وقت ممكن، وتجار غلال من مدينة نابولي يجتازون الحدود إلى «أرباري» ليقيموا الولائم مع القضاة وليبتاعوا محاصيل كاملة لإطعام روما، وباغيات سريانيات كانوا يعتبرونهن عجائز في مدينة أسقف الأساقفة، وتجار ملح صقليون كانوا يهدمون الملاحات القديمة لبناء أخرى جديدة أكبر مساحة، وموسيقيون من منطقة «أراغون» الاسبانية ضيوفٌ على الأسقف، ومنشدون جائلون، وبحارة من كل الأجناس والأعراق، وشعب بالآلاف من اللصوص، وأفراد ذوو هيئة رثة منقطعون للتجارة بأشكالها كافة، وبقايا كل الغزاة السابقين الذين لا ينتمون لأي جنس آخر سوى ذلك الخاص بـ«كارالي».

كان في المدينة ملاذ يقع فوق جزيرة في منتصف المستنقعات به أكواخ وبيوت وكنيسة، وكان الأثرياء يهرعون إلى هناك فوق قوارب سريعة يقودها خدم أوفياء للاختباء في موطن الملاريا بمجرد سماعهم صراخ القائم على المراقبة وهو يزعق: «العرب». كان الناس يتفرقون فوق الشواطئ، يشربون حتى الثمالة، وينامون بين التلال الرملية، ثم يقوم العرب بخطفهم لبيعهم كعبيد.

كانت الأراضي الداخلية، الواقعة من «فيروتا» إلى تخوم «توريس» و«لونغوني»، تنتمي إلى «أرباري»، وكانت تلك المرة الأولى التي يزرع فيها رجال أحرار سهل «كامبيدانو» ليزدهر بالحدائق والفاكهة والغلال.

كانت المخازن تعج أيضاً بكل الخيرات، وكان الرب يبدو راضياً: فلم يصبنا قحط منذ عشرين سنة. أهدى «باريزوني» إلى الكاتدرائية مذبحاً من خشب البلوط قام بنحته الحرفي «أرسوكو»، وكان عملاً فنياً تشكيلياً أكثر منه قطعة من النجارة البسيطة. فقد تمكن «أرسوكو» من صنع مذبح يثير الإعجاب مستخدماً قطعاً خشبية مختلفة الواحدة منها عن الأخرى نوعاً وحجماً كان قد نحتها ولصقها بنفسه. في الجانب المواجه للمصلين كان هناك خط طويل وملتوٍ يتسلق فوقه «إيوسوس» وهو منحنٍ أسفل شجرة ضخمة، حتى أن

المذبح لم يكن ليسعها كلها. لم يكن هناك أحد أمام «إيوسوس»، أما من خلفه فكان يقبع ثمانية أشخاص يضحكون، كانوا ثمانية من الرومان لهم أسنان ضخمة كل سن منها أكبر حجماً بثماني مرات من قدم «إيوسوس» مما كان يثير بالتأكيد دهشة الناظرين الحاذقين أثناء إقامة القداس.

كان البحارة والتجار في «بوزا» يقصون حكايات عن مدن أسطورية تظهر إلى الوجود في العالم: عن مدينة مقامة فوق جزر تتصل كل منها بالأخرى بجسور ويسكنها رومان يحترفون القرصنة في كل بحار العالم ويخشاهم الناس في الشرق والغرب؛ وعن مدينة أخرى يتدارس ويتناقش فيها آلاف الرهبان، رجالاً ونساء، عن كل ما يمت بصلة إلى المعرفة المسيحية، وكان بعضهم ينظم الشعر ويتقن الرسم؛ وعن مدينة بين نهرين في مفترق طرق بين ثلاث عشائر لكل منها لغتها الخاصة ولغتان أخريان تتكلم وتكتب بهما؛ ويحكون عن مدينة تسكنها نساء شابات طويلات القامة كشجر البرتقال، ولهن بشرة بيضاء كالحليب، وأعين بلون البحر أو السماء.

كان «إيتسوكور» و«باريزوني» يقضيان ليالي كاملة يستمعان لحكايات عن العالم القابع فيما وراء البحر، ويحتسيان نبيذاً جديداً من «ماسانا» ونبيذاً عتيقاً من «ريولا».

قال «إيتسوكور» بصوت عالٍ أمام كاتدرائية «أرباري»: «أرغب في الرحيل إلى الجزيرة التي يدوم الليل فيها فصلاً كاملاً والنهار فصلاً آخر، وحيث يتحول البحر إلى حجر جليدي»، ضحكت «أرباري» طيلة أسبوع لهذا الأمر.

كانا «إيتسوكور» و»باريزوني» يعتقدان في قدرتهما على التنبؤ بالأحداث. عندما حانت الساعة المعتادة التي يمتطي فيها «إيتسوكور» جواده ليجول بين الينابيع، سأله «باريزوني»: «ألن تمضي إلى (سيورغوس) ؟». كان «إيتسوكور» قد أخذ يتردد كثيراً على نبع في جبال «سيورغوس» حيث كانت هناك امرأة شابة بات لون بشرتها أسود كالأفارقة من فرط استحمامها بمياه النبع، وكانت الفتاة تعطي بمهارتها الفطرية مذاقاً للهو يجعل

من الدم يتدفق في شرايين «إيتسوكور». أجاب «إيتسوكور»: «كلا! لن أذهب»، وكانت تلك المرة الأولى منذ شهور، ثم أردف قائلاً: «أشعر بأنه سيحدث مكروه إذا خرجت».

سأل «باريزوني» :«أنا أيضاً أشعر بهذا، فهل لي أن أخرج بدلاً منك؟».

«ولكن انتبه ألا تمر بالطريق المؤدية إلى «سيوروغ»»، فضحك «باريزوني» وخرج. كان «إيتسوكور» يشعر بالأمان في القصر وراح في نوم عميق. اصطفت الفتيات المفتونات في العين في حالة ترقب حتى يحل دور كل منهن لينظرن إلى النائم بينما يفيض الماء من الأباريق. كان «إيتسوكور» يخشى مكيدة من عائلة امرأة «سيروغوس»، فلم تكن تلك العشيرة رحيمة مطلقاً مع من يلهو مع فتياتها دون أن يسدد ثمن الزواج مسبقاً. كان «باريزوني» يعرف الحقيقة، وأن الأمر لم يكن يمت بصلة لعشيرة «سيروغوس». قاد القاضي اثني عشر فارساً، ووجد ثلاثة رجال كانوا متأهبين لعمل مكيدة خلف إحدى الصخور على الطريق التي كان يقطعها «إيتسوكور». لم يكونوا من «سيروغوس» ولا حتى من الجزيرة كلها، بل كانوا قطاع طرق من روما بعث بهم أعداء للقاضي يحسبون «إيتسوكور» شيطاناً وروحاً سوداء، أفضل فرسان «باريزوني»، وأول من ينبغي التخلص منه إذا ما أراد أحد القضاء على القاضي.

رغم أن أسقف «كارالي» لم يكن ليجرؤ على أن ينصّب أسقفاً لـ«أرباري» وُلِد خارج أرض القضاة، ولكن كان باستطاعته أن يرسل إليها رهباناً وراهبات. كان أولئك الرهبان والراهبات الذين ينتمون إلى شعوب ما وراء البحر يمثلون لبعض الشباب ما كان يمثله لـ«باريزوني» و«إيتسوكور» البحارة والتجار في حانات «بوزا»: كانوا أصواتاً تحكي عن مدن نائية. لم تكن روما التي يحكي عنها الرهبان أعجوبة معمارية، بل كانت تعج بالعصابات المسلحة، وكان في مقدرة أي رجل بارع أن يحصل فيها على الثروة خلال سنوات قليلة. كانت الشجاعة والجرأة صفتين ضروريتين بجانب الذكاء والمعرفة، وكان الحال قد انتهت ببعض شباب أرض القضاة إلى العمل في روما قتلة مأجورين في النزاعات المسلحة بين الأساقفة.

دفعت الخُطَب المتواصلة والسرية للرهبان الشباب إلى النظر بريبة إلى «باريزوني»، فلِمَ لم يكن يرغب في تسليم الإنجيل المنحول والشيطاني الذي كان يحتفظ به؟ كانوا يقولون: «إن (لوتشيفيرو) السرديني أسطورة... أين الأدلة التي بحوزتنا؟ إن (لوتشيفيرو) شيطان مشهور».

كان الرهبان يبذرون الضغينة، وكان «إيتسوكور» يبدو للكثيرين وكأنه الخطيئة ذاتها، فأمه كانت من «أرباري» وأبوه من «كتالونيا». كان أبوه قد رحل بعد ولادته، فرفضت أمه أن يعلنوها أرملة كما كان قد اقترح عليها الأسقف «سيرا»، وقامت على تربية ولدها. لم يكن «إيتسوكور» ينتمي لعائلة ذات نفوذ من عائلات «أرباري» التي أسسها قضاة يهتمون بالمال، والتي كان من نسلها يُولد القضاة، بل كان ينتمي لأم مُزارِعة من «أرباري» ولأب أجنبي مجهول.

كان «إيتسوكور» يعيش إلى جوار القاضي وكأنه أخ له، وكان الناس يعتقدون أنه يمتلك سلطة لم يمنحها له الراشدون ولا مجلس التاج.

كان يحتسي الخمر وكأنه سائق عربات أو تاجر من «سيو»، وكان يلهو مع الفتيات، وكانت العائلات تشكو منه بينما الفتيات تنكر هذا.

كان العداء له ينمو مما دفع حيّ «كانتارا»، حيث مقر أكثر الأديرة نفوذاً في «أرباري»، إلى إرسال ثلاثة راشدين إلى المجلس في مهمة محددة وهي اتهام «إيتسوكور» بأنه السبب وراء كل الشرور المحتملة. كان الراشدون يرتابون من «إيتسوكور»، ومن بين الأعضاء الأربعة عشر راشداً في مجلس التاج كان هناك عضو يمثل حي «كانتارا».

من يوم لآخر كان حزب «كانتارا» يزداد قوة، وبينما كانوا يخفون في العلن عداءهم لـ«باريزوني»، كانوا يتهمونه في اجتماعاتهم السرية بمخالفة تقاليد عريقة كثيرة. طلب ممثلو «كانتارا» أن يجتمع الراشدون بين الجبال كما كان يحدث في الماضي، واقترحوا هدم أسوار المدينة ومنحها إلى الناس حتى يقوموا بتوسعة بيوتهم. لحسن الحظ، لم يكن لدى أحد الرغبة أن يذهب إلى اجتماعات مجلس التاج في جوف

الجبال النائية، ولم يكن يرغب أحد في توسعة بيته.

كان «باريزوني» قد جَنّد شاباً من قرية «سيو» يُخلِص له حتى الموت ليكون ضمن الأتباع الأوائل لرهبان «كانتارا» ليخبره بكل ما يحدث لدى الأعداء، لذا فقد تمكن «باريزوني» من إفشال المكيدة ضد «إيتسوكور». عُثِرَ على شاب «سيو» الجاسوس مخنوقاً وفي فمه حجر بجوار نبع القضاة. بات «إيتسوكور» متوجساً، وكان يتحرك في أوقات وأماكن غير معتادة، وكان كل يوم يغير وقت خروجه وطريقه ووقت عودته، فنجى من ست محاولات لاغتياله. قال أحد الرهبان أثناء اجتماع سري إن «إيتسوكور» كان يتمتع بحماية شيطانية لأنه كان قد قرأ إنجيل «لوتشيفيرو».

قامت فتيات أرض القضاة بتغيير مواعيد ذهابهن للاستحمام في النبع، بل إن إحداهن كانت تذهب إلى النبع في منتصف الليل في وقت مرور الجائل هناك.

في السنة العشرين من حقبة القاضي «باريزوني» حضر إلى باب «أرباري» أسقف يصحبه مئة مسلح من سلالة مجهولة.

دخل المدينة بصحبة رجاله، وأخذ يتقدم فيها بين الأحجار والبيوت، وما أن وصل إلى ساحة الكاتدرائية حتى أمسكته ألف يد وحملته عنوة إلى القصر أمام النافورة، فتطلع إليه «باريزوني» و«إيتسوكور». سأله «إيتسوكور»: «من أنتم؟».

أجاب الأسقف: «ماذا فعلتم بحراسي؟».

أعاد «إيتسوكور» السؤال: «من أنتم؟».

أغمض «باريزوني» عينيه، فأجاب الأسقف: «أنا أسقف (كارالي) الجديد».

«ماذا تريدون؟».

«ماذا فعلتم بحراسي؟».

«إنهم يأكلون ويلهون دون سلاحهم... ماذا تريدون؟».

جلس الأسقف أمام الرَجلين وقال: «أيها القاضي أنتم تعرفون أن هذه الأرض تابعة

للإمبراطورية، وأن الإمبراطور «قسطنطين» أراد منحها إلى أسقف روما. ليس في نيتنا إرغام هذه الأرض على تغيير حكامها، ولكننا نرغب في أن نذكركم بأنه يمكننا منحها إلى أمراء طامعين في الحصول على مُلْك، ولكننا نفضل أن تتجنب حقولكم المزدهرة الحروب والدمار. يكفي أن تعترفوا بسلطة أسقف روما على هذه الأرض وعلى تاجكم، وأن تدفعوا ضريبة سنوية مقدارها اثنا عشر درعاً ذهبية لكل عشرين هكتاراً من المراعي والحقول».

صمت الأسقف ونظر إلى «إيتسوكور» الذي كان يتطلع إليه واجماً.

أجاب «إيتسوكور»: «أسمعتم؟».

قال الأسقف: «لماذا لا تجيبون؟».

نظر «إيتسوكور» إلى «باريزوني» وقال: «سيجيب القاضي إن أراد». لاحق الأسقف نظرات «إيتسوكور»، ورأى «باريزوني» واجماً وعيناه مغمضتان. نظر الأسقف مجدداً إلى «إيتسوكور» وسأل: «لِمَ لا يجيب القاضي؟».

«إنه لم يفهم السؤال».

أردف «إيتسوكور» عندما رأى الأسقف مندهشاً وقال: «إنه لا يفهم اللاتينية، فلقد أبى أن يدرسها».

«لماذا؟».

«كان يهوى ركوب الخيل والركض من (أرباري) إلى (غوروس) ثم العودة ثانية إلى (أرباري)، ولم يكن لديه وقت للدراسة».

«هل بمقدوركم أنتم ترجمة السؤال له؟».

«بالطبع يمكنني ترجمته، ولكني أحذرك يا قداسة الأسقف بأن القاضي سيكون ثائراً، فبمجرد أن بلغ إلى علمه أن مئة مسلح وواحداً قد غادروا (كارالي) قال: (إنه الأسقف الجديد وإنه سيطلب مالاً)، ثم انتفض ثائراً وأضاف أن (أراباري) لا تفرض الضرائب على أحد، وليس لديها نية لفرضها، وأن أي طلب للأساقفة الذين لا يتمتعون بأي حق على هذه الأرض للحصول على المال يفسد معدة القاضي. إن أراضي القضاة تنتمي للسردينيين

يا قداسة الأسقف، وإن السردينيين لا يحبون الضرائب».

«من شيد هذا القصر؟».

«كان قاضٍ قد شرع في بنائه ثم أتحد آخرون في ما بينهم وأنهوا البناء سريعاً».

«كيف تدبرون نفقات المملكة؟».

«ليس لدينا مملكة، إنها أراضي القضاة».

قال الأسقف: «أرغب في أن أوجه سؤالاً إلى القاضي».

سأل «إيتسوكور» بنبرة مُقْنِعة: «أأنتم متأكدون مما تريدون فعله؟»

صاح الأسقف: «أنا متيقن من نفسي ومن المسيح!»

كان القاضي مغمض العينين ساكناً لا يتحرك.

سأل «إيتسوكور»: «ما السؤال».

«نحن على استعداد لأن نُعفي هذه المملكة من الضرائب ثلاثمئة سنة في مقابل تسليمنا إنجيل (لوتشيفيرو) الشيطاني المنحول، إذا ما سَلَّمَه القاضي».

عقب «إيتسوكور»: «إن هذا ليس بسؤال». قال الأسقف غاضباً وهو يصر على أسنانه من الغيظ: «أستسلمون ذاك الكتاب اللعين أم لا؟».

قال «إيتسوكور»: «هذا هو السؤال إذن»، فانحنى وهمس في أذن «باريزوني». فتح القاضي عينيه، وطفق يعوي كأنه كلب يحتضر، وثب قائماً، وقفز لمرات كثيرة حول النافورة ناثراً المياه والوحل في كل اتجاه، ثم جلس مستنداً على قدميه ويديه وخرج من القصر وهو يكز على أسنانه.

سأل الأسقف بصوت خفيض بينما كان ينظر إلى ثيابه المبتلة والملطخة بالوحل:«أين يذهب؟».

رد «إيتسوكور»: «إنه غاضب».

«لماذا؟»

«كان قد قال إنه إذا ما كان الطلب الثاني لكم هو كتاب (لوتشيفيرو) فإنه سيقتلع أعيناً، ولكنه يدرك أنه لا يستطيع اقتلاع عين قداستك، لذا فقد انصرف ليقتلع عين أحد

ما ليهدأ من غضبه. كل خمس سنوات يحدث الشيء ذاته: يصل أسقف جديد، ويطلب مالاً وإنجيلاً، فيقتلع القاضي عين أحد ما لإنقاذ قداسة الضيوف، فلو كانت هذه الزيارة تتكرر كل عشرين سنة بدلاً من كل خمس يا قداستك لكنا أنقذنا عدداً ليس بالقليل من الأعين».

لم يقتلع «باريزوني» عين أحد، ولم يكن يفهم «اللاتينية»، فلم يكن أغلب سكان «أرباري» يفهمون اللاتينية، وكانت لغة جديدة قد وُلِدَت من لاتينية «لوتشيفيرو» وكنا نستخدمها ونستفيد بها في سعادة. قلة فقط من الشباب هم الذين كانوا يتابعون دروس الأسقف «سيرا» في «أرباري» والذي كان يراه «باريزوني» رجلاً عالماً حاذقاً باللاتينية، ولكنه كان عبوساً ومُملاً، ولم يكن ليحتمله أحد ولو ساعة واحدة سوى قديس أو مجنون.

كانت لكل قرية في أرض القضاة لهجتها الخاصة بها، وكان الجميع يعرفون لغة «أرباري».

كان «باريزوني» شخصاً تملؤه الهواجس، وكان يرى أساقفة وأناسا من «كانتارا» في كل مكان، ولم يكن أناس «كانتارا» بالطبع قدوة حسنة في سلوكهم. كانت «ميراس» راهبة من «كانتارا» وكان لديها حانوت لبيع الحلي والعطور على مسافة خطوة من قصر القضاة. كان الرهبان والراهبات يحتسون الخمر حتى الثمالة خلف الحانوت، وأحياناً كانوا يسمحون لأنفسهم بإتيان أفعال أكثر سوءاً.

أتخذ «باريزوني» قراراً بالرحيل عن أرض القضاة، فتم تكليف أربعة عشر فارساً بارعين في القتال بالسيف والخنجر بقدر براعتهم نفسها في التحدث بـ«اللاتينية» لمصاحبته، وغادروا وهم يرتدون ثياب رعاة: سروال أبيض قصير فوق الركبة ومنتفخ، وصدرية سوداء من الصوف مفتوحة عند الصدر وأحياناً ما كانت تزينها أحجار حمراء وزرقاء، ومعطف من جلد الغنم. استقلوا سفينة تاجر من «جنوة» بصحبة خمسين جواداً، وكان «إيتسوكور» مكلفاً بتدوين أحداث الرحلة. بينما كانوا يمرون بقرية تُدعى «سڤيڤا» غلبه شوقه لفتاة ابنة تاجر أقمشة. كان للفتاة شعر أشقر طويل مجدول في ضفيرتين ووجه وجسد قادران على أن يسلبا عقل حتى من لا يمتلك عقلاً، ولم يكُ «إيتسوكور» بالتأكيد

يمتلك عقلاً. وكانت الشابة الجميلة قد وقعت في غرام «إيتسوكور».

هجر «إيتسوكور» البعثة ولم يعد من بعدها إلى الجزيرة، ولم يدون أحد أحداث الرحلة. عاد «باريزوني» وثلاثة عشر فارساً فوق سفينة تاجر عربي، وقال «باريزوني» إن الإمبراطور «فريدريك بارباروسا» قد نصبه ملكاً على سردينيا، وأظهر وثيقة تشهد أن الإمبراطور كان قد تملك أرض القضاة، وأنه قد نصّب «باريزوني» مَلِكاً للسردينيين. أبدى مجلس التاج رفضه اقتراح التحول إلى مملكة، أما تابعو «كانتارا» المبتهجون للتخلص من «إيتسوكور»، الذي كانوا يعتبرونه خائناً لأرض القضاة، فقد اتهموا «باريزوني» بأنه مثل «كاليغولا»، وطلبوا منه أن يحدد موعداً لإعادة الخيول إلى مجلس التاج. قال «باريزوني»: «إن تسمية القاضي ستتم وفقاً للطريقة القديمة، فلن أعطي مهمة القضاء حتى إلى ابني، لو كان لي ابن، فليس لي أبناء ولا أرغب في الأبناء». كتب أيضاً رسالة إلى أسقف روما يؤكد فيها أن أي تنازل قديم عن أرض القضاة ليس له قيمة لأن أرض القضاة جزء من الإمبراطورية، ولأن القاضي هو مَلِكها بأمر موثّق ونهائي من الإمبراطور. كتب «باريزوني» أيضاً: «إن كان لزاماً علينا دفع الضرائب فستدفع تلك الضرائب إلى السلطة الإمبراطورية، وبما أن القاضي رجل طيب النفس ومسيحي مؤمن فأنه يرسل إلى قداسة أسقف روما ورأس الكنيسة إحدى عشرة فتاة بكراً لإلحاقهن بنظام الرهبنة بالإضافة إلى مئة نعجة عشراء حتى تعود بالنفع عليكم».

كانت الوثيقة الإمبراطورية والتي أظهرها «باريزوني» مزيفة، كما كان مزيفاً أيضاً مرسوم «قسطنطين» الذي مُنحت به سردينيا هبة إلى أسقف روما، وكانت الوثيقة قد كُتِبَت في حانوت رجل كان يبيع الكتب القديمة في مدينة «توبينغا» حيث كان القاضي والفرسان قد لبثوا بعض الوقت آملين في أن يتراجع «إيتسوكور» عن قراره. أما مرسوم الهبة فكان قد كَتَبه راهب في مدينة روما حوالي عام ألف، حينها لم يكن ثمة أثر باقٍ من «قسطنطين» ولا حتى ثرى عظامه.

كان «باريزوني» أول من قام بحساب الزمن، وكان يقول إنه كان قد التقى ببعض من تلاميذ رجل له هيبة يعيش في جزيرة في بحر الثلوج بين قوم ذوي شعور شقراء

وجلود جرداء. كان أعلم رجل في العالم وكان يعرف حساب عدد السنين والشهور والأيام والساعات التي مضت منذ مولد «إيوسوس» بدقة. بدأ «باريزوني» في أن يعد السنين مستهلاً تقويمه بعام 3016 قائلاً إن 3016 سنة قد خلت منذ غرق الكهنة الراقصين في «ماغوماداس».

داومنا ونداوم على ألا نعد السنين، ففيمَ يفيد عدها؟

كف «باريزوني» عن تولي أمر أرض القضاة، وهرب فترات طويلة من الوحدة في الجبل، ولم يكن ليستقبل أحداً إلا كارهاً وليس قبل أن يرجوه ويسألوه في ما له به علم. دامت الحال هكذا عشر سنوات حتى أتى إلى الراشدين ومجلس التاج بصحبة طفل ذي ست سنوات. كان «ماريانو» قد وُلِد في قرية جديدة في الجنوب، واقترحه «باريزوني» لتولي منصب القاضي خلفاً له، فرفض الراشدون. علّم «باريزوني» «ماريانو» عشر سنوات القراءة والكتابة باللغة السردينية، أرغمه على دراسة «اللاتينية» و«اليونانية» في كل مساء ساعتين مع «الأسقف سيراً»، علمّه أن يلقِّح كل أنواع النباتات، جعله يمتطي الخيل فوق جُروف الجبل المقدس، دربه على حلب الأغنام وجزّها ونسج الصوف، أخبره بكل ما كان يعرفه عن النبات والحيوان في الجزيرة، أرسله إلى حارس الزمن ليقص عليه الحكاية، وأخيراً اصطحبه إلى الراشدين رشحه قاضياً. وافق على «ماريانو» أربعة وتسعون، واختار «باريزوني» ستة من تابعي «كانتارا» وقد فعلوا هذا علامة تحدّ.

كف «باريزوني» عن تولي القضاء وعمره ست وخمسون سنة، أخذ أربعة خيول وجراب خبز ويقطينتين مملوءتين بالماء ورحل مستقلاً سفينة متجهة إلى «جنوة» محملة بالملح والجلود والجبن.

قص «ماريانو» الحكاية إلى طفل لكيلا ينساها، فلم يكن يستطيع أن يتذكر في كل مساء كل كلماتها في الوقت الذي كان عليه أن يحكم أيضاً، وقال بعد أن كان قد تولى القضاء باثني عشر يوماً فقط: «إن لدي رأساً واحداً».

صار «أرسكو» ابن الحرفي «أرسوكو»، صانع مذبح الكاتدرائية، حارساً للزمن وراوياً لفترة حُكم «ماريانو».

قال «أنطونيو سيتسو»:«سيكون عليك أنت أيضاً بعد ثلاثين سنة أن تقص الحكاية إلى أحد الحراس».

تطلعتُ إليه في وجوم.

سألني: «هل ستستطيع؟».

أجبت: «سأبذل قصارى جهدي ولكن ماذا إن مت قبل بلوغي ذلك العمر؟».

أجاب «أنطونيو سيتسو»: «يمكنك قص الحكاية ساعة موتك...إن فترة الثلاثين سنة هي مجرد اقتراح وليست إلزاماً. فقد ظل (ماريانو) حارساً للزمن لتسعة وعشرين يوماً فقط. لا تشغل بالك بهذا، فإن متَّ فربما سأكون أنا حياً وأحكيها للمرة الثانية، فمن أجل هذا السبب يصير الفرد حارساً للزمن في سن الثماني سنوات».

ابتسم «انطونيو سيتسو»، وقبل أن ألمح حركاتها كانت المرأة قد أحضرت إبريقاً من اللبن الطازج الممزوج بالعسل وقدحين من الخزف الأبيض الخالي من الزخرفة، فشربنا. لم يكن يُسمع أي وقع أقدام أو صوت إنسان في البلدة، فحَسِبتُ أن كل بلدة «مورغونجوري» كانت تطل علينا من النافذة في صمت وتصغي إلى صوت «أنطونيو سيتسو». هَدَّأَ التفكير من روعي وبدد مخاوفي في أن أموت قبل أن أتمكن من قص الحكاية.

-14-

كانت ثمانية عشر عاماً قد مضت منذ تولي «ماريانو» الحكم عندما مات الأسقف «سيرا» الذي كان مدرساً بـ«اللاتينية» و«اليونانية» لعشرات من الشباب الراغبين في المعرفة لدرجة جعلتهم يتحملون ذاك السأم المنيع لدروسه. لعشرات السنين ظل يتمتم على مهل كل كلمة في المدرسة وفي القداس، ومرات عديدة كان كثيراً ما يفقد سياق حديثه ليتوه في مناجاة ذاتية طويلة بـ«اللاتينية» وبصوت كان بمرور السنين يزداد جشاشة. مر الموكب الجنائزي في كل شارع في «أرباري» ثلاث مرات، هبط الجثمان إلى جوف الأرض بين مئات من المشاعل المتقدة وآلاف الأصوات المنشدة. فلقد أحبت المدينة الأسقف، وقد استشعرته محباً للخير رغم أنه كان أحياناً ما يصرخ بصوت هادر ضد رعاة غامضين كانوا يسمحون للذئاب بالهجوم على القطعان.

في الليلة الرابعة اللاحقة للطقوس الجنائزية ركضت مجموعات من الفرسان حول مبنى القصر وحول دار «ماريانو» وهم يصيحون: «الموت! الموت للملاعين». في الصباح وصل رسل من ثماني قرى أخرى مطالبين بأن يكف القاضي عن التمرد على أسقف روما، القديس ورئيس المسيحيين، وكانوا يرددون: «إن القضاة لا يمتلكون روح الإنسان... إن الروح تنتمي لـ(إيوسوس) ولُمثله على الأرض». رد «ماريانو»: «لقد سُمِعَت كلماتكم». قبل ارتفاع الشمس في السماء وصلت أنباء أن حشوداً من المسلحين كانت تخرج من «كارالي». غادر «ماريانو» «أرباري» بصحبة ثمانية من فرسان التاج دون رايات أو أبواق، وكانوا يمتطون خيولاً دون سروج، ويركضون عبر الطريق الروماني القديم بينما السعادة تغمر «ماريانو». كانت «إليونورا» من «سيو» تضحك وتحتسي نبيذاً فاتح اللون من «إيرسو» من يقطينة طويلة بينما كانت تقوم بحركات بهلوانية فوق صهوة الجواد

الراكض. ما كنا قد رأينا فارساً أبرع من «إليونورا» قَط. كانت فتيات «كانتارا» يقلن إن لـ«إليونورا» رائحة كريهة كالحصان المبلل بالعرق، وكن يرددن أيضاً: «إنه يُمكن شم رائحتها عند نبع القضاة بينما تقف هي على أعتاب (أرباري)». كان مسلحو (كارالي) يتقدمون ببطء، وكانوا يتوقفون كل ستمئة خطوة لعد الجنود وليتهامسوا فيما بينهم عن عادة القضاة في اقتلاع أعين السجناء. كانت خيول «أرباري» هجيناً من الخيول العربية والأخرى السردينية، سريعة وقوية، بينما كان الفرسان خفافاً بارعين. بلغ الفرسان التسع إلى قرية «موناستير» والتي كان يقطنها عبيد سردينيون وموريتانيون مُحَرَّرون. كان يقع هناك الحد الفاصل بين «كارالي» وأرض القضاة، حيث شيد القضاة كومة من الأحجار أمام القرية لترسيم حدود سيطرتهم، وأمام تلك الكومة جلس «ماريانو» وأتباعه منتظرين إلى أن وصل ثلاثة جنود من «كارالي»، فأوقفهم «ماريانو» وسألهم: «إلى أين أنتم ذاهبون؟».

أجابوا: «إلى (أرباري) لاصطحاب الأسقف الجديد لها». قال «ماريانو»: «سنصطحب نحن الأسقف، إنني القاضي». ابتعد الجنود الثلاثة مهرولين نحو «كارالي»، وبعد ثلاث ساعات ظهر رجل مترجل كان يتقدم بخطوات واسعة، كان طويلاً وقوي البنية كشجرة بلوط عمرها ثلاثمئة سنة، وكان يرتدي جلباباً خفيفاً فاتح اللون. رأى التسعة أنه كان ذا بشرة بيضاء وله شعر أسود طويل يتدلى فوق كتفيه ولحية سوداء لا تختلف عن لِحى سكان «أرباري». حين اقترب وبات على مسافة خطوة منهم لاحظوا أنه كان أكثر منهم طولاً بمقدار ذراع وكانت له عينان بلون براعم النعناع. سأل الرجل: «من القاضي؟». تقدم «ماريانو» منه ورمق بفضول عيني ذاك الأجنبي، فابتسم الرجل قائلاً: «أنا «بانتاليو» أسقف «أرباري».

سأله «ماريانو»: «من أي بلد أنت؟»

أجاب الأسقف: «من أراضي (كارنيا)... من بلد بعيد جداً عن هذه الأرض».

سأل «ماريانو»: «من هي عشيرتك؟».

أجاب «بانتاليو»: «إنهم مزارعون ورعاة». أخذا الاثنان يمشيان وهما يتبادلان أطراف

الحديث، بينما قام الفرسان الثمانية بملاحقتهما في صمت، وكانت الخيول تتبعهما في المؤخرة. توقفا في حديقة برتقال، فاقترب المزارعون منهم، التهم الأسقف سبع برتقالات وقال: «لم أتذوق شيئاً مثيلاً قط»، قال المزارعون: «إنه «أُورانغو تاورينو»»، فترجم «ماريانو» ما قالوه: «إنه نوع من البرتقال اسمه «تاوريني»». استأنفا سيرهما وقص «ماريانو» إلى الأسقف «بانتاليو» قصة مدينة (تاورو)»[1]. سأل الأسقف: «هل تعطونني الأعشاب التي تحمي من الحشرات المعادية الناقلة للأمراض؟»، فوافق «ماريانو». هبط الليل وكان قد تصادف وجودهما في حديقة خوخ أكثر شبهاً بالعجلات منه بالكُرات، ثمرة مستوية عند الذُنيب ذات قشرة وردية ومغطاة بالزغب ولبها أبيض ولها شذا. قعد «بانتاليو» وأكل، كان يبدو نهماً وكأنه لا يشبع أبداً. قالت «إليونورا»: «لا يدهشني جوعه المستمر، فهذا الرجل يسير بسرعة جواد يعدو»، ضحك «بانتاليو» . قدم له «أروسكو» يقطينة مملوءة بنبيذ «ريولا» المعتق منذ عام الذي كان دائماً ما يحمله معه، وكان يقول إنه لولا ذلك النبيذ لكان نسي الحكاية. شرب «بانتاليو» وراح منذ مغادرتهما الحديقة وحتى بلوغهما أسوار «كارالي» يتحدث عن الكَرم، وعن النبي نوح وعن الصَدَقة وعن الجليد وعن الصقيع الأبدي في الوديان المطلة على الشمال، عن سحر النيران وعن شجاعة الراعي الذي يصعد إلى أعالي الأنهار الجليدية عند ذوبان الثلوج للبحث عن الكلأ، وعن رشاقة الأبقار في «كارنيا» والتي تتمكن من السير في مناطق لا يقدر على السير فيها سوى الماعز. اقترحت «إليونورا» على الأسقف تعلم ركوب الخيل، أجاب «بانتاليو» بأنه يعتقد أن قدميه أفضل من أَرجل أي جواد، ولكنه كان على استعداد للتعلم، لكن للأسف كان يخشى من أن تلامس قدميه الأرض إذا ما أمتطى أحد خيولنا، فإن أرجله كانت طويلة أكثر مما ينبغي لخيول ضئيلة كتلك. امتطى صهوة الجواد على سبيل التجربة، وكان بالكاد فعلاً لا يلامس الأرض، فضحك وضحك الجميع. على أعتاب «أرباري» توقف «بانتاليو» وقال: «إن الرجال الذين يعرفون زراعة البرتقال والخوخ وصناعة نبيذ حلو للغاية وقادرون على مصاحبة الآخرين في مودة وسعادة لا يستطيعون اقتلاع أعين جيرانهم». أجابت

(1) تقع مدينة تاورو في إقليم كالابريا في جنوب إيطاليا.

«إليونورا»: «إذا ما حاول رجل أن يلهو معي دون رغبتي فسأقتلع عينيه». قال «بانتاليو»: «أيتها النساء، إنكن لا تعدمن حيلة!». ضحكوا جميعاً بينما يدخلون «أرباري». كان تابعو «كانتارا» يترقبون حصار «كارالي» لـ«أرباري»، واستسلام القاضي ثم تنصيب الأسقف بقوة السلاح، وكانت ست عائلات من «أرباري» وثماني قرى متأهبة للتمرد. كانت المفاجأة كبيرة، «ماريانو» و«إليونورا» و«بانتاليو» كانوا جميعاً يجلسون مع بزوغ الفجر بجوار النبع في قصر القضاة، ويتبادلون أطراف الحديث ويتسمون. سأل الأسقف: «هل وافقتِ يوماً على أن يلهو معك رجل؟».

«كلا، أيها الأب، ولن أوافق أبداً».

«لِمَ؟»

«إني أحب ركوب الخيل وليس إنجاب الأبناء».

كانت «إليونورا» في ربيعها السادس عشر، ابتسم الأسقف. عند وصوله إلى مذبح «أروسكو» خر راكعاً وانهمك في الصلاة ثلاثة أيام بلياليها.

لم يحدث ما كان يتمناه تابعو «كانتارا» من حصار وتمرد، فقد اتضح أن الأسقف الأجنبي الذي كانوا قد انتظروا وصوله طويلاً صار عوناً لـ«ماريانو». كان «بانتاليو» يبدو سعيداً بالحياة في أرض القضاة. كثّف تابعو «كانتارا» من اتصالاتهم مع «كارالي»، وأخذ أحد الرجال بزمام المؤامرة، كان من مدينة «بيزا» وكان أسقفاً لمدينة «كارالي» في وقت كان فيه المواطنون البيزيون يزدادون نفوذاً في كل يوم. أعاد البيزيون ترميم الأسوار، وشيدوا برجين شامخين من الحجر لمراقبة البحر ومنطقة «كمبيدانو» المحيطة: وجُعِلت بوابات المدينة المحصنة أسفل البرجين.

كان الرب رحيماً، ولمدة ثلاثين عاماً لم تُصب الجزيرة بالقحط، ولم يظهر الجراد، وكان يبدو وكأن كل الطفيليات قد اختفت من الوجود، وكانت تمطر بما فيه الكفاية، فحظي «بانتاليو» سريعاً بشهرة قديس. في أحيان كثيرة كان يأكل ويشرب ضاحكاً مع رجال ونساء أرض القضاة، ولأحيان أخرى كان لا يبرح الكنيسة لأيام ولأسابيع مصلياً دون أن يأكل أو ينام، وكان قلما يشرب الماء. فقد حزب «كانتارا» في «أرباري» الكثير من

مناصريه، كانوا قد انصرفوا عنه بعد أن رأوا أن القديس ممثل المسيح على الأرض لم يصبح رئيساً لهم بل بات صديقاً لـ«إليونورا».

حضر الراشدون من ثلاث قرى من منطقة «غادورا» و«توريس» أمام القاضي، وطلبوا أن يتم قبولهم في أراضي «أرباري». كانت البهائم تزيد وتتناسل، والأشجار تثمر ثمراً طيباً، وكانت الينابيع تفيض بالمياه، والأرض تزداد اسمراراً وخصوبة، والسنابل تهمس بأغانٍ لخبز طيب وفير.

كان «ماريانو» يقيم العدل في كل مكان في أراضي القضاة من أقصاها لأدناها ممتطياً صهوة جواده، كان بإمكان من لديه شكوى أن يوقف القاضي في أي لحظة.

بلغ «ماريانو» و«إليونورا» و«أرسوكو» قرية «سيو» مع غروب الشمس، قضوا ليلتهم في حانة بعد أن التهموا خنزيراً برياً واحتسوا جرة من نبيذ بلون البرقوق وله عبق زهر شجر اللوز. عند الفجر حضر رجلان أمام القاضي كانت «إليونورا» تعرفهما، فضحكت ثم هربت.

سأل «ماريانو»: «من تكونان؟».

قال «باينزو»: «أنا «باينزو».

قال «بوبوري»: «أنا (بوبوري)».

أشار القاضي إلى «باينزو» بالتكلم، فقال «باينزو»: «لقد سَرَقَ مني فأسي».

عقب «بوبوري» سريعاً: «هو الذي سَرَقَ جاروفي».

فقال «باينزو»: «لقد سرق مني الجرافة».

فعقب «بوبوري»: «لقد سرق غنمي».

فرد «باينزو»: «لقد سرق البقر».

فقال «بوبوري»: «لقد سرق وعاء اللبن».

فرد «باينزو»: «لقد سرق ثلاثة براميل من نبيذ «مونيكا» وبرميلاً من نبيذ «موسكاتو».

فعقب «بوبوري»: «لقد سرق مني ثلاثة غرابيل»، واستمرا على هذا المنوال وهما يتحدثان عن أوعية خشبية وثمار يقطين وكلاب وماعز وعجول وخراف وليمون وجلد أفاعي ومزمار وطبول وأَخَوات وسرائر ومفارش وعنب الكرم وجوز. دامت الحال هكذا ساعة.

قال «بوربوري»: «لا بد أن هناك شيئاً آخر...ولكن من المستحيل تذكر كل شيء».

اتفق «باينزو» معه على هذا: «هذا صحيح، من المستحيل تذكر كل شيء».

أشار «ماريانو» إلى الاثنين بأن يقتربا وقال بصوت أجوف: «إنكما مجنونان ولا أحد يمكنه إصدار حكم على المجانين. آمر على كل حال بأن يسير (باينزو) غداً إلى دار (بوبوري) وأن يتصرف هناك كسيد للدار كما هي الحال في الحقيقة، فكل شيء هناك هو مِلك خاص به، ويذهب (بوبوري) إلى دار (باينزا) وأن يتصرف بالطريقة نفسها، وفي اليوم التالي سيعود كل منكما إلى داره، وفي ما بعد، كل يومين، سيعيش كل منكما يوما في بيت الآخر».

قال «بوبوري»: «إذا ما مت أنا أولاً فسأخسر نتيجة هذا».

وافقه «باينزا»: «هذا صحيح».

ختم «ماريانو» حديثه قائلاً: «إذا ما مات أحدكما فسيفقد الحكم قيمته ويتوقف تنفيذه، وإذا ما حاول الطرف الباقي على قيد الحياة الاستيلاء على أملاك الآخر فسيُعرِّض نفسه لغضب القاضي».

قام القاضي بتحصين أسوار مدينة «أرباري» وطلب من مجلس التاج أن يتم تدوين كل قوانين القضاة الباقية في الذاكرة، فشرع ثلاثة رجال من المجلس في كتابتها.

كانت السنون تمر، ولم ينجح الرخاء ولا السلام من تخفيف غضب تابعي «كانتارا»، فتآمرت ست عائلات على قتل الأسقف «بانتاليو» لأنه كان يمثل عقبة أمام اندلاع الحرب وفرض سيطرتهم. كان لـ«ماريانو» أعين بين المتآمرين، فتم القبض على سبعة رجال مُلثمين كان ينتظرون «بانتاليو» في أحد الأزقة مسلحين بالسيوف والخناجر، وتم تعليقهم خارج الأسوار في أقفاص خشبية. أيدت «إليونورا» أمام المجلس اقتراح الحكم على

المتآمرين السبعة بالنفي، ولكن المجلس آثَرَ العفو عنهم. صار المهانون السبعة الذين أُطلِق سراحهم رؤساء للمؤامرة، وباتوا في نظر تابعي «كانتارا» أبطالاً وأضحت «إليونورا» هدفاً لكراهيتهم، فهي لم تكن تنتمي لأي من العائلات العريقة للقضاة، بل كانت راعية غنم عندما التقاها «باريزوني» بينما كان يلقي على «ماريانو» بعض الدروس. دفع الفضول بالراعية الصغيرة لملاحقتهما، وقرر «باريزوني» ألا يطردها، وباتت الراعية كظلٍ لـ«ماريانو» منذ ذلك اليوم. كانت الشائعات المغرضة تهمس في السوق بأن «ماريانو» و«إليونورا» يتصرفان كزوجين ولكن خارج شريعة الكنيسة. كانت تلك شائعات تصدر عن رجال ونساء يبدون في الظاهر متزوجين كأي تابعين أوفياء لشريعة «إيوسوس»، ولكنهم في الحقيقة كانوا منقطعين فقط لممارسة الرذائل، وكانوا من مرتادي عيد «بوزا» حيث كان المجون يتواصل هناك ثلاثة أيام، وقد عادت للظهور من جديد ثياب عيد «كوي» القديم.

كان «ماريانو» و«إليونورا» قد ترعرعا تحت ظلال المعرفة، وكانا قد انقطعا لزيادة رخاء أراضي القضاة، ولم يكونا يبحثان عن زوج وزوجة. كانا يرتحلان معاً، ويعيشان معاً ليل نهار، ولم تكن ترد بخاطرهما أي رغبة جنسية نحو الآخر، كانا يحلمان وربما كان هذا كافياً لهما، وعند اليقظة كانا ينسيان أحلامهما تلك.

مات أبو «إليونورا»، فعادت إلى «سيو» لتحضر الجنازة. عقب ثلاثة أيام رحلت لـ«أرباري»، وحاول ثلاثة رجال قتلها بالقرب من نبع «فروريس». قُتِل اثنان، واستسلم الثالث بعد أن جُرِح في ساقه اليسرى، فقامت «إليونورا» بتقييده، ووضعت عصابة على عينيه، وأخفته في أحد الكهوف، واستأنفت رحلتها. تركت حصانها في أحد حقول «سيمايس»، وارتدت معطفاً من جلد الغنم، وواصلت رحلتها مترجلة كسائر المزارعين الذين كانوا يعودون إلى المدينة من الحقول في تلك الساعة. بلغت «أرباري» بعد حلول الظلام، دخلت بيت القاضي دون أن تستأذن، فأيقظته وقصت عليه ما حدث، ثم رحلت ثانية في جنح الليل إلى «سيمايس» واستعادت حصانها، وركضت مسرعة إلى الكهف.

ذهب «ماريانو» نهارا ليلتقي أعضاء مجلس التاج الثلاثة عشر، وقال لكل منهم: «لقد قُتلَتْ (إليونورا)، سأذهب لأرى جثمانها». كان رئيس جماعة «كانتارا» أحد الأعضاء الثلاثة عشر، ابتعد ممتطياً جواده، وبلغ مزرعة أغنام ليست ببعيدة عن قرية «ابازانتا»، ولكن كان هناك أحد ما يلاحقه. اتجه «ماريانو» إلى الكهف، ووضع القتيلين فوق فرسين ثم رحل بهما، وكانت «إليونورا» تتبعه عن قرب وبصحبتها الجريح. اقترب «ماريانو» من المزرعة التي كان يوجد بها زعيم جماعة «كانتارا»، الذي بمجرد أن سمع صوت عدو الخيل خرج من المزرعة ووقف لينتظر مبتسماً، ولكن ما أن لمح «ماريانو» حتى كف عن التبسّم. سأله القاضي عارضاً عليه القتيلين: «هل كنت تنتظر هذين؟».

أصاب الشحوب وجه الرجل، ولكنه أجاب بالنفي.

تَرَجَّل «ماريانو» وقال للرجل: «فلتقعد! أرغب في التحدث إليك».

سأل الرجل: «لِمَ لا تتكلم؟».

أجاب القاضي: «أبحث عن الكلمات...». ثم أضاف: «سأتكلم...سأتكلم، فلكل كلمة أوانها».

سمعا عدو فرسي «إليونورا» والجريح اللذين وصلا أمام القاضي وزعيم جماعة «كانتارا».

قال الجريح مشيراً إلى زعيم «كانتارا»: «هو من دفع لي».

رأى مجلس التاج أن كلمة قاتل مأجور جريح، ربما كان مُهدَّداً أو خائفاً من الموت، لم تكن كافية لإدانة أحد أعضاء المجلس وتمت تبرئة زعيم جماعة «كانتارا». حسبه أتباعه رجلاً شجاعاً لأنه حاول أن يقوم بقتل «إليونورا» وداهية لأنه كان قد اشترى عضوين من المجلس عَمِلا من أجله ونجحا في إقناع الأعضاء المترددين ببراءته.

مات «بانتاليو» بعد مرور ثلاثين سنة من توليه الأسقفية، فهبط الآلاف من الجبال لحضور الموكب الجنائزي، وكان تابعو «كانتارا» يسيرون في ذيل الموكب وهم يتظاهرون

بالحزن ولكنهم في الحقيقة كانوا يحتفلون بينما الشعب يذرف الدمع.

خلف «بانتاليو» أسقف من مدينة «بيزا»، حضر إلى المجلس مرتدياً زياً أبيض وذهباً براقاً، على رأسه تاج وفي يديه عصا، وأعلن أن ليس لـ«ماريانو» أبناء ولذا فإن الحُكم بعد وفاة القاضي سيعود لقرار الكنيسة طبقاً لِما كان يجب أن يكون وفقاً لمرسوم الهبة للإمبراطور «قسطنطين»، فاحتفل تابعو «كانتارا» في عيد «بوزا» محتسين سبعين برميلاً من نبيذ «ماغوماداس».

تبدلت الأحوال، فلم تمطر من شهر فبراير إلى أكتوبر، في نوفمبر اجتاح الفيضان، وأتى الحصاد شحيحاً وسيئاً، وكان النبيذ قليلاً، ولكنه طيب للغاية ومناسب لتخفيف عناء الفقر، مرضت النعاج وكفت عن الإنجاب.

في العام التالي وصل جراد «بارباريا» الأسود والنهم، ولم يتمكن أحد من صنع الخبز فأكلنا جوز البلوط.

أمر مجلس التاج «ماريانو» بالبحث عن زوجة وإنجاب الأبناء، فأبدى أربعة أعضاء من المجلس اعتراضهم («إليونورا» وتابعو «كانتارا»). طلب «ماريانو» من «إليونورا» أن تتزوجه فقبلت «إليونورا».

أمر «ماريانو» بتشييد كنيسة بيضاء فوق تل قريب من المستنقعات، بنوها مستخدمين أعمدة معبد روماني قديم واحتاج البناء لأربع سنوات. طلب «ماريانو» و«إليونورا» من الأسقف أن يزوجهما في الكنيسة الجديدة، فقال الأسقف: «ترغب الكنيسة في التأكد من أن الأبناء سيكونون من صلبي (ماريانو) و(إليونورا)، إن أقسمتما بأن تتيحا لي التحقق من هذا فسأزوجما».

أقسما.

منذ ذاك اليوم أخذت أربع راهبات في مصاحبة «إليونورا» في كل مكان، وأثناء الليل كن يشعلن شمعدانات ذات ثلاث عشرة شمعة بجوار الحبيبين ليتأكدن من عدم اقتراب أي شخص غريب، وبين الفينة والأخرى كن يطلبن لمس وجهيهما وصدريهما حتى

يتحققن من أنهما «ماريانو» و«إليونورا»، وفي أوقات أخرى كن يلمسنهما ليتأكدن من عدم وجود قرن «لوتشيفيرو» مُخصِّب الإناث. تبدلت الأحوال، وصارت تمطر في الوقت المناسب، كانت الشمس تزيد من حلاوة الثمار، وكان الماء يجعلها غضة. طلبت قرية من «غدورا» أن تتمتع بحماية «أرباري». كانت مقاطعة قضاة الشرق تتفكك، وكانت كل قرية فيها بأراضيها وأشجارها وينابيعها وديارها ورجالها وبهائمها تنتقل إلى أرض القضاة. وَلَدَتْ «إليونورا» «أُوغوني» عقب سنة من الزواج، فاحتفل السردينيون باحتساء الخمر حتى الثمالة ثلاثة أيام، لأنهم كانوا يحسبون هذا ضماناً لحريتهم في المستقبل بعد أن استسلموا لفكرة ضرورة أن تتولى عائلة الحكم وراثياً في أرض القضاة. ورغم بلوغه العامين من العمر لم يكن «أوغوني» يعرف المشي، ولم يكن ينطق ولو بكلمة واحدة، كان على الحالة التي سيكون عليها عند بلوغه الرشد: بليد العقل والجسد. حاول «ماريانو» و«إليونورا» أن ينجبا محاطَين بالراهبات اللائي كن يشعلن الشموع ويتحققن بأيديهن من عدم لجوئهما إلى حيل أو ألاعيب. عند بلوغه العام الثالث كان «أوغوني» يعرف المشي، وينطق بكلمة واحدة: «الرَبّ». كان يبول على نفسه، ويعيش محاطاً بالراهبات اللائي كن يربينه في دير «كانتارا»، ويمنعن «إليونورا» من الاقتراب منه. وبينما كان «ماريانو» و«إليونورا» المحاصران من الراهبات يحاولان أن ينالا حظهما من الأمومة كانت الراهبات يبتهجن لعدم تكرار المعجزة. في سن السابعة كان «أوغوني» يستطيع ترتيل ثماني صلوات، ولم يكن يفهم سوى تسع جمل من عشر يسمعها، ولم يكن يعرف ركوب الخيل. كان «ماريانو» و«إليونورا» الملموسان من الراهبات يحاولان أن ينالا حظهما من الأبوة. كانت الراهبة الموريتانية الشابة «سينّا»، القادمة من «سيرباريو»، تزعم أن ملامستها لهما كانت تمنع عملية التخصيب، لم تكن تعرف شرح الأسباب ولكن الأسقف البيزي صدقها وأمرها أن تواظب على ملامستهما. في الثامنة من العمر لم يكن «أوغوني» يستطيع الأكل بمفرده، وكان ينخرط في البكاء من الخوف عند مقابلته لأبيه، ولم يكن يستطيع أن ينطق أمامه بكلمة. دأب «ماريانو» و«إليونورا» على المحاولة في ظل مراقبة وملامسة «سينا» الراهبة الوحيدة التي ظلت تراقبهما لأنهم كانوا يعتقدون أن لها

قوى خارقة مانعة للإنجاب. في سن التاسعة لم يكن «أوغوني» يتمكن من الخروج بمفرده، كان يضل بين أزقة «أرباري» ثم يبكي بينما يتساقط المخاط من أنفه، وكان الأطفال يتطلعون إليه في دهشة. كان «ماريانو» و«إليونورا» لا يكلان من إعادة المحاولة. عند حلول الصيف طلبت سينا أن تتجرد من ثيابها بسبب القيظ، فوافق القاضي على طلبها. في العاشرة من العمر كان «أوغوني» يخشى الأغنام وما أن يبصر نحلة حتى كان يهرب ليختفي بين ثياب الراهبة «إيزابيلا» من «ماكومير» والتي كانت قد طمأنت «أوغوني» بأنه لم يكن ليصيبه مكروه بين ثنايا ثيابها. دبرت «إليونورا» خطة واقترحتها على «ماريانو»، فوافق «ماريانو» عليها، وأخبر الأسقف بأنه كان يفضل أن يعهد بأمر الحكم إلى مجلس التاج ثلاث سنوات لأنه كان يريد أن يختلي بزوجته في بيت في الجبال. ظن الأسقف أن اللعبة كانت قد انتهت وأن «ماريانو» كان قد كَلَّ وخسر، فوافق الأسقف، ولكن شكاً أخيراً جعله يقول: «لكن ستصاحبكما الراهبة (سينّا)». في الحادية عشرة من عمره كان «أوغوني» يظن أن وحوشاً دامية تختفي بين جنبات دير «كانتارا» تريد التهامه، كان يجد الراحة والطمأنينة بين ثنايا ثياب «إيزابيلا»، هناك فقط حيث لا يراه أحد كان الدفء والعبير الطيب. رحل «ماريانو» و«إليونورا» وراهبة المراقبة. خلال الشتاء وفي مستهل الربيع لم يكن يرغب أي من «ماريانو» أو «إليونورا» في الآخر، أصاب «سينّا» الملل، وكانت تبغي أكثر منهما أن يستأنفا علاقتهما. لم تكن تعترف حتى إلى نفسها بأنها كانت تستمتع بهذا، كانت تخال أن الاستمتاع الوحيد يكمن في إتمام العمل المكلفة به. كانت الدار بيضاء صغيرة بجوار جدول ماء. في كل يوم كانا «ماريانو» و«إليونورا» يمشيان، ويمتطيان الخيل في أعلى وأسفل الجبال والوديان، أما «سينّا»، المُرغمة على ملاحقتهما، فكانت تتمنى أن يتوقفا، وأن يقررا خلع ملابسهما. اعترفت يوماً بكلمات خجولة لـ«إليونورا» بأنها ترغب في أن يستأنفا علاقتهما حتى تتمكن من القيام بواجبها كراهبة. في منتصف الربيع اعتاد «ماريانو» و«إليونورا» على الاستحمام في الجدول وتجفيف نفسيهما تحت أشعة الشمس، لم تجد «سينّا» سوءاً في تقليدهما. عند حلول الصيف، فوق المرج، كان «ماريانو» و«إليونورا» يتبادلان الغرام على مقربة من الجدول، تجردت «سينا» من ثيابها

بسبب القيظ الشديد وعادت لممارسة مراقبتها بالدقة المعتادة عليها، ظلت تراقب لأيام ولليالٍ. امتزجت بالعشيقين، لم تبدِ «سينا» اعتراضاً حينما أمسكها «ماريانو»، كانت قد نست من تكون، فمن الفجر إلى الغروب كانت ترى أمامها جسد القاضي، وفي الليل كان يراودها في أحلامها. عندما أمسك بها «ماريانو» أحست بالمتعة الجسدية وكانت سعيدة بها، فقد كان الانتظار عصيباً والإعداد مضنياً. عقب شهر علموا بأنها ربما تكون قد حملت. لم تكن «سينّا» التي قد نسيها العالم ترغب في شيء سوى ملامسة جسدي «ماريانو» و«إليونورا». في الأشهر الثلاثة الأخيرة من الحمل لم تتحرك، وأبت أن يلمسها أحد مذعورة مما كان يحدث وخائفة من العقوبات الأسقفية والإلهية، ولكنها كانت تأكل وتشتهي كل أنواع الطعام، كانت تشرب وتنشد، تبكي وتضحك دون مبرر. وضعت ولداً سموه «ماريانو»، هدّأت ولادة الطفل من روع الراهبة فلم يكن باستطاعة أحد أن يرى بطنها التي كانت تفضح الخطيئة التي ارتكبتها. أرضعت «سينّا» «ماريانو» الصغير، واستأنفت القيام بواجبها في المراقبة، ودون أن تعي كيفما حدث حملت للمرة الثانية. وضعت «مارتينا» وأرضعتها. عند نهاية السنوات الثلاث استأجرت «إليونورا» ثلاث مرضعات، وعاد «ماريانو» إلى المدينة بصحبة ابنيه. أقسمت «سينّا» إلى الأسقف: «لم يكن في الدار غيري بصحبة الزوجين، ليس هناك شك في ذلك». لم يُصِب القلق الأسقف، فقد كان الوريث المُخطط له في متناول يده. في سن الرابعة عشرة كان «أوغوني» يبول في الفراش، ولايزال يختفي بين ثنايا ثياب الراهبة «إيزابيلا عند سماعه دوي الرعد، ولم يكن يعرف القراءة ولا الكتابة، ولم يكن يعرف ما الأغنام، وكيف يحدث التناسل. وحيث إن «ماريانو» الصغير و«مارتينا» لم يكونا الابنين البِكرِيِّين، فقد تجاهلهما الأسقف وأتاح لهما هذا أن يترعرعا في هدوء. حافظت «سينّا» على القيام بواجبها في المراقبة ولكنها طلبت من القاضي أن تتخذ وسائل للوقاية، فلم يكن لها أن تحمل أمام الأسقف. مات الأسقف البيزي، تحرك موكب جنائزي بطيء من «أرباري» إلى «كارالي» حيث نُقل الجثمان فوق سفينة لدفنه في بلده التي قدم منها. لم يكن خليفة الأسقف يعرف «سينّا» ولهذا بعث بأربع راهبات جديدات ليؤدين المهمة نفسها. تخلت «سينّا» عن الرهبنة، وأمضت بقية عمرها

في بيت القاضي أختاً له حتى نهاية حياتها.

عقب زواج «ماريانو» ولمدة سبعة وثلاثين عاماً كان الرب رحيماً بأرض القضاة. صار الناس أكثر ثراء في الوادي والجبال، كانت المياه غنية بالأسماك، والفاكهة طيبة، والحياة هانئة. طلبت قريتان من «توريس» الاتحاد مع أرض القضاة.

في عيد «أرباري» في كل ربيع كان الفرسان يلتقطون بِرؤوس رماحهم اثنتي عشرة نجمة باعتبار ذلك فألاً حسناً لعام وفير[1].

كان «ماريانو» بمثابة أب للقرى، يذهب في كل مكان مع «إليونورا» كالأيام الخوالي، وكانت راهبات المراقبة يتبعنه بالتزام عديم الفائدة، لأنه كان قد كف عن ممارسة اللهو.

في «أرباري» كان تابعو «كانتارا» يواصلون بثّ كراهيتهم من الآباء للأبناء، كانوا يتحدثون عن زمن قديم كانوا فيه ملوكاً وأمراء للسردينيين، كانوا يتمنون لو كانوا هكذا في الحقيقة. كانوا يقيمون الصلوات في عيد «أرباري» حتى لا يتمكن الفرسان من التقاط النجوم برماحهم. في السنة السابعة والثلاثين من زواج «ماريانو» حدث ما كانوا يأملونه: اُلتقطت ثلاث نجمات فقط، فاحتفل المتآمرون في «بوزا».

بعد ثلاثة أيام شعر «ماريانو» بدنو الموت فاستدعى «أوغوني» وقال له: «إن كتاب «لوتشيفيرو» في السرداب أسفل نبع قصر القضاة»، أخذ «أوغوني» في البكاء والارتعاش، فقال «ماريانو» لابنه: «يجب ألا تبوح للرهبان بالسر...إن بحت به

(1) يقوم الفرسان السردينيون في أحد أعيادهم التقليدية بالتنافس في ما بينهم لجمع أكبر عدد ممكن من الحلقات المصنوعة على هيئة النجوم، والتي تُعلق في بعض الشوارع والميادين. ويمثل نجاح الفرسان في التقاط اثنتي عشرة نجمة، بعدد أشهر السنة، فألاً حسناً. أما في حال لم يتمكنوا من التقاط عددٍ كافٍ فيعدّ هذا نذير شؤم لعام سيئ.

فسيقتلونك»، عض «أُوغوني» على يديه حتى أدمتا في حضور «إليونورا» التي لم تمش في الموكب الجنائزي. وبينما كان الرجال فوق الخيول يتقدمون بتؤدة وراء الجثمان، استدعت «إليونورا» «ماريانو» الابن، وعهدت إليه بأسرار القضاة، ثم رحلت، ولم يرها أحد قط فيما بعد. قالوا إنها قد عبرت البحر، وتعيش في أرض الفرنسيين. ماتت «سينّا»، وظن بعضهم أنها ربما قُتلت بالسُم. كان عمر «أُوغوني» سبعة وثلاثين عاماً، لم يكن يبول في فراشه، وكان يعرف بالكاد القراءة والكتابة، ولكنه لم يكن يعرف امتطاء الخيل، ولا حلب النعاج. عند سماعه دوي الرعد كان يفر ليختبئ بين ثنايا ثياب الراهبة «جوستينا» التي حلت محل «إيزابيلا» التي كانت قد طلبت أن تتخلى عن تلك المهمة بعد أن أراد الشاب «أُوغوني» أن يأخذ بها كالبهائم. كانت الراهبة «جوستينا» أكثر صبراً متبعةً نصيحة الأسقف. نصَّب الأسقف «أوغوني» قاضياً في الكاتدرائية، فابتهج اتباع «كانتارا». كانت الراهبة تخبر الأسقف عن كل ما كان يحدث، وكان الأسقف على يقين بأن «أوغوني» لم يكن ليخصب أي أنثى. في إحدى الليالي كان «أُوغوني» قد انهمر في بكاء حادٍ كطفل، وبكلمات مضطربة أفصح للراهبة «جوستينا» عن أسباب بكائه: كان يعرف سر «لوتشيفيرو»، وإن أراد البوح به فسيقتلونه. قام ثلاثة عشر راهباً بتعذيب «أوغوني» حتى يبوح بمكان كتاب «لوتشيفيرو»، لم يعذبوه بالإبر أو بالأنصال، ولكن بالكلمات، فكانوا يقولون له: «ستموت تحت عذاب مريع... سيبعث بك (إيوسوس) إلى الجحيم، وستقوم الشياطين بغرس أشواكها الملتهبة في لحمك ليخرج منها الدخان، وتتشقق فيها جروح شنيعة، أشواك حمراء من اللهب ستقتحم بطنك المستديرة الرخوة، وخازوق ملتهب سيخترق ما بين ساقيك». ارتجف «أوغوني» وبكى، ففقد السيطرة على نفسه تماماً، صرخ كبهيمة تتأوه من العذاب الرهيب، قال ما كان يتذكره: «قصر القضاة»، ولكنه نسي كلمة «سرداب» فلم يكن يفقه معناها. واصلوا تهديده: « سيأتي لزيارتك في كل ليلة أشنع الشياطين، بهموت وإبليس وعزازل، سينزعون عنك سيقانك عضاً، إن لإبليس أسناناً طويلة كالسيف، حادة وقاسية، سيقضم وجهك وينزع وجنتيك، سيبصق بمرارته

القذرة على دمك». ست ساعات و«أغوني» يصرخ متحسساً في جسده الجراح التي كانت تنذر بها كلماتهم، فلم يكن «أوغوني» يدرك الفرق بين الكلمات والواقع. عاد دامياً إلى «جوستينا» التي واسته وطببته. بعد واحد وعشرين يوما ظهر في قصر القضاة بجوار النبع واحد وثلاثون راهباً في رداء أبيض، تتدلى من جنوبهم سيوف معقوفة كبيرة ومصقولة جيداً تبرق في ضوء الشمس والقمر، وصلبان حمراء بلون الدم مطبوعة على ثيابهم. كان الرهبان ينظرون إلى الجميع وإلى كل شيء بريبة، كانوا متأهبين للقتل والموت، وباتوا يقيمون في قصر القضاة ليل نهار.

تسلل أحد ما إلى بيت «أوغوني» بينما كان القاضي يمسك بغضب كالكلب بالراهبة «جوستينا»، وضعوا عصابة على عيني الراهبة، وقتلوا «أوغوني» بواحد وثلاثين طعنة.

في اليوم التالي كان تابعو «كانتارا»، رجالاً ونساء، في السوق بين سلال الفاكهة والأسماك يشقون ثيابهم، ويصرخون بالشكوى إلى السماء بسبب الميتة الشنيعة للقاضي، كانوا يشيرون بأصابع الاتهام إلى المذنبين: إنهم كاتمو سر «لوتشيفيرو»، الأصدقاء المهرطقون للقضاة، هم من قتلوا «أوغوني» خوفاً من أن يفشي سر طقوسهم الشيطانية للهرطقة، وصدق الشعب تلك الإشاعة. اعتقد «أرسوكو» أن تابعي جماعة «كانتارا»، الذين كانوا يكيلون الاتهامات، ويذرفون الدمع في السوق، هم المذنبون حقاً. فقد كانوا يعرفون مِن الرهبان أن «أوغوني» لم يكن قادراً على كشف السر، كانوا يحسبونه آخِر عقبة تحول بينهم وبين السلطة، كانوا قد نسوا الابنين الآخَرَين لـ«ماريانو»، أو ربما كانوا يتمنون أن يمحو عنف الاتهام والاغتيال الشنيع للقاضي أي شرعية لحكم القضاة.

اجتمع مجلس التاج ونصب «ماريانو» قاضياً، أبدى خمسة اعتراضهم، ولم يستطع الأسقف الاعتراض، فقد كان «ماريانو» ابناً شرعياً لـ«ماريانو» الأول.

كان «ماريانو» يعرف «اللاتينية» و«اليونانية» والجغرافيا والتاريخ والنباتات والبهائم، كان يعرف أيضاً مخبأ كتاب «لوتشيفيرو». ذرف الدمع على أخيه «أوغوني»، ولكنه لم يشد شعر رأسه حزناً، فقد كان بالكاد يعرفه.

—15—

في عام 1302 قام أسقف روما بعد أن ادعى ملكيته لسردينيا وفق هبة الإمبراطور «قسطنطين» (التي كان يعلم جيداً أنها زائفة) بالتنازل عن سردينيا دون علم القضاة إلى ملوك «أراغونا» مقابل ستمئة قطعة ذهبية دُفِعت له سراً. أكد أسقف روما لهم بأنه كان سيكون فتحاً يسيراً وسلمياً، ومدح السردينيين واصفاً إياهم بالقانعين. انتظر ملك «أراغونا» أربعين سنة حتى يموت آخِر القضاة، ولكنه طلب من الأسقف استرداد الثمن المدفوع خشية من أن يكون لدى «ماريانو الثاني» أبناء آخرون، ربما «ماريانو الثالث» و«لرابع» أو أكثر، مما سيؤجل شهوراً عديدة الانتفاع بهبة «البابا». دعا أسقف روما إلى غزو الجزيرة، وأقسم بأنها لم تكن لتبدي أي مقاومة، ووعد بموت سريع للقاضي «ماريانو».

هبط الأراغونيون على السحل الشمالي، وشيدوا مدينة محصنة أطلقوا عليها اسم «الغوير»، ثم أتوا باثنتي عشرة سفينة، وحاصروا «كارالي» التي استسلمت عقب ثلاث ساعات فقط. وبينما كانت «أراغونا» ترسو كان البيزيون يغادرون في عجالة بعد أن قاموا بعملية تصفية حسابات سريعة مُخلفين وراءهم القتلى ثمانية وثلاثين ومئة وأربعة وستين جريحاً تسيل دماؤهم في أزقة المدينة المحصنة أمام ذهول الفاتحين الجدد. وبينما كان الأراغونيون يدخلون إلى القلعة من «باب الخنزير»، كانت سبع عائلات بيزية تخرج من «باب الأسد» راكضة خيولهم نحو السهل، بعد أن غرسوا خناجرهم بين ضلوع القتلى الثمانية والثلاثين مما جعلهم يخشون الثأر، وكان يقودهم «بَرنابا البيزي»، رجل فظ وعنيف ومحب للثأر وللحرية، ولا يطيق هيمنة الآخرين عليه. كان يثور من فكرة تحوله إلى

تابع ونديم لـ«جايمي الأراغوني»، وكان قد رحل عن «بيزا» للسبب نفسه، فقد كان هناك الكثيرون من ذوي النفوذ المتطلعون إلى التبجيل. كان قد قاتل وقَتَل في «كارالي» لكيلا يحني رأسه أمام أحد. قاد سبعة وأربعين رجلاً وامرأة عدواً في السهل حتى «أرباري» والدم ينزف من كتفه اليمنى، وعند بلوغه الأسوار ترجل وطلب من أتباعه أن ينتظروا في صبر. ترك على العشب السيوف والخناجر، واجتاز عتبة المدينة، وطلب من طفل يلعب أن يتكلم مع القاضي.

قال «برنابا»: «أخبروني بأنك تحكم أرض الرجال الأحرار». أجاب «ماريانو» «أنا لا أحكم...أنا أقضي...أصحب الناس» ثم أضاف قائلاً: «أخبروني بأن سيفك ملطخ بذكرى وبآثار دماء لرجال ونساء وأطفال».

«إنهم أعداء...أعداء ألداء...رجال ونساء وأطفال كانوا على استعداد لخنقي بالأغطية لو وجدوني نائماً دون حماية، أو ربما لكانوا دسوا لي السم لو دعوني لمأدبة، أو ربما لكانوا قضوا علي لو عثروا علي جريحاً في حفرة». كان «برنابا» يتكلم مع «ماريانو» ولكنه كان يراقب بطرف عينيه كل نَفَس تصدره «مارتينا»، ثم أضاف: «أيها القاضي إن أختك تريد قتلي فلتقل لها بألا تفعل هذا»، أشار «ماريانو» بيده فجلست «مارتينا».

منح القاضي إلى «برنابا البيزي» تلّين والوادي الذي يفصل بينهما في الأراضي التي كانت تنتمي في الماضي لعشيرة «توريس»، وتعهد «برنابا» في المقابل بمراقبة تحركات سكان «ألغوير». شيد البيزيون فوق التل الأعلى لموطنهم الجديد قلعة من الحجر الأسود لا يمكن لعصابات قطاع الطرق الاستيلاء عليها، ولا لكل شعب «ألغوير» حتى ولو كان مسلحاً بأكمله.

كان مقتل «أوغوني» كثقل ترزح تحت وطأته أرواح رجال ونساء أرض القضاة، كان كل واحد منهم يشعر بأنه المذنب، لم يستطع القاضي «ماريانو» أن يكشف عن هوية

القتلة، كان الجميع ينظرون إلى بعضهم بعضاً بريبة، وكان ثمة من يهمس في السوق بأن «ماريانو» هو من قتل أخاه.

تسلل «ماريانو» إلى بيت زعيم جماعة «كانتارا» وقتله وهو نائم، ويقولون إن «مارتينا» صاحبته.

سُمِعت أصوات عن تمرد وشيك، هدأ أسقف «أرباري» من روع تابعي الجماعة قائلاً: «إن الدم يدعو دماً آخر، إن السلطة التي يتم الاستيلاء عليها ضد رغبة الأكثرية هشة، يجب علينا انتظار اللحظة المناسبة وحينها سَنُسْتَقبل كمُحَرِّرين».

عجت «كارالي» بالجنود الأراغونيين، وكانت سفن جديدة تصل كل يوم.

طلب «ماريانو» من التاج بذل مجهود أوفر لتدوين القوانين المتوارثة، وطفق يكتب كل ما يُمليه عليه مَن احتفظت ذاكرته بشيء منها، وفي غضون ثلاث سنوات كانت الأوراق التي تحتوي على قوانين أرض القضاة قد اكتملت، ثم شرعوا في نسخها.

طلب الراشدون من «توريس» و«غدّورا» حماية قضاة «أرباري» بعد أن أقروا بقوانينهم. غدت هناك قوتان في الجزيرة: عشائر القضاة والأراغونيون القابعون داخل مدينتين مُحَصَّنتين.

احتشد المئات والمئات من الرجال والخيول في سهل «أرباري»، تحدثت وفود عديدة من الفرسان إلى القاضي وحاولوا إقناعه بشن الحرب. كان يوم الأحد حينما دعا القاضي مجلس التاج للانعقاد في يوم الأحد التالي، وخلال أيام الاثنين والثلاثاء والأربعاء هبطت من الجبال بالليل والنهار مجموعات مسلحة فوق ظهور الخيل، وخشي تابعو «كانتارا»

من أن يغزو السردينيون «كارالي». في ليلة الخميس قالت «مارتينا»: «أشعر بأن شيئاً ما سيحدث».

أجاب «ماريانو»: «لا أعرف ماذا سيقع» ثم راح في النوم. سهرت «مارتينا» مختبئة وراء الباب، قبل بزوغ الفجر بساعتين، سَمعتْ خطوات حذرة، فوقفتْ ملتصقة بالجدار، دَفَعَتْ يَد الباب وبرز ظل شخص، ضربته «مارتينا». عندما بلغ النصل القلب أصدر الرجل صوتاً كالحشرجة، سقط على الأرض بقوة، استيقظ «ماريانو»، ووثب واقفاً، سمعا وقع خطوات تهرب، قفزا إلى الخارج وركضا، تفرقت الخطوات في اتجاهات مختلفة، وتفرق الأخوان أيضاً. طاردت «مارتينا» رجلاً، وثبت على ظهره وأوقفته، ثم قتلته بطعنة سكين. سَمِعتْ أصواتاً، فركضت أسرع من الأرنب البري وأصابت رجلاً من ثلاثة كانوا يضربون أخاها من خلف ظهره. جرح «ماريانو» بسكينه رجلاً فسقط صارخاً من الألم، وفر الثالث. لاحقته «مارتينا»، ولحقت به، أمسكته من قميصه وجذبته نحوها، قضمت رقبته فقتلته. فر الرجل الجريح، وعاد «ماريانو» إلى الدار متمهلاً. كان ينزف من بطنه ومن كتفه دماً، وجد الدار يملؤها رجال ونساء يتعرفون إلى القتيل، اضطجع «ماريانو» وطلب أن يُحْمَل الميت إلى الطريق وأن يُترك هناك. كان قد تعرف الرجل الجريح: إنه أحد الأعضاء الأربعة عشر لمجلس التاج. طببت «مارتينا» جراحه، كانت قد أصابته حمى كانت تدوم ثمان وأربعين ساعة، وكانت «أرباري» قد عدّته ميتاً. أمام الدار، في الطرقات والأزقة، كان هناك المئات والمئات من الرجال والنساء يقيمون الصلوات، وخارج الأسوار المئات والمئات من الفرسان يترقبون. قام الأسقف بعمل قداس لطلب الشفاء له خوفاً من أن يقتلوه. في صباح يوم الأحد استيقظ «ماريانو» دون حمى، كانت «مارتينا» قد داوت جراحه واضعة عليها ضمادات بها عبير النعناع. سار «ماريانو» على قدميه من الدار إلى قصر القضاة متكئاً على كتف «مارتينا». طار النبأ من فم لآخر. وبينما كان «ماريانو» يدلف إلى قصر القضاة سُمِعَ دوي صراخ هادر مجهول يأتي من الحقول، وصعد إلى السماء، فحملته الرياح حتى بلغ «كارالي»: كان المئات والمئات من الفرسان يصرخون معاً: «هيبيه»، كانوا يرخِّمون الصيحة وينغمونها تصاعدياً وتنازلياً قليلاً، ثم يصمتون.

اجتمع المجلس حول القاضي أمام النبع، وكان أربعة رجال غائبين. كان هناك رجال ونساء وأطفال يحيطون بهم صامتين مصغيين، وكان هناك أيضاً الرهبان ذوو الصلبان الحمراء الذين لم يكونوا يبرحون القصر أبداً يصغون هم أيضاً صامتين ساكنين قائمين بين مئات الجالسين. حكى «ماريانو» أحداث تلك الليلة. تحدث المجلس، فقال أربعة: «ليس لدينا أي دليل على ما قاله (ماريانو)، إن الذين قُتِلوا ينتمون إلى أناس فقراء. إن كان هنا شخص غائب فهل يعني هذا أنه هو الرجل الجريح؟ وما العمل إن لم يكن هناك أي صلة بين الواقعتين؟». قال أربعة: «نحكم بالموت على الغائبين الأربعة». قال «ماريانو»: «فلنذهب جميعا لنرى (كارالي)، فوافق على الاقتراح ستة أعضاء، واعترض عليه أربعة. لم يكن يعلم أن الغزوة التي أمر بشنها ضد «كاليبه» (هكذا أطلق الأراغونيون على المدينة القديمة «كارالي») كانت مُطارَدة في الحقيقة. فقد كانت عائلات تابعي «كانتارا» تركض أمامهم بعد أن أدركوا أنه كُشف أمرهم جراء التعرف إلى هوية الرجل الجريح ولبقاء «ماريانو» على قيد الحياة، لذا فقد فروا لطلب اللجوء إلى مدينة الأعداء. دخل أربعة رجال من أعضاء مجلس تاج «أرباري» وبصحبتهم مئة واثنان من أقاربهم إلى «كاليبه» عبر باب «الأسد»، وطلبوا اللجوء إليها، وكان بينهم واحد وثلاثون فارساً متأهبون للحرب. لُبّي طلبهم وتم استقبالهم. عقب ثلاث ساعات فقط غُلِّقت الأبواب، ولبث سكان «كارالي» فوق الحصون يتطلعون إلى سيل من رجال يلوحون بسيوفهم وخيول تحمحم. تفحص «ماريانو» الأسوار، ودار حول التلال التي تحيط بها، ثم اجتمع بالتاج وبالفرسان تحت جنح الليل، وقال لهم: «إن هاجمنا الآن فسيمكننا الاستيلاء على المدينة، ولكن سيكون المنتصرون ثلاثمئة فقط، وسيلقى الآخرون حتفهم في المعركة، ففيمَ تفيد مدينة إن لم يكن لديك رجال يعمرونها؟ وفيمَ يفيد الميناء الكبير إن لم يكن هناك سفن تستضيفها وأخرى لتدافع عنه؟ أُفضِّل أن أختار حياة رجالي. أريد عشرة فرسان بخيولهم، سيقيمون هنا ليراقبوا المدينة متأهبين للركض سريعاً لتحذيرنا من أي تحرك، وسيكون هناك ثلاثون جواداً قويا على طول الطريق المؤدية إلى «أرباري» لاستبدال الخيول المنهكة».

حُكم غيابياً بالموت على أعضاء جماعة «كانتارا». دخل إلى المجلس أربعة أعضاء

فقط، ثلاثة رجال و«مارتينا». اقترح «ماريانو» أن يقوم المجلس بإعادة قراءة قوانين القدماء وتعديلها إذا لزم الأمر، فوافق المجلس. كانت «مارتينا» تتكلم بالكاد أثناء اجتماعات المجلس، تكلمت مرة واحدة فقط لتقول: «كلا!»، كان ثمة اقتراح بتعديل عقوبة مغتصبي النساء من الجلد لمئة جلدة في ميدان القرية إلى مصادرة اثني عشر فرساً فقط من أملاكه.

كانت «مارتينا» تصحب «ماريانو» كظله، كانت تقول جملاً قليلة الكلمات، وكانت تشعر وتتنبأ بالأخطار قبل وقوعها، ومن ثَم تأخذ احتياطات فعالة. كانت سريعة كالقط وشرسة كالثعلب.

بعد ذاك العام المضطرب عاش «ماريانو» ثلاثة عشر عاماً من السلام والمطر والشمس، كانت الجزيرة كلها ترى في أرض القضاة موطناً لها، وتعترف بقوانينها، ماعدا مدينتي «كارالي» و«الغوير». في السنة الرابعة عشرة وصلت جرادة «سوريا» الطويلة كسبابة رجل بالغ، خضراء اللون كورقة شجر مصابة بالعفن في مستنقع، ونهمة ككلب لم يأكل شيئاً منذ مئة يوم، ولكن مخذون القمح الذي تم حصاده في السنوات الثلاث الأخيرة واللحم المملح والتين المجفف والزبيب والجوز وبيض السمك والفول وجوز البلوط أتاحت للناس الحياة دون أن تصيبهم المجاعة. عقد «ماريانو» اتفاقاً مع جماعة من التجار العرب، فوصلت إلى ميناء «بوزا» كميات كبيرة من أسماك «البكلا» والرنجة والأنشوجة المملحة في مقابل الغنم والجبن.

كان الفرسان الواحد والثلاثون لعائلات «كانتارا» الأربعة الهاربة يقودون رجالاً من «كاليه» للسلب في قرى منطقة «كامبيدانو»، فتولى مئة من فرسان القضاة مهمة مطاردة تلك العصابات، وخلال عشرين سنة انخفض عددهم من واحد وثلاثين إلى سبعة فقط.

كان عمر «ماريانو» واحداً وعشرين عاماً عند توليه القضاء، وكان قد بلغ الرابعة والخمسين عندما اقترح التاج تنصيب قاضٍ آخر دون أن يسوقوا مبرراً واحداً مقنعاً. كان يُقال إن «ماريانو» كان قد صار مسناً ومتعباً، لاسيما أنه كان بلا وريث. كانت هذه حيلة من الأسقف، لأن تغيير القاضي كان سينزع الشرعية الوراثية عن حكم القضاة. لم يكن هناك وقت كافٍ للتصويت على الأمر فقد وصل الفرسان المكلفين برقابة مدينة الأعداء، حيث كان هناك جيش غازٍ يتقدم في منطقة «كامبيدانو». جمع «ماريانو» كل من كان بمقدوره القتال، وبعث بالعجائز والأطفال رسلاً لنقل الأنباء إلى القرى، ثم تقدم صوب الأعداء.

لقد ظهروا في حقول «سيدّوري» عندما كانت الشمس في كبد السماء، ثم تقاتلوا في الثالث عشر من شهر أغسطس في الساعة الثالثة عصراً تحت وهج الشمس بين الهشيم. عقب ساعة من اندلاع المعركة قتلت «مارتينا» شاباً بارعاً في المبارزة يرتدي القماش ويتحلى بالذهب، خلعت عنه معطفه الأحمر المُذهَّب والُممزق من طعنات السيف، وارتدته. كان ذاك الشاب شاحب الوجه والذي كان يرتعش من الحمى، وكان قد وصل إلى «سيدّوري» بعد مشقة وعناء هو أمير «أراغونا». دفع نبأ موت الأمير الأراغونيين إلى أن يطلبوا الهدنة. عند حلول الليل، وتحت جنح الظلام، هبط المئات والمئات من الفرسان من الجبال، وفي الفجر أعلن الأراغونيون الحداد لموت الأمير، وعادوا إلى «كارالي». كان يرقد بين سنابل القمح سبعة وثلاثون قتيلاً. لم تكن معركة كبيرة، وكانت تلك هي المعركة الوحيدة خلال مئة عام من الحرب ضد الإسبان.

عقب العودة من المعركة صوّت المجلس على قرار لتغيير القاضي، فوافق أربعة واعترض الباقون.

خلال السنوات العشرين الأولى من حكم «ماريانو»، وخلال السنوات الستين التي أعقبتها، ظل مشهد واحد فقط يجذب انتباه أطفال «أرباري» والجزيرة كلها. كل اثنتي عشرة ساعة كان واحد وثلاثون راهباً يرتدون زياً أبيض وعلى صدورهم صلبان حمراء

يخرجون من قصر الأسقفية بخطوات منتظمة. وفي الوقت ذاته كان الرهبان الواحد والثلاثون اللابثون في قصر القضاة يخرجون هم أيضاً، ويسيرون حتى يحتشدوا في صف واحد أمام البوابة الشرقية متطلعين إلى رهبان الأسقفية الذين كانوا يصلون إلى هناك، ويتوقفون على بعد خطوة منهم. كان كل راهب يرفع سيفه بيده اليسرى، ثم يضرب به بقوة على السيف المرفوع للراهب الذي يقف أمامه، ثم يرفع يده اليمنى إلى السماء، ويصيح مردداً: «الرب». كان الاثنان والستون يتحركون معاً في تزامن متقن للغاية، ولم يكن أحد منهم ليصيح أو ليضرب بالسيف قبل أو عقب الآخرين، وكان الأطفال يتحدثون عنهم بشغف. كانت قوافل كاملة من المزارعين والرعاة تصل من البلدات المجاورة لرؤيتهم بعد أن سمعوا عن ذلك التقليد الغريب. في يوم ما قرر أحد بائعي الحلوى أن يضع طاولة له بجوار قصر القضاة، وخلال فترة قصيرة قلده بائعو الفاكهة واللحم والكستنة المشوية. صارت مراسم تبديل الرهبان بمثابة عرض يومي، ولم يكن الصليبيون الاثنان والستون يبتسمون أبداً، ولم يكونوا ينطقون ولو بكلمة واحدة.

-16-

قدم ثلاثة راشدين من «ألغوير» أمام القاضي، وطلبوا قمحاً، وعرضوا ذهباً في المقابل. قالوا إن السفن الوافدة من المدينة التي وُلِدوا بها فيما وراء البحر قد تأخرت، ويظنون أن أحوال البحر لم تكن لتسمح بوصولها في القريب العاجل، ولم يكن لديهم خبز في المدينة، ولم يكن لدى الأطفال القوة الكافية ليركضوا ويزعقوا في الأزقة حيث كانوا ينتظرون بلا حراك فوق عتبات الأبواب، وهم يتطلعون بأعين مذعورة.

قرر القاضي أن باستطاعة الألغويريين أن يبتاعوا من السردينيين ولكن في يوم الأحد فقط، وفي قرية «تاتاري» التي ليست ببعيدة عن «ألغوير»، وسيعدُّ الألغويري الذي سيُعْثَر عليه في أرض السردينيين خارج المنطقة واليوم المسموح بهما جاسوساً عدواً وسيتم إعدامه.

هرع إلى «تاتاري» تجار قرية «سيو» الذين فتحوا حوانيت لهم تبيع اللحم والأسماك المملحة والزيت والزيتون المنقوع في الماء والملح والقمح والخبز والزبيب والنبيذ والتين والفلين والخيول والعجول والدجاج، أما سكان «الغوير» فكانوا يبيعون الأقمشة والمنسوجات والحلي والخزانات والصناديق. كان مئات الشباب والعجائز، كل يوم أحد، يزحفون فوق ظهور الخيل من «ألغوير» ومن قرى السهل الصغير إلى «تاتاري» التي نمت واعتبرت نفسها مدينة. وهكذا استعاد الغزاة عافيتهم.

كان «ماريانو» و«مارتينا» يرتحلان في أرض القضاة، وكان يصاحبهما الشاب «إيتسوكور»، حارس الزمن. كان الثلاثة يصلون إلى البيوت الأولى للقرى في السهول دون أن يلحظهم أحد، وبينما كانوا يتقدمون على الطريق الرئيس كان «إيتسوكور» يزعق لمرات قائلاً: «لقد وصل القاضي...من لديه نزاع فليحضر إلى الميدان...». كان لـ«إيتسوكور» صوت بارع في الهمس، ولكنه كان واهن للغاية، حتى أن صياحه كان يبدو وكأنه ضجيج لصرير بوق صادر من عازف موسيقى مبتدأ أكثر منه صوت إنسان. كانت القرى الواقعة فوق التلال تراهم قبل أن يصلوا، لذا فلم يكن من الضروري أن يبح «إيتسوكور» صوته من الصراخ.

حضر أمامهم أَخَوان كانا يمتلكان صقراً مُدرباً على الصيد ويحلق عالياً فوق القرية. أشار الأخوان إلى القاضي ليراه حيث كان الصقر يرسم دوائر في السماء. لاحقت نظرات القاضي الصقر الذي ترك نفسه ليهوي كحجر، ثم فرد جناحيه فانزلق، فأغلق جناحيه بمحاذاة جسده، وانقض ساقطاً بسرعة الصاعقة على شيء ما كان مختبئاً عن أعين القاضي والأخوين وراء البيوت. حلّق من جديد مُطلقاً صوتاً أجشاً فرحاً بالنصر، ثم راح يحلق ببطء، ويضرب بجناحيه كل حين في دائرة حول النقطة التي كانت تختبئ بها الفريسة المصابة. قال أحد الأخوين: «سيظل هكذا حتى نذهب ونأخذ الأرنب الذي قنصه»، ثم أضاف قائلاً: «إن هذا الصقر ملك لنا، يأتي للصيد مع أحدنا أو مع كلينا، ويأكل فقط مما تقدمه أيدينا له. لقد أقمنا جبلاً من الأحجار بجانب البيت حيث اتخذ الصقر عشاً له في أحد الثغور القريبة من القمة. لكن، أخي سيتزوج، وسيرحل ليعيش بعيداً في قرية أخرى مع زوجته ليعمل في كرم حماه، فمن منا يجب أن يحتفظ بالصقر؟».

سأل القاضي بينما يلتقط الأرنب البري الذي قتله الصقر: «متى سيرحل أخوك؟».

«في مستهل الربيع».

«سيأخذ أخوك الصقر معه، وعندما يحل الصيف ستذهب أنت لتأخذه، وفي الخريف سيأتي أخوك عندك ويأخذه، وفي أول الربيع ستمضي أنت لتأخذه، وعند حلول الصيف

ستلتقي أنت وأخوك في منتصف الطريق وتطلقان سراح الصقر ليذهب حيثما يشاء!».

رضي الأخوان بالحكم، ودَعَوَا القاضي إلى العشاء فلبى الدعوة. تناولوا الطعام والشراب وضحكوا، ولكن «مارتينا» أبت أن تدخل الدار، وراحت ترقب ملياً وباهتمام جبل الأحجار. رأت على الأرض طبقاً به قطع صغيرة من لحم الأرنب، أدخلت يدها في الطبق وأخرجتها ملآنة، تسلقت فوق الأحجار، وبلغت العش، وأطعمت الصقر.

لأيام وأيام قطعت «مارتينا» فوق فرسها الطريق بين «أرباري» و«أبازانتا» لتجلب في كل تارة قطعاً من أحجار الغرانيت التي كانت تضعها الواحدة فوق الأخرى على مقربة من بيتها. عندما بلغ ارتفاع جبل الأحجار ارتفاع الدار همس فتى من عائلة تابعة لـ«كانتارا» في أذن صديقة له: «ربما جُنت (مارتينا)». وعندما بلغ ارتفاع الجبل ارتفاع ثلاثة بيوت ليصير ثالث أعلى مبنى بعد الكاتدرائية وقصر القضاة، كان يتردد في السوق بصوت جهور ودون خوف: «لقد جُنَّت (مارتينا)». توقف صقر فوق ذاك البرج، وأكل مما قدمته يد «مارتينا». أمضتْ هناك أياماً وليالي فوق قمة البناء الغرانيتي وكأنها كادت أن تغدو طائراً كاسراً. أقام الصقر عشاً له، وكل فترة من الزمن كان يبتعد لمدة ثلاثة عشر أو سبعة وعشرين يوماً، ثم يعود مجدداً لأنه كان يحب الصيد مع «مارتينا»، وصار يتبعها أينما راحت.

كانت «مارتينا» تتبع «ماريانو» كظله، وكان هناك صقر يحلق دوماً فوق القاضي.

صار الصقر اثنين (فالذكر يهرع أينما وجدت الأنثى). همس صوت في السوق: «إنهما اثنان، كـ(ماريانو ومارتينا)»، كان الكثيرون يظنون أن القاضي لم يتزوج لأنه كان يلهو مع عائلته. صار الصقران سرباً (إنها معجزة الخلق الأبدية). كان القاضي يسافر مصحوباً بسرب من الصقور، ولم تعد هناك حاجة لأن يبح «إيتسوكور» صوته في قرى الوادي.

لم يتزوج «ماريانو» ولم تتزوج «مارتينا»، وكانا يعيشان معاً، ولم يُولَد وريث ليمنح الأمل لعشائر أرض القضاة.

كان «ماريانو» يسير بين الينابيع بعد ظهر كل يوم خلال الربيع والصيف والخريف والشتاء، وكانت ترتاد الينابيع فتيات كثيراً ما كن يبدين سعادتهن للهوهن مع القاضي. أما «مارتينا» فكانت تخرج للصيد مع الصقر لتعود إلى «أرباري» وجرابها مملوء لتبيع في السوق ما صادته بثمن زهيد.

كان الأساقفة في «كالييه» رجال ينبغي تبجيلهم وخشيتهم إن كانوا أبناء لعائلات إسبانية قريبة من القصر الملكي في ما وراء البحر، أو كانت تتم معاملتهم كَخِرقة للقدم إن كانوا سردينيين أو إيطاليين. فلقد كان الأسياد الحقيقيون هم راشدو العائلات الاثنتي عشرة، التي كانت قد نزلت بالجزيرة في أول زمان فتحها، والتي كانت تأمل في الحصول على غنيمة نفيسة، سهلة وسريعة المنال، ولكنها وجدت أنفسها تتزاوج، وتتناسل، وتحكم مدينة في حاجة دوماً إلى الدعاء بأن يكون البحر رحيماً حتى تستطيع البقاء على قيد الحياة. لقد أنقذ تجار «ألغوير» «كالييه» مرتين من النقص المخيف للخبز. كان أبناء الغزاة الفاتحين يعيشون في مدينة صغيرة محاطة بالأسوار يربطها بالجزيرة لسان من الأرض. كانت مدينة تكاد تحاصرها المياه والمستنقعات وبحر صافٍ غني بالسمك يحميها من السردينيين غير القادرين على الإبحار. خرج أبناء جنود «أراغونا» للصيد في المستنقعات، ووصل أيضاً جنود من «كاستيليا»، وفعلوا مثلهم. سمع أبناء النبلاء عن العيد التنكري لـ«بوزا» فابتدعوا مهرجاناً على طريقتهم. كان يغطون أجسادهم كلها من الرأس إلى القدمين برداء أبيض، ثم كانوا يركضون زاعقين بين الأكواخ البائسة التي كان يعيش بها آلاف من سكان «كارالي» الذين كان عليهم مواجهة الأساقفة والبيزيين والأراغونيين والكستاليين والكتالونيين كمواجهتهم للمطر: أي بالاحتماء في مكان مستتر إن أمكن ذلك، أو انتظار

أن يتوقف المطر على أمل أن يجلب لهم الخير في النهاية. كان أبناء النبلاء يقتحمون الأكواخ ويضربون الرجال والمعاقين ويغتصبون النساء والأطفال. قام نائب الملك بإصدار مرسوم ضد المهرجان الكئيب فقُتِلَ طعناً بالخناجر في أحد أزقة القلعة، فأُلغي المرسوم.

هام «بارنابا البيزي» عشقاً بفتاة اسمها «كاترينا» من «ألغوير» التقاها في سوق «تاتاري». عرض عليها الزواج بعد أن أفصح لها بأنه جد أرمل. أجابت الفتاة بأنها مَوعُودة لأحد النبلاء في «ألغوير»، فسألها «بارنابا» عن ذاك الرجل المحظوظ، فأخبرته «كاترينا» بالاسم. تمنى «بارنابا» الخير للعروسين، وحياها، وانصرف. بعد ثلاثة أيام من ذلك اللقاء عُثِرَ على العريس «روجيرو» مشنوقاً فوق أحد الحصون المطلة على بحر «ألغوير». كان جسد الرجل يتدلى من حبل مقيد بقضيب مثبت في الأسوار كان يستخدم عادة لرفع الشباك المملوءة بالأسماك وأحياناً في تعليق الأقفاص التي يُحتجز بداخلها المجرمون. كانت ريح الشمال تأرجح جسد «روجيرو». لم يصدق أحد أنه انتحر بتلك الطريقة المعقدة، وكان الناس يقولون إنه لو كان أراد قتل نفسه حقاً لكان يكفيه أن يقطع أوردته، أو أن يجوب ليلاً أزقة «كالييه» وبجعبته كيس مال له رنين. كان الناس يتساءلون أيضاً: «كيف تمكن من ذلك مُعرضاً نفسه لخطر السقوط والتحطم فوق الصخور؟ وفي الليل وتحت جنح الظلام، أمشى فوق قضيب ليقيد الحبل، ثم ترك نفسه ليسقط مشنوقاً، ولينال الميتة الأكثر خزياً!!!». لم يستطع أحد أن يتخيل مبرراً للقتل، فقد كان «روجيرو» الوسيم المهذب محبوباً بين سكان «ألغوير»، ولم يكن له أعداء. يوم الأحد في السوق اقترب «برنابا» من «كاترينا» وقال لها: «أقدم لك التعازي، لقد عرفتُ بما حدث لخطيبك الموعود، إنني حزين وأتخيل أنك متألمة جداً لهذا». أجابت الفتاة بنعم ودموعها تسيل، فسألها «برنابا»: «هل تريدين الزواج مني، الآن؟». نظرت إليه، فهمت، خافت ووافقت. بعد عام وُلِد «ماتيا البيزي». رأت «كاترينا» أنه كان يشبه أباه فبكت، وفي الليل ألقت بنفسها من أعلى حصن القلعة، فتهشمت رأسها إلى مئة جزء فوق صخرة غرانيتية. أرضعت المرضعات «ماتيا»، وأقسم «بارنابا» ألا يتزوج ثانية.

في العام التاسع والثلاثين من عهد القاضي «ماريانو» دهمتنا الجرادة الفارسية، حمراء صغيرة بحجم خنصر طفل عمره ثلاث سنوات، وكانت أكثر تدميراً من حبات البَرَد. أمر «ماريانو» أن تُطلَق في الحقول خنازير شرهة لأكل شرانق الجراد. لبثت الجرادة الفارسية عاماً آخر لم تمطر فيه السماء ولو قطرة واحدة، ولما لم تجد الجرادة ما تقرضه حلقت باتجاه «كورسيكا» و«توسكانا». في العام التالي لم تظهر غمامة واحدة، كان الرجال يتطلعون إلى السماء، إلى تلك الزرقة المتوهجة والشمس الحارقة لهذه الأرض. أدى العجائز رقصات بخطوات يَصعُب أن تحاكي رقصات القضاة في جبل القدماء. كان الشباب يضربون بأيديهم على الأرض اليابسة فتتحول إلى رمال.

كان المخزون ينضب، ولم يكن هناك قمح ولا فول.

ألزم مجلس التاج «ماريانو» بأن يتزوج وأن ينجب وريثاً ليتولي القضاء.
قال «ماريانو»: «سآخذ أول فتاة بكر أجدها خارج القصر».

التَزَمَ بكلمته.

إنها «أنيقا»، مزارعة من «سيوروجوس» عمرها خمسة وثلاثون عاماً، وكانت تلك المرة الأولى التي تأتي فيها لـ«أرباري» لترى نبع القضاة المشهور والمراسم المشهورة لتبديل الرهبان الصليبيين. كانت على يقين بوجود النبع في قلب القصر، فقد أخبرها بهذا جدها الذي لم يكن ليكذب أبداً، ولكن كانت لديها شكوك في وجود الصليبيين على الرغم أن أناساً صادقين كثيرين كانوا قد أقسموا لها برؤيتهم. لم تكن تستطيع أن تصدق أن اثنين وستين رجلاً بلحمهم وشحمهم يمكنهم أن يقوموا بحركات ليس لها أي مغزى أو فائدة. بينما كانت «أنيقا» تمشي وهي ترقب بعيون بلهاء من الدهشة الرهبان الصليبيين القائمين

حول النبع، حتى أنها لم تكن ترى أي شيء آخر، اصطدمت بـ«ماريانو» الذي كان يخرج من القصر غاضباً، متعمداً ألا يرى موضع قدمه. توقفا، نظر «ماريانو» إلى المرأة، وتطلعت «أنيقا» إلى الرجل وإلى المرأة التي كانت برفقته، ثم رفعت عينيها ورأت الصقور.

سألها «ماريانو»: «هل أنت بِكر؟».

أجابت المرأة: «أجل أيها القاضي».

«هل تريدين الزواج مني».

وافقت «أنيقا» دون تردد.

كانت «أنيقا» قصيرة القامة ولديها شفة مشقوقة وأسنان بارزة نحو اليمين واليسار وإلى الأمام وإلى الخلف، كان الخصر نحيفاً والفخذان ضخمتين كفخذي الخنزير، وكان لها شارب طويل يتدلى فوق شفتيها وعلى جانبي الفم وإلى أسفله، أما الثدي فكان ككمثرتين يابستين فاسدتين، والعينان سوداوين ومفعمتين بالحياة.

أمضى «ماريانو» ليلة سيئة، فقد كان عليه أن يشاهد فيها أسناناً بارزة مُتسوِّسة وسوداء كالأبنوس، وأن يشعر بالرغبة نحو هذا الوحش الذي يسيل منه لعابه، وتنبعث منه رائحة جبن كريهة، حتى أنه كان على وشك أن يضرب راهبات المراقبة الممسكات بالشموع المتقدة. لم تكن «مارتينا» التي كانت تجلس في حديقة البرتقال المحيطة بالدار تستطيع منع نفسها من الضحك، أما الصقور وقد أثارتها تلك السعادة غير المعتادة لـ«مارتينا» فهَبَّت تحوم في دوائر ضيقة مصدرة صياحاً أجشاً من الفرح. بعد أن أدى «ماريانو» مهمته كزوج قرر الامتناع لشهر. في نهاية الشهر أعلنت «أنيقا» أنها قد حملت، فابتهج «ماريانو» بالنبأ، ورحل بصحبة ثلاثة عشر صقراً في جولة إلى كل ينابيع أرض القضاة.

وُلِدت «إليونورا»، وأرضعتها «أنيقا» لحولين.

حين بلغ عمرها ثلاث سنوات كانت «إليونورا» تمتطي الخيل كفارس بالغ، وتصحب «مارتينا» في جولات طويلة فوق ظهور الخيل حول المدينة، بينما كان «ماريانو» ينام أو يجلس في القصر ليقضي في منازعات الناس.

عقب سنة من الفطام سألت «أنيقا» «ماريانو» لِمَ لم يكن يتقرب إليها لأداء واجباته الزوجية. أجابها القاضي بأنه كان قد تزوجها نكايةً فقط في مجلس التاج ولكي تنجب له وريثاً. أضاف «ماريانو»: «لقد أتى الوريث، وقد بلغ زواجنا غايته»، ولمّا لمح الدمع في عين المرأة، أضاف أنه لم يكن ليقبل إهانة أن يرى نفسه تتحسسه الراهبات، ولذا فقد كف عن التقرب منها، وليس لأنه لم يكن يرغبها. قالت «أنيقا»: «سأتركك وسأعود إلى القرية، إنني أفضل صحبة الماعز على البقاء بجانبك». رَحَلَت بلا عودة.

كان لـ«إليونورا» ذكريات مبهمة عن أمها، ولم تكن تتحدث عنها، وكانت تحمل معها رسماً مطابقاً لـ«أنيقا»، ولحسن الحظ لم يكن شق الشفة بارزاً كما كان في الحقيقة. كانت عيناها تلمع بالذكاء، ولكن...!! تعلمت «إليونورا» بسرعة «اللاتينية» و«اليونانية» والتاريخ والهندسة. جعلت الرقة الاستثنائية التي كان يتعامل بها الناس معها، والهدايا الكثيرة التي كانت تتلقاها من هنا وهناك عند خروجها من الدار، ناهيك عن مراعاة الأطفال لها عندما كانت تلعب معهم، «إليونورا» تدرك أنها الوريثة المرسومة لتولي القضاء. لسنوات ظلت تفكر في احتمال أن تصير قاضياً، وكانت تخشى من حدوث هذا، فلم تكن ترغبه، ولم تكن ترغب في أن تَحمِل على عاتقها هم الارتحال لإصدار الأحكام، وعقد الجلسات مع المجلس، فقد كان يبدو لها عملاً مملاً وعديم الفائدة. لم تكن تريد تَحمُّل عبء اتخاذ قرارات تتعلق بأحداث جسام وبتفاصيل دقيقة في حياة الآخرين. أفضت بذلك إلى «مارتينا»، فأوضحت «مارتينا» لها حجج أسقف روما، وروت لها كيف كان يتم اختيار القضاة في قديم الزمن. قالت لها «مارتينا»: «إن لم ترغبي في تولي القضاء فيمكنك الرفض، ولن يستطيع أحد أن يرغمك».

ردد أحد الناس في سوق «أرباري»: «لقد قُتِل (أوغوني) في مؤامرة حاكها له أخوه القاضي (ماريانو). إن سلطة القضاة ملطخة بدماء الأخوة». بدت الفرية، التي كان قد نُسِي أمرها لعقود من الزمن، وكأنها بُعثت من جديد، وراحت تنتقل من فم لآخر. راح الناس في أرض القضاة يخلطون خطأً بين «ماريانو» الأب والابن وكأنهما صارا شخصاً واحداً. لاحظت «إليونورا» أن الكثيرين كانوا يتفحصون عينيها بحثاً عن آثار شيطانية باعتبارها دليلاً على الدم المسفوك في العائلة. باتت الأيام صعبة التحمل في «أرباري»، وكان «ماريانو» يمضي أغلب وقته فوق جواده وليس في المدينة، وكانت «مارتينا» تتبعه. قررت «إليونورا» أن تصاحبهما وهكذا عادت لتحيا خارج الأسوار. تعلمت الصقور التعرف إليها، وراق لها الصيد مع الصقور. اختارها أحد الصقور لتطعمه، فأطلقت عليه اسم «ريح».

في سن الثامنة عشرة كانت «إليونورا» عالمة ككاهن وداهية كثعلب. كان الكهنة السردينيون في تلك الفترة الأكثر جهلاً بين كهنة أوروبا كلها، ولكن لم يكن لينقص الثعالب السردينية الدهاء.

لم يكن الرهبان الصليبيون حارسو القصر يتكلمون، ولكن بعض خَدَمة الدير الصليبي كانوا يتمتمون بأن نسل القضاة السردينيين كانوا قد عقدوا عهداً مع الشيطان، كانوا يرددون: «لا داعي للدهشة... إن تاريخ القضاة ليس إلا تعاقب لحوادث قتل الأخ لأخيه والابن لأبيه، والفسوق والطقوس السرية».

كان سكان «أرباري» يرتابون في ممارسة «ماريانو» لطقوس شيطانية في مكان سري.

قالت «أنيقا» في قرية «سيورجوس» بأنها كانت قد شعرت بأصابع الشياطين تتحسسها بينما كانت تعاشر «ماريانو». لم تكن تكذب، فقد كانت تلك أصابع الراهبات، وكانت تظنهم شياطين قد سخّرهم «ماريانو» لخدمته، وكانت تردد أن هذا كان أحد الأشياء القليلة التي تمكنت من فهمها طيلة الأعوام الأربعة الجاثمة على ذاكرتها كالكابوس. لم تكن تتساءل قط كيف انتهت الحال بابنتها، وكانت تكيل اللعنات للقضاة أجمعين.

كان لـ«روجيرو»، الرجل النبيل الذي تركه «بارنابا البيزي» مشنوقاً يتدلى من الحصن، أخت اسمها «بينيديتّا» لم تكن بالغبية. فقد أدركت من كان الشانق، ولذا فقد راحت تتردد على سوق «تاتاري» متنكرة في ثياب مزارعة فقيرة تلتمس زيتوناً وعنباً دون مال. كانت قد درست فريستها جيداً. كان «بارنابا» رجلاً قصيراً وكانت ساقاه قصيرتين وصلبتين وله كتفان كجذع شجرة. كان جلده يابساً وقاتم اللون، قد دبغه الملح، وأصابته الشمس بالشيخوخة، وكان يبدو منيعاً لا يمكن لنصل أن يخترقه. كان يصحبه دوماً أربعة أو خمسة رجال طوال القامة بارعون وأشداء. راقبت «بينيديتا» «برنابا» كل يوم أحد سنوات بكبد تفرز مرارة سوداء من كراهية لم تكن لتتوقف إلا عبر الانتقام، مما زاد من قتامة وجهها جاعلة منها أكثر شبهاً بالمزارعة. في أحد الأيام رأت شبيهاً لـ«برنابا» بصحبة رفاقه البارعين بينما كان يتطلع بعيون طفل مفتون. كان صورة مطابقة لـ«برنابا» وكأن «برنابا» قد عاد شاباً من جديد مستغرقاً ومتأملاً ألوان الفراشات. صعد شعور بالاستمتاع من قدمي المرأة الحافيتين ليداعب ظهرها ويبعث بالدفء في قلبها. فكرت: «إنها نقطة ضعفه، إن شاء الرب!». كان أحد حراسه يتلكأ خارج الحانة التي كان يلعب فيها «برنابا» بالنرد ويحتسي الخمر. اقتربت المزارعة الفضولية والمتبجحة «بينيديتا» منه، وتركت الرجل ليتحسس أردافها وهي تضحك وسألته عمّن يكون ذاك الشاب الذي يسير في القرية ويبدو كالأبله. أجاب الرجل: «إنه لا يبدو، إنه حقاً أبله، لم تكوني لتتخيلي أن ذلك ابن «بارنابا البيزي»». اكتشفت «بينيديتا» بينما كانت تضحك وتداعب لحية الحارس أن الأبله كان يُدعى «ماتيا»، وكان في السادسة عشرة من عمره. فرت المزارعة

الزائفة قائلة إلى الحارس: «إن لك يدين طويلتين للغاية».

ما أن كَبُر «ماتيا» حتى أدرك أن ملامحه كانت تشبه أباه تماماً، ولكن روحه لم تكن قاسية مثله. كان يتحمل ازدراء أصدقائه دون أن يرد عليهم أو ينتقم منهم، وكانت الفتيات يجدنه بليد العقل وبشع القسمات والجسد. كان «ماتيا» يدرك بينما يتطلع إلى أبيه أن للطائر الجارح جاذبية قوية بوسعها أن تمنح الجمال لأي وجه، ولكنه لم يكن يشعر بأنه صقر كاسر، بل كان يخال نفسه عصفوراً أو طائر سُنونو أو روحاً خفيفة غير قادرة على الكراهية أو القتل. كان يشعر بوجود أبيه جاثماً عليه.

كان عمر «ماتيا» ستة عشر عاماً حين رأته «بينيديتا» للمرة الأولى، وكان يصغر «روجيرو» بأربع سنوات عندما مات مشنوقاً، ويَكْبُر بسنتين «كاترينا»، المرأة القتيلة، المسروقة، والضحية الثانية لـ«برنابا»، وأم ذاك الفتى الذي يتطلع إلى العالم بعينين متعجبتين.

في يوم الأحد السادس من فصل الصيف حين ارتفاع الشمس في السماء كان سوق «تاتاري» ساكناً وخاوياً، وكان النساء والرجال ينشدون الراحة تحت الأشجار أو داخل البيوت ذات النوافذ المغلقة، أما «برنابا» فكان يستمتع بالطقس اللطيف في حانة تحت الأرض حيث كان يلعب بالنرد ويحتسي الشراب. وصل «ماتيا» إلى شجرة بلوط نائية عن المدينة، ورقد على المرج ووجهه للسماء. رقدت «بينيديتا» على أوراق الشجر المجاورة لـ«ماتيا»، وتظاهرت بالنوم. حينما استيقظ من نومه رأى «ماتيا» على مسافة خطوة منه مزارعة شابة جميلة ذات صدرية مفتوحة عند صدرها، فسهر عليها وكأنها حورية طالما حلم بها.

سألت «بينيديتا» بدهاء، وراح «ماتيا» يتكلم ويتكلم دون تحفظ عن «برنابا» وعن

نفسه. لم تمتلك «بينيديتا» القسوة لقتله رغم معاناتها الشديدة. كانت تنصت إليه في كل يوم أحد، وفي الوقت ذاته كانت تتفكر في الأمر. في يوم الأحد التاسع لفصل الصيف وصلت إلى «ألغوير» سفينة لتجار عرب، وكان الطاقم مكوناً من ثلاثة عشر رجلاً أفريقياً أشداء يتحدثون «الإسبانية» كانوا عبيداً طيلة سبع سنوات في «مايوركا»، وكانت «بينيديتا» قد استأجرتهم.

كان «جايمي» قد صار يتيماً وعمره ثلاث سنوات، وكانت «بينيديتا» قد تبنته واتخذته أخاً لها، وعند بلوغه الحادية عشرة كان «جايمي» مستعداً لفعل أي شيء تطلبه منه «بينيديتا». دلف إلى الحانة، وهمس في أذن «برنابا» قائلاً: «إن ابنك يخسر الآن ثروة في لعبة النرد». ابتعد «جايمي» في عجالة، ولاحقه «برنابا» الذي أومأ إلى الحراس أن يبقوا في أماكنهم، فكل ما كان يريد أن يقوله لابنه كان يجب ألا يسمعه أو ينقله أحد. كان «برنابا» يعتقد أن إرادة الرجل يمكن أن تسيطر على النرد، وكان يعتقد حقاً أن النرد يستمع لندائه. (يكفيني هذه المرة الرقم ثلاثة أو أربعة، هيا أيها الرفاق الطيبون! العبوا! ثلاثة زائد أربعة سبعة، هكذا...). كان يغش إن أمكنه ذلك، وحينما كان يخسر كان يتحدث عن آلام في الظهر هي التي شتت قدرته في السيطرة على النرد. لم يكن يلعب إذا ما شعر بأي ألم في جسده ولو كان طفيفاً لأنه كان على يقين بأنه سيخسر. كانت خسارة ابنه المزعومة بمثابة دليل على الشكوك التي كانت تراود «برنابا» منذ زمن: لم يكن «ماتيا» يمتلك الإرادة. كان «برنابا البيزي» يرى ضرورة أن يلقن ابنه درساً حقيقياً. أشار «جايمي» إلى شجرة ليست ببعيدة، وفر هارباً، تقدم «برنابا» غاضباً بخطوات واسعة، ووصل إلى البلوط حيث شاهد «ماتيا» ينام على العشب وإلى جواره مزارعة شابة. أهو نائم؟ إنه لم يكن حتى قادراً على أن يمتلك امرأة؟ صرخ «بارنابا»، فاستيقظ «ماتيا» ورأى وجه أبيه يملأه الغضب فهرب وكأنه رأى شيطاناً. تظاهرت بالنوم، فركلها «برنابا» وسألها: «ماذا كنت تفعلين مع ابني؟».

أجابت الفتاة: «لم نكن نفعل سوءاً يا سيدي، لقد كنا نائمين».

قال «برنابا» وهو يتأفف من الغضب: «لو كنت أنا من ينام بدلاً من ابني ما كنت

خلدت للنوم بالتأكيد!».

قالت «بينيديتا» وفي عينيها بريق: «أظن هذا يا سيدي». رأى «برنابا» في ذاك البريق دعوة له، فألقى بنفسه فوق الفتاة، قاومت ولكن ليس طويلاً، وتركته يطلق مشاعره حتى ينسى من تكون ومن أين أتت. أصدرت إشارة، وإذا بعصا تسحق رأس «برنابا» إلى قطع كثيرة بعدد قطع رأس «كاترينا». سحبت «بينيديتا» نفسها من أسفل جسد القتيل، ورأت نفسها مغطاة بالدماء، فهربت. عاد الأفارقة بهدوء إلى «ألغوير»، واستقلوا السفينة معتقدين أنهم قد أتموا مهمتهم على أكمل وجه.

لم يشعر «ماتيا» أن موت أبيه قد خفّف من أثقاله، وتعجب لِما حدث، ثم أدرك الأمر: أن تُدافع عن نفسك، وأن تنشد الرخاء في مجتمع القلعة البيزية دون أن يكون لك رغبة في تكديس المال أو في السرقة أو في الغش كان أمراً أسوأ بكثير من أن يكون لك أب مثل «برنابا».

زاد هَمّ آخر بعد موت «برنابا»، فقد اختفت المزارعة، وأدرك «ماتيا» أنه قد تم استغلاله، وآمن أن الحياة ما هي إلا غش متواصل، إنها كمباراة نرد ضد لاعب غشاش يهزأ بالجميع.

عقب شهر من موت أبيه خرج «ماتيا» من القلعة دون أن يعرف إلى أين يمضي، اجتاز بجواده جبالاً ووديانًا، وبعد ثلاثة أيام مر بأبواب «أرباري» دون أن يعي كيف ولماذا وصل هناك.

-17-

أبصر «ماتيا» عيني «إليونورا»، وقال في نفسه:«إنها تعرف مكانها في هذا العالم، ولا تخشى شيئاً».

رأت «إليونورا» عيني «ماتيا» وفكرت: «لعله يعرف قول الشعر مثل البروفنسيين أو الصقليين[1]».

رأى «ماتيا» شفتين متناسقتين وأسناناً بيضاء صغيرة ساحرة حتى وإن كانت غير منتظمة، وشاهد ظل الصقور يحمي «إليونورا» من الشمس. أبصرت «إليونورا» في وجه «ماتيا» خوفاً وألماً وخيبة أمل. تعلم «ماتيا» أن ينظم الكلمات في ترانيم: «أيتها المرأة الجميلة التي تحرك شفتيها، أيتها الزهرة التي ترقص وتغني متمايلة مع الريح، أتحلمين بأعداء يبعثون فيك الدموع والشكوى، فلتخبريني ماذا سيحدث لنا؟». كانت «إليونورا» تستمتع بالتدحرج على العشب بعد أن تتغلب على «ماتيا» في المصارعة. أُفتتن «ماتيا» عند سماعه «إليونورا» تتحدث عن عِلم عن النسور والسكاكين والأيل والفجر والنجوم وعن الديوك. ضحكت «إليونورا» من الضجر الذي أبداه «ماتيا» عند محاولته امتطاء الحصان دون سرج. تعجب «ماتيا» عند اكتشافه أن كل طُحلب يبعث برسالة ما. اندهشت «إليونورا» حين اكتشافها أن «ماتيا» كان قادراً على العثور على زهرة مختبئة بين الأعشاب على مسافة رمية حجر متتبعاً فقط رائحتها. عندما شاهد «ماتيا» «إليونورا» تبلل جسدها عند النبع خشي الموت. ما أن رأت «إليونورا» الرغبة في عين «ماتيا» حتى أحست بقدرة جديدة

---

(1) بروفنس إقليم يوجد في فرنسا و ولايته هي مرسيليا.

على السيطرة على حركات جسدها في الماء. فكر «ماتيا» أن خيبة أمل أخرى كانت كافية لقتله.

كان عطر شَعر «إليونورا» كالعشب الرطيب، كالبرتقال الناضج، وكريح في شهر زهرة البَرْوَق.

«لديكِ ساقا أيل شاب وصدر جميل كتلال «ماندروليزاي»».

«لكِ عينان مخمليتان وذراعان قويتان وأسنان سليمة».

كانت تلك وريقات الزهور التي استعملها «ماتيا» ليصف روعة جسد «إليونورا». أنشدت «إليونورا» لتكتم صرخات إعجابها. بدا بياض عيني «ماتيا» وقد نسي كل الأحزان.

«مرةً بينما كنت أدخل في إحدى الغرف المظلمة في القلعة.....».

«عندما علمتني (مارتينا) أن أدعو الصقر ليقف فوق يدي...».

تكلما، أنصتا، وعثرا على حكايات لم يقصاها من قبل ليحكياها بسعادة غامرة، فاكتشف كل منهما الآخر عبر الحكايات التي يرويها.

«لقد كان لـ(برنابا) روح، فلم يكن كله شراً فقط...».

«لقد أُصيبت ساقا الحصان فوق الجبل، علينا العودة إذن...».

تداعبا بالعين وبالشفتين وبالجلد في مياه الجدول الباردة، وفوق العشب الرطب والطري وأوراق الشجر الشائكة الساقطة على الأرض والملتهبة من حرارة الشمس، وتحت شجر البلوط والفلين والبرتقال.

كان «ماتيا» و«إليونورا» يتسمان مانحَين السعادة إلى الرجال والنساء. شُوهد تاجر كانتاري غني، بدين وعجوز، وهو يتطلع إليهما بحسد وبشغف شديد حتى أنه لم يلحظ الطفل الذي كان يمد يديه الفارغتين داخل سلة التين ليخرجهما مملوءتين.

قال «إيتسوكور غونالي» إن هذه أنشودة حب «إليونورا».

-18-

تزوج «ماتيا» و«إليونورا» وكان شاهدا الزواج هما: رجل من «أُوليانا» وامرأة من «غوروس»، في كنيسة سوداء حيث كان أحد الملائكة حاضراً على الدوام في كل زيجة، مرة في هيئة راعٍ، ومرة أخرى في صورة أرملة، أما في ذاك اليوم فكان متمثلاً في هيئة صقر يقف على كتف المسيح الخشبي ويذرف دمعاً أبيض.

عاش العروسان في قلعة الحجر الأسود التي كان قد بناها «برنابا البيزي» وبات الناس يدعونها قلعة الصقور.

أَوْلى «ماتيا» اهتمامه لحقول القمح والفول والفاكهة وشجر الزيتون الجديد. في ضوء النهار كان رجال ونساء القلعة مزارعين يعملون بمهارة في الأراضي التي تحيط بديارهم، أما في ليلة يوم الأحد فكانوا يجتازون السهل بسرعة، وينقضون كالجوارح على التجار السردينيين والألغوريين العائدين إلى ديارهم عقب يوم في سوق «تاتاري» فرحين بتجارتهم الرابحة أو تعساء للخسارة التي لحقت بهم. كان جوارح القلعة في ليالي الأحد يسرقون النعاج والماعز والعجول. ارتضوا بقيادة «ماتيا» لهم بعد أن أثبت مقدرته على قيادتهم. لم يكن يخشون أن يلقوا مقاومة، بل على العكس، فيما يبدو كانوا يستلذون التحدي والقتل. لعشرين سنة لم يُرزق «ماتيا» و«إليونورا» أبناء وباتت الزوجة تحب شن الغزوات.

لمدة ثلاث سنوات ابتُليت أرض القضاة بالمجاعات، وسنتين بالجراد، واجتاحت «سارابوس» ثلاثة فيضانات، ودمر زلزال بحري ميناء «بوزا».

كان واعظون حفاة يمشون في البلاد ويصيحون: «لقد أثار القضاة غضب الرب ليضرب أرضنا، إن أيادي القضاة ملطخة بدم الأخوة، إن أبناء القضاة يتزوجون من أجانب ينهبون أرض الرب، إن عشيرة القضاة ترقص على شرف الشيطان، وتُقبِّل مؤخرة (لوتشيفيرو)، أمير الملائكة المتمردة والكبش الفاحش، إن جزيرة الرب عفنة فاسدة كجيفة محاطة ثلاثة عشر يوماً بالذباب النهم لكل أنواع القذارة، فلتتوبوا! ولتهتدوا وتوسلوا العفو إلى الرب! فلتجلدوا أنفسكم كما نفعل نحن! ادفعوا بالدم المسيحي دَين (لوتشيفيرو)! ولتكفروا عن ذنوبكم بنزع جلودكم بسياط كهذه مصنوعة من أمعاء البقر الحقيقية!». كان يجلدون أنفسهم في ساحات القرى، ثم يبيعون السياط، ويأكلون طعاماً شهياً ووفيراً أعدته لهم نساء تقيات.

اكتظت «كالييه» بالرجال المسلحين. قاد السبعة، الذين كانوا قد فروا من «أرباري» ولجأوا إلى «كالييه» ونجوا من مطاردة فرسان «أرباري» لهم، احتلال منطقة «أولّلا». زحف ثلاثة آلاف إسباني تبرق حرابهم فوق التلال صوب «أورّولي»، ففرّ السردينيون. عاد الجنود الذين لم يكن يرغبون في أن يتحولوا إلى مزارعين إلى «كالييه» ليحققوا انتصارات بين الخمر والسمك المشوي في شارع «لوتشيفيرو»، والذي صار مخصصاً للباغيات بأمر أسقفي. ضاع محصول الزيتون لتلك السنة.

كان «ماريانو» قد صار عجوزاً وطاعناً في السن، وكان يعيش وحيداً ويكاد يكون منسياً في داره بـ«أرباري». كانت «مارتينا» تخرج للصيد مع الصقر الوحيد المتبقي في جبل الأحجار القديم، وفي المرات القليلة التي كان يلتقي فيها «ماريانو» بـ«مارتينا» كان يتطلع كل منهما إلى الآخر دون أن ينبسا بكلمة.

كانت مئة صقر قد انتقلت للعيش مع العروس في القلعة البيزية حيث بنت أعشاشها بين الشرفات، وكان السردينيون والأراغونيون والرحالة يبصرون من السهول القلعة السوداء والصقور تحوم فوقها، ولذا كانوا يفضلون الابتعاد عنها.

هاجمت الحمى القاتلة الأبقار. أصابت الغرغرينا قدم «ماريانو» بعد أن سقط من على ظهر جواده، فأمر العجوز بأن تُبتر ساقه حتى الفخذ. اقتطعت «مارتينا» له عكازاً من شجر الكرز، ولم يعد باستطاعة «ماريانو» ركوب الخيل بعد ذلك اليوم.

كانت عصابات من الشحاذين تسير من قرية لأخرى، ويجلدون أنفسهم، ويبكون، ويتهمون القضاة بأنهم السبب وراء كل شرور العالم، ويدعون إلى الخلاص زاعقين: «منذ متى يحكم (ماريانو)؟ لم تكونوا قد وُلدتم بعد، ولا حتى آباؤكم كانوا قد وُلدوا، ولم يكن آباء آبائكم قد ولدوا أيضاً بينما كان (ماريانو) يحكم. لقد مضى منذ ذلك الحين أكثر من مئتي سنة. فأي رجل يستطيع أن يحيا لمئتي سنة؟ لِمَ لا نستطيع نحن وأنتم الحياة مئتي سنة؟ إننا نعرف السبب: فنحن لم نعقد عهداً مُقبِّلين مؤخرة أمير الملائكة المتمردين ذي الاسم الفاحش، الخنزير القذر».

رحلت «مارتينا» عن أرباري يتبعها الصقر، وعاشت في قصر البيزيين، وراحت تمارس الصيد، وتُعلِّم الفتيان القتال بالسيف والمبارزة دون قواعد باستخدام الأقدام والأيدي والرأس والمرافق والأسنان والرُكب والقبضات، وتدربهم على استخدام حبل للشنق وعصا مطعمة بقطع من الحديد لسحق الرأس والعضلات.

لسنوات عاش «ماريانو» وحيداً في «أرباري» يأكل الكلأ ووريقات الأزهار ومسحوق الفراشات وبذور نبات الهليون البري والليمون الشوكي والحلزون النيء ولم يمت.

أضحت «أرباري» كل يوم أكثر فقراً وقذارة.

كان رجال مجلس التاج ينظرون إلى ما حولهم بعيون مذهولة: كان العالم يتفتت، ولم يكن أحد يعلم كيف ينقذه. وحتى السماء كانت قد ناصبت أرض القضاة العداء باعثة بموجات من الحماس بين الجلادين والكانتاريين المعوزين.

كان الراهب «أورليانو» يمشي حافياً بين البلدات ليصيح بكلمات من الكتاب المقدس بصوت قوي بالفطرة وقد زاده ترتيل المزامير مهارة. كان يونانياً يقرأ اللغة اللاتينية للتوراة، ولم يكن أحد يفهم شيئاً مما يقوله، ولكن كانت نبرة صوته تبث الخوف، وكان الوعيد بالعذاب المرعب يثير الخشية لأنه كان غير مفهوم. كان كل شخص يحاول أن يتصور الشر حسب سليقته ومقدرته على التخيل، فكان القاتل الداهية عديم الرحمة يرتاب في أن ينتظره الآخرون تحت جنح الظلام. فقد يخلق الخوف أشباحاً تبدو حقيقية. كان الكثيرون يزعمون أن دم «أوغوني» قد سمم أرض القضاة، وأصابها بالعفن، وأفزع السماء جاعلاً منها عدوة للسردينيين.

خرج «ماريانو» من المدينة وهو يعرج متوسلاً الرب أن يضع حداً لآلامه. اقتات الكلأ، ولما كانت ثلاث أرجل أفضل من واحدة فقد صار كالعنزة، ثم ألقى بعكازه بعيداً، وعاد إلى «أرباري» ماشياً كعنزة عرجاء. قالوا إن رائحة كريهة كانت تنبعث منه كالعنزة. أيام وليال لم يكن يخرج من الدار، ولم يكن يرغب في ارتداء الثياب مفضلاً أن يظل عارياً منتصباً على ثلاث أرجل في جحره. كان يرقد في ساحة الدار بجانب جبل الأحجار الخاص بـ«مارتينا» والذي هجرته الصقور، ولبث أياماً وليالي تحت الشمس والنجوم يصلي للرب بأن يضع حداً للآلام.

دهم الجراد من قلب «أرباريا» وكان كبيراً كقبضة طفل ذي ثلاثة أعوام، وأخضر اللون كعشب ينبت من الجليد، وكان يقضي على كل أنواع الحياة، ويبث الرعب في الخيول. أبت الخنازير أن تأكل الشرانق، وتكرر البلاء طيلة أربعة أعوام.

في العام الخامس وُلِد «ماريانو» ابن إليونورا و«ماتيا».

انصرف الجراد عن الجزيرة، وعاد القاضي لارتداء الثياب في يوم الأحد ليذهب إلى القداس حيث كانت العنزة ذات السترة والسروال تصغي للشعائر في صمت وقبل النهاية كانت تقفز هاربة. تعاقبت المياه والشمس بشكل منتظم ووفقاً للفصول، وكانت سنابل القمح كبيرة وملأى والعنب جافاً ووفيراً والخبز طيب الرائحة والنبيذ يثير النشوة.

عادت الحياة للجزيرة، وكان الزيت لتلك السنة هو الأطيب على مدى ذاكرة جيل كامل. تفرقت عصابات الشحاذين الجلادين، أو رحلوا لحروب صليبية نائية. رحل الراهب «أوريليانو» ليعظ في «كورسيكا» حيث قام أحد الرعاة بقطع لسانه بالسكين بعد أن شعر بالإهانة من نبرته المُهددة المُنذِرة وبالازدراء لأن شتائمه كانت تبدو شريرة وغير مفهومة.

تمتم شخص ما في القرى: «إن (ماريانو) الصغير قد وُلِد مُباركاً».

كان القمح والخبز والعنب والنبيذ وفيرة والشمس والمطر أيضاً، وحتى طفيليات الجوز اختفت. ازدهرت «أرباري» في السنوات السبع الأخيرة من حياة «العنزة» العجوز «ماريانو»، وزاد الرخاء في أرض القضاة، ونمت التجارة.

التقى القاضي «العنزة» وهو يرتدي سترة راعٍ في «بوزا» رجالاً ذوي عيون لوزية

هبطوا من سفينة أتت من أراضٍ نائية. ظن أنهم الأسلاف، كل نسل «أوراك» و«أورور» وقد أتوا ليصطحبوه معهم إلى مملكة الموتى. كان مندهشاً للغاية لأنه كان لا يزال حياً عند رحيل السفينة عن الميناء، ولكنه ظل معتقداً أنه قد تكلم مع «سول»، القاضي الأول، بلغة الأجداد القديمة. أُلتمِس العذر لـ«ماريانو» نتيجة القدر الكبير من النبيذ الذي كان قد احتساه وهو يخاطب الشرقيين دون أن يفهم كلمة واحدة مما كانوا يقولونه، أو ربما لم يكونوا يفهمون هم ما كان ينطق هو به.

كانت رؤية القاضي وهو يتسلل بين سيقان الرجال والنساء في السوق القديم وجوال من الشمام طيب الرائحة يتدلى من عنقه تبعث الخوف بين بعضهم وتُحيِّر الكثيرين.

وُلِدَ «ماريانو» الصغير مباركاً، لم يكن أحد يشك في هذا، ولكن العهد الشيطاني للجد كان هو الآخر أمراً مؤكداً. كانوا يعتقدون أنه خالد أبدي. كانوا يهمسون بأن عمره قد بلغ ثلاثمئة سنة، وكان الجميع يتذكرون بأنهم قد وُلِدوا في عهد «ماريانو»، وأن آباءهم وآباء آبائهم قد وُلدوا أيضاً خلال عهد «ماريانو». لقد مات الأجداد والآباء، وتقدم العمر بالعجائز، بينما «ماريانو» لا يزال حياً يحكم، ويركض على ثلاث أرجل، ويعوي كالكلاب، ويثغو كالماعز أثناء جلسات التاج.

كانت «مارتينا» تبدو أكثر شباباً من أخيها، وكان جسدها كله عظام وعضلات، وكانت تعدو كفارس حاملة فوق كتفيها «ماريانو» ذا السبع سنوات، وكانت تشعر بقلبها يُولد من جديد كالأرض التي من حولها، وكانت تبتسم. ظللت غيمة جبهتها فقالت للطفل: «علي أن أرحل، ولكنني سأعود لأراك». تتبعت عينا الطفل «مارتينا» وهي تركض، رآها تقفز فوق صهوة الحصان، وتركض دون أن تأخذ بزمامه، ثم تتلاشى في الهالة البرتقالية للغروب.

كانت الليلة في أولها عندما بلغت «مارتينا» «أرباري» المهجورة. قفزت إلى الأرض أمام دار «ماريانو» الذي كان يجلس مستيقظاً وساكناً دون حراك على حافة فراشه المصنوع من القش. قال لها: «أأتيتِ؟»، أومأت «مارتينا» بالموافقة، فقال «ماريانو»: «كنتُ أنتظرك». انتصب واقفاً كالبشر للمرة الأولى منذ سنوات، اتكأ على ساقه الوحيدة الباقية وأسند يده اليمنى إلى الجدار الطيني. احتضنته «مارتينا» طويلاً في صمت.

راح «ماريانو» في النوم وسهرت عليه «مارتينا».

بدا آخر نَفَس للقاضي وكأنه كان يتنفس الصعداء. بكت «مارتينا» في صمت. كانت الشخص الوحيد الذي سار خلف الميت، فلم يكن الناس يصدقون أن «ماريانو» قد مات، وكانوا يؤمنون بأنه خالد. حين أبصروا «مارتينا» وراء العربة والتابوت قالوا: «لعل صقراً مات لها». لم يرفعوا أعينهم للسماء ليروا الصقور الأحد عشر تصرخ لألم «مارتينا»، وتحلق عالياً فوق بقايا العنزة العرجاء التي كانت قد وجدت السكينة أخيراً، وكانت تعاني دون شكوى مشوارها الأخير. كانت الصقور تذرف دمعاً بلون قوس قزح يتحول عند تساقطه على طول الدرب إلى بذور عُليقة سرمدية.

أبصرت «إليونورا» الصقور من بعيد، فغادرت القلعة مسرعة، والتقت «مارتينا» في السهل. سألتها «إليونورا»: «هل مات؟». فأجابت «مارتينا» بنعم.

كانت رحلة «ماريانو» الميت طويلة، صاحبته فيها امرأتان فقط إلى جوف الأرض حيث وجدتا بقايا الموتى من أزمنة أخرى ومن مطاردات أخرى سحيقة. ناحت «مارتينا» في الكهوف، وأنصتت «إليونورا» دون أن تذرف دمعة واحدة. وضعتا جسد القاضي تحت ضوء «إيس». قام «ماريانو» العنزة العجوز بالرقص فوق قمة الجبل الأجوف وبين ديار القدماء المُطارَدين، صعد، خرج من الجبل، وواصل الصعود ضاحكاً وواثقاً من

مغفرة الرب له. كان يضحك ويتسلق بسيقانه الثلاث على نور القمر حتى صار نقطة سوداء في الهالة البيضاء، ثم تلاشى.

قالت «إليونورا»: «يجب أن أنصرف».

قالت لـ«ماتيا» عندما سألها عن السبب: «إنه التزام قديم للعشيرة التي أحمل اسمها».

خطت «إليونورا» نحو مصيرها الذي كانت تخشاه. عادت «مارتينا» إلى قلعة الصقور، وقَبَّلت «ماريانو» الصغير قائلة له: «هذه المرة سأذهب في رحلة طويلة، ولكن سنلتقي في يومٍ ما».

رقدت «مارتينا» وأراحت يديها على كتفيها، ثم تنفست لآخِر مرة لتلحق بالعنزة العرجاء.

رحلت ثلاثمئة من الصقور عن أعشاشها، وحلقت حتى جزيرة الصخور أمام الساحل الجنوبي الغربي منشدة طوال الرحلة أنشودة طويلة يفهمها فقط من يعرف لغتها. ما أن وصلت إلى أعمدة هرقل حتى تركت نفسها تهوي في البحر كالحجارة لتموت مختنقة، ومنذ ذلك الحين تسهر الصقور على حراسة ذاك المكان وتعدّه مقدسا لها.

-19-

اجتمع مجلس التاج، فاقترح ثلاثة كانتاريين: «باريزوني سيرّا». فبحسب وجهة نظر الأساقفة والأراغونيين، فإن تنصيب «سيرا» قاضياً، رغم عدم وجود صلة دم بينه وبين عائلة «ماريانو»، كان يعني نزع الشرعية عن الحكم الذي أسسه رجال القضاة عبر القرون. أعرب الثلاثة عن تفضيلهم الاتفاق مع الأراغونيين على البقاء في حرية تبدو غير مسؤولة تناصب العداء لكنيسة المسيح. كان «باريزوني سيرّا» أحد هؤلاء الثلاثة. اقترح الأعضاء الآخرون: «إليونورا».

طلبت «إليونورا» تدويناً كاملاً وواضحاً لكل القوانين القديمة والتعديلات التي طرأت عليها في عهد «ماريانو».

لم تتلق «كاليه» الأنباء بسعادة. كانت تتبقى بضع سنين، أو لعلها أشهراً فقط، وكان سيكون بإمكان «ماريانو» الصغير الإنجاب. كانت «إليونورا» في أوج قوتها، وكان بمقدرتها أن تصمد لعدد ليس بقليل من السنين. كان يبدو أن سنوات المجاعة قد ولت بعد أن كانت المدينة المحصنة بالأسوار قد استقبلتها بالفرحة وبالسعادة آملة مساعدة السماء لها في كسر صمود السردينيين. حلت البركة بالجزيرة، كان محصول القمح وفيراً والنبيذ طيباً، وكان يبدو أن الغزو الذي كان قد طال انتظاره قد تأجل شهوراً أخرى.
بعث ملك «كاستيليا» إلى «كاليه» «روجيري مانوتشو»، اليد السوداء التي قتلت عدداً ليس بالقليل لحساب تاج «كاستيليا» ولأسباب شخصية أخرى. أتى تنصيبه نائباً للملك على سردينيا لينقذه من القتل المؤكد على يد أقارب الأشخاص الذين قام بقتلهم. كان

«مانوتشو» يعتقد أن تنصيبه كان ترجمة لإرادة الرب، وأنه قد سمع صوت «أيوسوس» وهو يخبره: «اذهب لتكفر عن خطاياك بغزو سردينيا بأسرها لحساب تاج إسبانيا وللثأر لموت الأمير!». كان «مانوتشو» يحسب أن «إيوسوس» يتحدث الإسبانية، وأنه كان يهتم لأمر تاج إسبانيا، ويفكر في الأخذ بثأر الأمير، كان لديه فكرة غريبة عن «أيوسوس». خيب أمير المهمة الإلهية الآمال، فقد كانت عليه طيلة خمس سنوات محاولة أن يحكم وأن يوحد النبلاء الأراغونيين في «كاليه»، والذين في ما يبدو كانوا فريسة لداء مكين يدفعهم إلى كتابة رسائل يومية إلى نائب الملك ليشوا فيها بالأفعال المشينة والذنوب التي يرتكبها النبلاء والنبيلات الأراغونيون الآخرون في المدينة. كانت اثنتا عشرة حادثة قتل ليلية خلال سبعة أيام فقط كفيلة بوضع الكلمة الختامية لجدال طال أمده منذ غزو المدينة، أي قبل مئة عام. فقد قرر نائب الملك بعد أن دَعَّم المناطق المحيطة بالمدينة أن يزحف أخيراً صوب أرض القضاة.

هبط «مانوتشو» إلى «ألغوير» دون احتفالات مصحوباً بسبعمئة من المسلحين الصامتين وسبعمئة فرس. راحوا يقتربون من قلعة الصخور في الليل راكضين ثم مهرولين ثم في النهاية مترجلين وهم يسحبون الخيول من الأعنة بعد أن كمموا أفواهها. في الربع الثالث من الليل استولوا على القلعة النائمة بعد أن قتلوا بسهام مسمومة أربعة جنود للمراقبة، ثم تسلقوا الأسوار بالحبال والمسامير والخطاطيف. وقع ستة عشر رجلاً من رجال «مانوتشو» أثناء تسلقهم الأسوار ولقوا حتفهم دون صرخة واحدة.

شُحِنَ واحد وستون بيزياً فوق سفينة أبحرت إلى سواحل «بارباريا» ليُباعوا عبيداً.

أما «ماتيا» و«إليونورا» فعقب يومين من الإبحار تحت حراسة «مانوتشو» وصلا إلى ميناء «كاليه» حيث هبطا مُكَبَّلَي المعصمين ليدخلا المدينة من باب «الخنزير» حيث أحاطتهما جموع من الناس يصيحون فيهما قائلين: «شياطين...شياطين» ويبصقون

عليهما، ويشيرون إليهما بأصابعهم. سُجِن «ماتيا» في محبس في أعلى برج «الخنزير».

كَلّف «مانوتشو» «رودريغو الميننداريس» بقتل «ماريانو» الصغير، ووعده في المقابل بأن يُقْطِعَهُ إقطاعية في منطقة «سان لوسوريو» كان سيحصل عليها بعد استسلام القضاة. أطاع «أليمنداريس» الأمر، أغلق على نفسه الدار، وخنق «ماريانو» وعمره اثنتا عشرة سنة، ثم قطعه إرباً، وقدمه للخنازير التي كان قد تركها جائعة أربعة أسابيع خصيصاً لهذا. راقب الخنازير ليطمئن أنها قد التهمت كل كسرة من عظامه. فور خروجه من حظيرة الخنازير أزاغ بريق شمس شهر أغسطس بصره فلم ير صقر «إليونورا» «ريح» الذي اندفع من السماء، واقتلع عينه اليمنى بنقرة واحدة بارعة.

قال «مانوتشو»: «لا مستقبل لـ(إليونورا)...فالزوج سجين وقد قُتِل ابنها، إنها ليست بأرملة، ولا يمكنها الزواج ثانية، ولن يحظى أي وريث بالشرعية».

لمدة ثلاثة عشر عاماً كانوا يقرعون طبول التريمبانوس ليل نهار في السهل أسفل أسوار «كالييه» ليبثوا الشجاعة في السجين، وليقلقوا مضاجع القتلة. استيقن الناس من مقتل «ماريانو» الصغير عقب سنتين من وقوعه، حينما لم يجدِ توسل أسقف «أرباري» نفعاً في إقناع «مانوتشو» بإظهار الطفل في الكاتدرائية، إن كان لايزال حياً.

مات «روجيرو مانوتشو» مسموماً. بينما كان «الميندير اس» يسير بمحاذاة الحصن، ويتطلع إلى السهل. حيث كان المئات والمئات من الرجال والنساء يجلسون في صمت، ويقرعون الطبول ليلاً ونهاراً، فلم يبصر الصقور السبعة عشر التي أمسكت بمناقيرها من ثيابه ومن قدميه وشعره ورفعته فوق الأسوار، وحلقت به في الأفق، وجعلته يتأمل مرة أخيرة زرقة البحر واللون البرتقالي والقرمزي لغروب «كالييه». حام الصقر «ريح» حول رأس «الميننداريس»، واقتلع عينه اليسرى بضربة منقار بشعة، فلم يرَ «رودريغو الميننداريس»

بعدها البحر ولا الألوان، ولم يرَ بياض الحجر الجيري للجبل الذي كان يقترب منه سريعاً حينما تركته الصقور ليهوي ويتهشم إلى سبعة أجزاء هامدة فوق صخرة مُدببة. احتفظت الصخرة ببقعة الدم عليها طيلة مئة عام ويوم. التزم تاج إسبانيا بالعهد الذي قطعه إلى «مانوتشو» وذهبت إقطاعية «سان لوسّوريو» إلى ابن «الميننديراس» «خوسيه» الذي لم يكن يرغب أن يعرف الناس أنه ابن أبيه فغيّر اسمه إلى «خوسيه تيرّامالا».

في كل عيد ميلاد للمسيح كان «ماتيا» يُجلب من محبسه إلى الكاتدرائية ليُعرض على رُسُل «إليونورا».

لا أحد يعرف الأفكار التي كانت تدور بخلد «ماتيا» أثناء سجنه، ولا أحد يعرف أفكار أولئك الذين يأخذهم ويعذبهم نواب الملوك في هذا العالم. أصغى «ماتيا» للطبول لثلاثة عشر عاماً، وعلم أن الإخوة والأخوات كانوا يبكون معه، ولعله علم أيضاً بموت «ماريانو»، فلا أحد يستطيع أن يخمن الأفكار التي كانت تدور في رأس «ماتيا». لم يكن السجين وحيداً، فقد كانت هناك غيمة من الصقور تحيط بالبرج البيزي من يوم وصوله إلى يوم إطلاق سراحه. كان «ماتيا» يسمع صوت الحوامين المحلقين حول القلعة، ولعلهم كان يحكون له عن أسى «إليونورا»؟ للأسف، ما عرف أحد من حراس الزمن لغة الصقور قط، ولعل «ماريانو» العنزة العرجاء، أو ربما «مارتينا» أو «إليونورا» كانوا يفهمونها، ولكنهم لم يشرحوا، أو يحكوا شيئاً.

افتتح وصول «روجيرو مانوتشو» عهداً جديداً كان باستطاعة كل شخص فيه أن يُبدي أسوأ ما في روحه. قُتِل أربعة من أعضاء التاج في «أرباري» في كمائن ليلية. بدأت بين الإسبان والسردينيين مفاوضات دامت سبع سنوات، وفي نهاية المطاف، مُنح كل من «باريزوني سيرّا» و«أرسوكو يسبانو» و«أُغوني لاكوني»، الزعماء السردينيين للأحزاب الثلاثة التي كان يتشكل منها مجلس التاج، لقب «ماركيز» على ثلاث إقطاعيات مجاورة

تضم مناطق السهل الجنوبي والجبال المقدسة للقدماء والساحل حتى «بوزا». وعد الإسبان باستقلال الإقطاعيات الثلاث بالمساواة مع مثيلاتها الإسبانية الأخرى، وتطبيق قوانين القضاة فيها.

اعترف السردينيون بالسيادة الأجنبية.

وقع على الاتفاق «إليونورا» ومجلس التاج والراشدون المئة الذين كانوا يُسمون أعضاء المجلس.

أُطلق سراح «ماتيا» لتصمت الطبول، فركض السجين بجواده في السهل محاطاً بجناحين من النساء والرجال الذين رأوا أنه كانت تنقصه أُذن وذراع.

كان «ماتيا» قد تعرض للتعذيب المتواصل ليلاً ونهاراً لسنوات حتى يفصح عن مكان المخبأ السري لكتاب «لوتشيفيرو». بتروا أصابعه، أصبعاً بعد أصبع، وقطّعوا يده جزءاً جزءاً إلى أربعة أجزاء، والذراع إلى سبع قطع، واقتلعوا أُذنه بمِلقاط ملتهب.

ظل «ماتيا» حتى موته يرى كوابيس لفئران ضخمة كثيفة الشعر تتراقص حول مضجعه، وتصرخ رافعة مشاعل، ولعناكب تزحف على وجهه في صمت متأهبة للدغه.

لم يكن أحد يعرف أين إنجيل «لوتشيفيرو» ولم يكن أحد يعرف هذا إلا حارس الزمن.

سأل أسقف «كالييه» «إليونورا» فوق عتبة أسوار «أرباري»: «أستفصلون أمور الحكم عن الكنيسة؟». كان الأسقف يأمل أن تجيب بالموافقة، فقد كانت غزوة صليبية مقدسة

كافية لتضع حلا لمشكلة الأرض الخصبة التي ظلت في أيادٍ بربرية حتى وإن صاروا يحملون ألقاباً نبيلة منحهم إياها الملوك.

أجابت «إليونورا»: «إن هذا غير معقول... لقد صرنا مسيحيين في فجر الزمانِ وسنظل هكذا. لقد أتى إلينا قضاة عظماء وآخرون عديمو الجدوى، وهكذا هو الأمر أيضا بالنسبة للأساقفة، فسيأتي أساقفة يعطون القضاة حقهم، فلكل شيء أوان».

غادر «ماتيا» و«إليونورا» «أرباري» يتبعهم ثلاثمئة صقر وموكب من بشر وبهائم، ومن فرط زحفهم البطيء تفرقوا في كل اتجاه.

زعق «إيتسوكور غونالي»، حارس الزمن، بينما يتطلع إلى المدينة التي وُلِد فيها من أعلى التل قائلاً: «ستعود أيام الغزوات». جعل جواده يشب، وتركه يعدو بين الأشجار، وهجر الحياة القويمة. ركض الأصدقاء الذين سمعوه وهم يصيحون مرددين: «مرحى بالغزوات...». أعطت نشوة الشباب الذين يهجرون الطريق القويمة بهجة إلى الرحيل الجماعي، بهجة سطحية كبهجة النبيذ. كانوا في أعماق أنفسهم يبكون حريتهم المفقودة، وينتظرون مذعورين مستقبلاً كانوا يتنبئون به قاتماً وثقيلاً أكثر من الماضي.

هدّم الإسبان أسوار «أرباري».

أخذ الرهبان حاملو الصليب في الحفر أسفل القصر، عثروا على السرداب وعلى الصندوق وعلى كتاب «لوتشيفيرو». لم تكن لديهم الشجاعة لقراءته، فوضعوه داخل صندوق أسود مطبوع عليه مئة صليب أحمر. حمل مئة وأربعة وأربعون راهباً صليبياً هذا الدليل، العهد الذي عقده القضاة مع الشيطان، في موكب بطيء عبر قرى «كامبيدانو» من ناحية منطقة «أوللا» فوق عربة يجرها ثوران حيث كان هناك راهب صليبي يعرض الصندوق الخطير منشداً ومردداً أدعية باللغة الفرنسية. بين الفينة والأخرى كان راهب

ينزل من العربة ليصعد آخر مكانه مسلماً إياه مهمة حراسة عمل الشيطان ذاك وسط مراسم مهيبة لأداء القسم وترتيل للأدعية باللغة الكاستيلية أو النابولية إلى أن بلغوا ميناء «كاليه» حيث كانت في انتظارهم سفينة شراعية.

أدرك المزارعون عند مرورهم أن حقبة قد أنقضت، وأن حقبة أخرى أسوأ كانت تبدأ. لم يكن المزارعون يعلمون شيئاً، ولم تكن لديهم رغبة في معرفة ما يحتويه الصندوق الذي كان يعرضه الرهبان.

هاجم القراصنة العرب السفينة التي كانت تحمل كتاب «لوتشيفيرو»، فألقى راهب بنفسه في الماء حاملاً معه الصندوق، وراح يتوسل إلى كلمات «لوتشيفيرو» الحبيسة في الداخل أن تنقذه من الموت، وأعطى في المقابل وعداً أن يخفي الكتاب عند وصوله إلى روما. حملت الرياح الطيبة الرجل والصندوق، وتركته فوق رمال «أوستيا» على ساحل روما.

مات «ماتيا» ولحقت به «إليونورا» بعد ثلاثة أيام. واصلت الصقور قنص وإصابة أعدائها لمئة عام، ويقول بعضهم أن الصقر «ريح» ما فتئ يقتلع أعين قتلة الأطفال إلى يومنا هذا.

خاتمة

قال «أنطونيو سيتسو» «إنك الآن حارس للزمن»، ثم أضاف بصوت خفيض: «وكمن سبقوك فسيكون عليك أن تظل مسيحياً دون نقاش، وأن تحترم القوانين التي توارثناها منذ فجر الزمان، ودوّناها، وعدلنا بعضها خلال حكم «ماريانو» و«إليونورا». كلما كان الزمان أردأ جلب الالتزام بتلك القوانين التمرد والفتنة. سيكون بمقدورك أن تضيف شروحاً جديدة للأحداث القديمة المروية في الحكاية التي استؤمنت عليها، وسيكون بمقدورك أيضاً أن تضيف أحداثاً جديرة بأن تذكر حدثت خلال الأعوام الثلاثين لتوليك حراسة الزمن، بشرط أن تقصّها بإيضاح وإيجاز. وها نحن حراس الزمن قد آثرنا منذ اليوم الذي فقدنا فيه أرضنا أن نختتم حكايتنا عند هذه النقطة».

-تمت-

نبذة عن المؤلف:

وُلد الأديب والشاعر والصحافي والمترجم الإيطالي سيرجو أتسيني عام 1952 في جزيرة سردينيا، أحد أقاليم ايطاليا، التي تتمتع بتاريخ عريق وبموروث ثقافي واجتماعي خاص يميزها عن بقية الأقاليم التابعة للجمهورية الإيطالية. عاش أتسيني طفولته في مدينة كالياري، عاصمة إقليم سردينيا، وبعد إنهائه مرحلة الدراسة الثانوية التحق بكلية الفلسفة التي لم يستطع إكمال الدراسة فيها بسبب انخراطه في نشاطات سياسية وعمله الدؤوب في الصحافة في سن مبكرة جداً بدءاً من عام 1966. في عام 1986 مع صدور أول أعماله الأدبية «خرافة القاضي قاطع الطريق» رحل عن سردينيا ليجول في أوروبا ثم ليستقر نهائياً في مدينة تورينو، ولكن يشاء القدر أن يلقى حتفه غريقاً في مياه شاطئ جزيرة سان بيترو السردينية في صيف عام 1995... «ابن باكونين» و«الخطوة الخامسة ثم الوداع» و«كنا نخطو على الأرض بخفة»، بالإضافة إلى «خرافة القاضي قاطع الطريق» من أهم الروايات التي كتبها «سيرجو أتسيني» والتي حظيت بتقدير النقاد والقراء. ورغم حياته القصيرة فقد كان الإنتاج الأدبي لأتسيني غزيراً ويشمل مجموعة كبيرة من القصص القصيرة والدواوين الشعرية بالإضافة إلى أعمال قام بترجمتها إلى «الإيطالية» من لغات أخرى.

نبذة عن المترجم:

تخرج في كلية الألسن بجامعة عين شمس في القاهرة- قسم اللغة الإيطالية وآدابها. حصل على درجة الدكتوراه من كلية العلوم السياسية بجامعة كالياري في إيطاليا ويقوم بتدريس اللغة والأدب العربي بجامعة جنوة. وله مجموعة متعددة من الأبحاث والمقالات المنشورة باللغة الإيطالية تتناول الأدب العربي والتاريخ الإسلامي والعلاقات بين العالم العربي وإيطاليا.

كنا نخطو على الأرض بخفة

"كنا نخطو على الأرض بخفة" هي الرواية الأخيرة وربما الأهم في حياة الكاتب والصحافي الإيطالي سيرجو أتسيني وهي بمثابة رحلة عبر الزمن وقراءة دقيقة لملامح هوية سكان جزيرة سردينيا الإيطالية. وكملحمة قديمة يقدم الكاتب في عمله الروائي مجموعة كبيرة من القصص التي توارثها حراس الزمن في الجزيرة جيلاً بعد جيل. ويقوم الكاتب ببراعة متناهية بمزج التاريخ والواقع بالأسطورة ليحكي لنا عن شعب قديم "راقصو النجوم" وفدوا من الشرق ليهبطوا على جزيرة ساحرة مجهولة.. "كنا نخطو على الأرض بخفة" رواية موحية تتحدى وتجذب القارئ الفضولي الذي لديه استعداد لأن يتتبع عبر حكايات لم تحَكَ من قبل مساراً روائياً مليئاً بالمفاجآت ومتحرراً من الأنماط الجامدة ومنفتحاً على أفكار تنتمي للغات مختلفة وثقافات متعددة.

المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة

كلمة
KALIMA

ISTITUTO PER L'ORIENTE
IPO
C.A. NALLINO

9 789948 016045